د . سيد محمود القمنى

السؤال الآخر

مكتبة علي بن صالح الرقمية

سيد القمني

السؤال الآخر

فلسفة

1998

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الإهداء

إلى شهداء مجزرة الأقصر:
قربان

السؤال الآخر

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات والدراسات والحوارات التي سبق نشرها وإذاعتها عبر العامين المنصرمَين، انشغلت بطرح مجموعة من الأسئلة والاستفسارات المصحوبة بمبررات طرحِها العملية والعلمية والعقلية، والأهم: «الوطنية». وقد تم وصف مثل تلك الطروحات المتسائلة بأنها أسئلة حرِجة وصعبة أحيانًا، وبأنها مُقلقة تهز أمورًا تصوَّرها الناس من الثوابت أحيانًا أخرى، وأحيانًا ثالثة بأنها تخوض في مناطق شديدة التخصص في علوم الدين، ولا تصح مناقشتها على الملأ؛ لأن إشراك العامة فيها مفسدة لهم، بل مثير للفتن والبلبلة في المجتمع. وهي المعاني التي سبق وردَّدها الأستاذ فهمي هويدي في هجومه علينا وعلى كتابنا «الحزب الهاشمي» في أهرام ١٩٨٩/٣/٢٣م. وهو ما سيكرره هنا الأستاذ الدكتور كمال أبو المجد بداخل هذا الكتاب.

وهنا بالتحديد تكمن أهمية السؤال الآخر المُقلق الصعب الحرِج؛ إذ نعتقد بشديد البراءة أن أي أمر قابلٌ للطرح وللمناقشة بالحُجج العقلية والأدلة الاستنباطية والعلمية، حسبما تحتاج الظروف، وحيثما كانت مصالح العباد والبلاد فثَمَّ وجه الله. ولا شك أن إخفاء جوانب في مأثورنا وإبراز أخرى كان يرتبط طوال تاريخنا بمصالح انتهازية؛ بغرض التعمية على مناطق في تاريخ الإسلام المقدس أو في تاريخ الوطن، كان يمكنها فضْحُ وتعرية لاءات الإعلام الموجه ولاءات الإرهاب المسلح معًا.

ومن هنا ستجد داخل هذا الكتاب كثيرًا من التساؤلات المزعجة؛ لأننا الآن، وقبل غدٍ، بحاجة إلى كل إزعاج ممكن، فمن جانبنا ليس لدينا ما نخشى خسارته سوى ذلك الوطن الذي يتسرب من بيننا إلى الضياع. وهنا محور التحدي والجرأة الواثقة المطمئنة إزاء جميع النفعيين والانتهازيين، سواء كانوا أشخاصًا أم مؤسساتٍ أم أحزابًا أم أصحاب مناصب سيادية، والذين هم أشد فتكًا بهذا الوطن من الإرهاب المسلح.

وهنا نحن لا نفعل أكثر مما كان قاعدة لملايين المصريين الذين ما كان لديهم شيء يخشون عليه الخسارة، فصاغوا إسلامًا خاصًّا مصريًّا يتضافر مع حاصلِ تراث وثقافة مصر جميعًا. ولم يرهبهم منطقُ القداسة المتربعُ بجوار العرش السلطاني، وتركوا تراثًا هائلاً لم يزَلْ بعدُ بحاجة إلى التصنيف والتبويب والاحترام الكامل والعلمي. لنفهم أي عبقري هذا الشعب!

ولأن هذا الشعب كان كذلك، وكان كثير الدهشة، ولا يخشى مَلامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها في صيغة سؤال يقول دهشًا مستنكِرًا: «هوه السؤال حُرُمْ؟!» وهو ذات الشعب الذي كان يرفض الأوضاع الخاطئة في المجتمع، كما يرفض في ذات الوقت الرشوة المقدسة بالحور والخمور في عالم الأبدية، في مثله البسيط السائر: «المحتاج يبيع نصيبه في الجنة.» لكن ما حدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة، كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية التي قامت عن عمد وسبقِ إصرارٍ بتزييف وعي الجماهير؛ مما أفرز لدى المواطن المصري وعيًا زائفًا لا علاقة له بالفرز الطبيعي للوطن؛ لذلك كان طبيعيًّا أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح، بعد أن غاب مفهوم الوطن وقِيَمُه لصالح ذوي المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدولُ التي ترعاها.

والسؤال هنا يخوض في أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعي دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح، ربما كان صادمًا، نحو المناطق التي تتعلق بمعاشنا وحياتنا؛ حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها؛ لأن استمرار السكوت مع الوعي والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بعدو البلاد عام ١٩٦٧م إلى حدود الدلتا الشرقية، وانتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

وبينما تعلن الدولة تمسُّكها بكل لاءات الحريات والحقوق الإنسانية، فإنها في واقع الممارسة تفعل شيئًا آخر تمامًا؛ فهي طوال الوقت تكرس لمنهج يكبح السؤال والإبداع الحر، ويدرب العقل على الطاعة الكاملة، وأنه لا خوف علينا؛ فنحن خيرُ أمَّة أُخْرِجت للناس، تقف من ورائنا منظومة فكرية متكاملة، ثم إنها قدسية، لا يدخلها الباطل أبدًا، أي إننا نملك الحقيقة المطلقة وكل علم ممكن؛ لأن لدينا في تلك المنظومة كل الكشوف العلمية حتى ما لم يكتشف منها! ولدينا قوانين تنظيم المجتمع، ولدينا قواعد الحريات السياسية والإنسانية، ولدينا قوانين الاقتصاد الكامل، وقوانين علوم التربية النهائية، وعلاج كل أمر في كل شأن.

وهكذا تم تكريس الواحدية الشمولية الدينية، مع تضخم الذات وتورم الأحلام، فحصلنا على أجسام الديناصورات بالتكاثر والتناسل الذي نجيده حقًّا وصدقًا، لكن مع عقول دمرتها الخرافة والمناهج الواحدية، ونفوس تضج في الصدور بألف علة وتشوُّه نفسي، أليست تلك جريمةً وطنية عظمى بكل المقاييس؟ وعشنا خدر العصور البدائية وتصورنا أننا بكثرتنا العددية «نحن الغالبون»، رغم أن المصري الخبير سبق وأكد في مثله السائر: إن «العدد في الليمون»، فأدرك حكمة انقراض دولة الديناصور من الوجود. ذلك المصري الذي هضم وامتص الأيديولوجيا الوافدة ليضفرها مع نظرته الفلسفية للكون، المعتمِدة على بنية تحتية مخالفة لتلك الأيديولوجيا، وقام يحول

الإله أوزيريس رب الزرع إلى «الشيخ زارع» الولي التقي صاحب الموالد، وآمون إلى «الحجاجي»، وإيزيس ربة الخضرة إلى الشيخة «خضرة»، وفي العاصمة أصبحت إيزيس ست الديوان السيدة زينب، لكن هذا الفرز الطبيعي لم يعُد الآن كذلك؛ نتيجة تدخُّل الآلة الجهنمية للإعلام الموجه داخل كل بيت.

إضافةً إلى أن هناك أسبابًا فصيحة واضحة معلومة لهذا الارتكاس، فإني أزعم هنا زعمًا سيبدو شديد الغرابة أحتسبه أحد أهم أسباب ذلك النكوص، وهو التعليم المجاني الموجه الذي اعتمدته ثورة يوليو ١٩٥٢م وحتى الآن، ليخترق المنظومة المصرية الأصيلة وخط سيولة الوعي، بقطع الشريان الواصل من القلب إلى العقل حيث جهاز الوعي، ووصل مكانه بمضخة التعليم الموجه مقابل مجانيته. ودفع الوطن مقابل هذه المجانية عقل أبنائه، بل ربما وجوده المستقبلي على صفحة التاريخ. وقام هذا التعليم يضخ إلى الشارع بالألوف من المؤَدْلَجين الجاهزين دومًا لتصفية الآخر المخالف للرأي الأحادي المطلق الصدق، وكان إرهاب اليوم هو جني ما زرعت أيدي هؤلاء بالأمس وحتى اليوم.

لقد احتاجت مؤسسة الدولة دومًا تبريرات فقهاء السلطة، المحترفين من العاملين بشئون التقديس، لمواقفها السياسية وسياساتها الاقتصادية وفلسفتها الشمولية، فكان ما كان.

لقد كانت مجانية التعليم غير مجانية بالمرة وعلى الإطلاق، فقد اشتُريت بهذه المجانية الأرواح والعقول، وكل الشواهد تؤكد ذلك، ولأن التوجه كان عروبيًّا وحدويًّا في منهج شمولي، كان لا بد من تكريس اللغة العربية، والتعليم بحاجة إلى وعاء اللغة، لكنها اللغة التي كان يسخر منها الفلاح المصري ويتساءل مستنكرًا رافضًا متوجسًا: «إنت هاتكلمني بالنحوي؟!» لقد كان «النحوي = العربي الفصيح» يعني له أن هناك مؤامرة تختفي وراء الألاعيب اللفظية، ستمررها عليه الفصحى بأساليب ملتوية غير مباشرة. ولا شك أنها تحمل خدعة مبيتة. هذا رغم علم هذا الفلاح وإيمانه أن اللغة العربية لغة مقدسة، خاطب الله بها نبيه، وبها تحدث آدم في الجنة مع الملائكة، وأنها ستكون لغة الحساب بعد البعث، ثم لغة الأبدية.

المأساة تتضح بعد تحول الكثيرين من الأميين إلى متعلمين، بل حاصلين على أعلى الشهادات التي لا تعني الثقافة بمعناها العلمي الدقيق. وحملت إليهم العربية مع أيديولوجيتها الواحدية كل محيطها الذي ارتبط بها وأفرزها، أي المنظومة البدوية بكاملها. فكان أن اختفت كثير من مفردات اللسان المصري الباقية فيه من راسبه القديم، وكذلك توارت كثير من النظم والعادات والتقاليد الأصيلة، ثم انقرضت الكرنفالات المصرية التي أصبحت حرامًا، رغم أنها كانت مساحة الإبداع الفكري والفني المصري بمذاقه الخاص ونكهته المتفردة، وسر سيادته في المنطقة، أقصد سيادته التي كانت.

وسادت العربية التي أصبحت تكرَّر على المسمع في القرى والنجوع، في الإعلام والتعليم، دون دراسة كافية عاشقة لمصر وعلمية في الآنِ نفسه، لسبل التضفير التي صاغها المصري عبر تاريخه؛ لتكون النموذج في المنهج، لكن ما حدث، ككلِّ حياتنا، كان عشوائيًّا، وكرَّس لملَكات الحفظ، والحفظ يعني التلقين والترديد كما يدرب على الطاعة. ومن هنا انتهى بعضُ من أفرزهم هذا المنهج إلى أن طاعة الله هي الأبقى، فقام يقتل الجميع حيث ثقِفوهم؛ لأن الدين عند الله الإسلام، وقد أمر الإسلام بقتال غير المسلم وأيضًا المسلم المرتد، وفي الفجوة ما بين التسارع في إيقاع التكنولوجيا وتطورها، وما يصحبها من بنية فكرية ونظم اقتصادية واجتماعية، وبين المنهج الثابت الأوحد الذي كرَّس له نظام تعليمنا وإعلامنا؛ وجد هؤلاء المبرر فقاموا يكفِّرون المجتمع كله، ويرونه مرتدًّا يستحق إعلان الجهاد عليه.

وكلامنا هنا لا يعني بالطبع استبعاد العربية، أو المقدس، أو الثقافة العربية، أو مجانية التعليم، بل إن كل ما يعنيه أن الإعلام والتعليم الموجَّه قد تمَّا بأسلوب غير علمي، شابته الأغراض طوال الوقت والمنهج غير العلمي ولا المصري في التفكير؛ لأن المنهج العلمي السليم والمصري الوطني هو عدم تغليب الثقافة العربية على المصرية، إنما نسجُ كلتيهما في مصهر واحد، وأن هذا المصهر يجب دومًا وطول الوقت أن يكون مصريًّا، وألا يغيب المشترك المصري عن أي خطة ولا لحظةً واحدة.

والواضح لكل ذي عينين أن منهج التعليم المجاني قد عُني بتاريخ العرب وتاريخ الإسلام والمسلمين أكثر مما اهتم بتاريخ مصر المتصل، حتى تم إسقاط حقبة كاملة من حقب التاريخ المصري المعلن؛ لأنها لم تكن عربية ولا إسلامية، فقط لأنها كانت قبطية.

لقد عُني منهج التعليم المجاني، وحتى الآن، بتكريس نفس أسلوب الحفظ والطاعة، مع نفي الآخر المخالف لمنظومتنا الشمولية، بل إن قتل ذلك المخالف شِرْعة وفريضة دينية تم مزجها بالوطنية، ومن هنا أسَّس هذا المنهج لكل القواعد المعادية لمفهوم الحريات الإنسانية، فكان أن خسر شبابنا حريتهم وتحولوا إلى آلات تنفيذ مُصمَتة، تعتدي على حريات الناس وحُرُماتهم وأفكارهم وعقائدهم.

ومع الضعف والرخاوة اللذَين أصابا الدولة بعد حصْدها نتائجَ منهجها، تحول أخطر أجهزة التثقيف (التليفزيون) إلى معرض للفكر الإرهابي، بل تعظيم الفكر وتضخيمه والتسليم له بالطاعة، وشاهدي هو البرنامج التليفزيوني الذي أذاعه تلفازنا الميمون في برنامج ديني مسائي ليلة الإسراء والمعراج؛ وذلك بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧م.

لم يشغلني ما قال المنتدون فيه حول عظات وعِبَر ليلة الإسراء والمعراج، إن ما شغلني حقًّا في البرنامج حشده لأعاظم الوعَّاظ، ومع هذا الحشد الرفيع كنت — ومثلي كثيرون — نتوقع أن

نسمع جديدًا، وجرأة على الجمود والتقليد والثبات بعد حادث الأقصر الرهيب، وقولًا فصيحًا يطلب إيقاف تدفق سيل منهج المعجزات، الذي أدى بنا إلى الجلوس ننتظر معجزة الخلاص، نطيل اللحى ونحرص على المواقيت، ويحمل بعضنا الرشاشات لتحقيق فريضة الجهاد؛ حتى يكتمل أداء الفروض فتتدخل السماء لتدمر لنا الآخر المتفوق، في أمريكا أو إسرائيل لا فرق، بدل أن نبذل نحن جهود تأسيس الحريات التي تسمح لمناخ العلم بالفرز، فنصعد نحن إلى مستواهم، لكن ما سمعناه تلك الليلة كان أكثر إملالًا من أفلام التليفزيون التي تكرس مفهوم سعادة الفقراء.

ولا أظن عاقلًا لم يتملكه الفزع وهو يستمع من أصحاب المعالي، على التوالي وبالدور، قصائد المديح التي تذوب وجدًا في الشيخ الشعراوي، حتى عندما جاء الدور على رئيس جامعة الأزهر المعروف بصوته الجهوري العالي القوي، جاءت كلماته المادحة خفيضة الصوت هادئة الوقع. أما عبارة «شيخنا، أستاذنا، معلمنا» فكانت المفتتح عند كل فقرة من خطابات تقديم ختم الدولة، ممثلة في مشايخها الرسميين، للخطاب الشعراوي، ذلك الخطاب الذي استمر ما يقرب من ثلاث سنوات أو يزيد ينفخ في نيران الفتنة الطائفية عبر تلفازنا المبروك، ويكفر علنًا وداخل كل بيت إخواننا المسيحيين ويسفِّه عقائدهم، ذلك الخطاب الذي وقف بالمرصاد لما ينفع الناس فأفتى بتحريم زراعة الأعضاء، حتى أغلق بنك العيون ضُلَفه أو كاد، ذلك الخطاب الذي شمت في أوجاع الوطن وكل حي أو ميت على أرض هذا الوطن، فقام يصلي صلوات الشكر لما حاق بنا من هزيمة كبرى، ذلك الخطاب الذي انشغل بالذات وبالنجومية، ولم ينشغل بآلام الناس وأمانيهم ولو مرة. لقد حاز صاحب هذا الخطاب نجومية لم يَصِلْ إليها أحد قبله في التاريخ الإسلامي، ومع ذلك لم ينشغل بالناس التي صنعت منه هذا الخطاب النجم.

لقد كان بإمكان صاحب الفضيلة — مع هذه الشعبية الكاسحة — أن يكون قيادة لجماهير الأمة لتحقيق مصالح الناس، كان بإمكانه أن يعلن الصيام ومعه كل المسلمين وكل المسيحيين حتى يتوقف الإرهاب الدموي على كل مستوياته، لكنه لم يفعل. كان بإمكانه أن يطلب من كل مصري، بل مِن كل مؤمن بقدسية الإنسان وحريته في العالم، أن يجعل مِن حدث مجزرة الأقصر يومًا للحزن العالمي دعمًا لدعوة الرئيس مبارك للعالم للوقوف ضد الإرهاب، لكنه لم يفعل.

كان بإمكانه رفع مظالم كثيرة لو قرر هو الصيام مفردًا حتى تُرفع. كان بإمكانه التحريض الشعبي في كل بلاد المسلمين على عدم التعامل مع إسرائيل أو المصالحة — بغض النظر عن الحكومات — حتى تخضع للمواثيق والعهود، لكنه لم يفعل. وكان بإمكانه أن يكون رمزًا عالميًّا لو طلب من كل شرفاء العالم الوقوف مع قضايانا، بنفس أساليبنا في الاحتجاج، وكان يمكنه بذلك أن يقدم عن الإسلام وعن مصر صورةً أنظف مما تقدمها جماعات الإرهاب اليوم. هناك الكثير كان بإمكان هذا الشيخ أن يفعله، في فرصة تاريخية حازها، وشهرة نالها، وتقدير وصل به حد التقديس،

فرصة لا يجود بمثلها الزمان مرتين، لكن الشيخ لم يفعل.

هذا هو المنهج الذي تمارسه مؤسساتنا الإعلامية الكبرى في دولة تعاني من الإرهاب الدموي المسلح، يأكل قلبها ويمتص رحيق الحياة في كبدها؛ لذلك لم يكن غريبًا أن نسمع من مرشد الإخوان طلبًا باستبعاد المسيحيين من الجيش ودفعهم الجزية، أو نحاكم القول ونصادر الرأي، أو يظل تعاملنا مع المرأة باعتبارها مجرد نصف ذكر، ووسط هذا المناخ لم يزَلْ مطلبنا عودة زمن الفتوحات؛ لنستعمر البلاد ونسبي العباد، بينما نحن ملقَوْن إلقاءً في قاع تراتُب الإنسانية، فأيُّ مرضى نحن؟!

إن هذا الكتاب الذي بين يديك يضم مجموعة مقالات تطرح تساؤلات آن لها أن تُطرح، أيًّا كانت العواقب على شخص الكاتب، تساؤلات تُصر وتكرر مطالبيها بين موضوع وآخر، وهي المطاليب التي لن تتحقق إلا إذا سمحنا للسؤال الآخر بالمرور، واعتدنا سماع الرأي الجديد أو المخالف، وبفتح النوافذ على العقل دون تقييد أو قمع، وأن تناقش الفكرة الأخرى، ولا تطالب بمصادرتها أو تكفيرها. أن نحقق العلمنة على مساحة الثقافي على الأقل، وهو أدنى المطاليب. ساعتَها يمكن القول إن هناك أملًا في أننا سوف نكون.

سيد القمني

الفصل الأول

لماذا لا نحاكم الإمام الغزالي إذن؟!

> «من المقرر لدى فقهاء الشريعة الإسلامية أن الردة هي الرجوع عن الإسلام، وركنها الصحيح بالكفر، إما بلفظ يقتضيه، أو فعل يتضمنه، ويعتبر كافرًا من استخف بالقرآن الكريم أو السنة النبوية، أو استهزأ بهما، أو جحدهما، أو كذبهما، أو أثبت أو نفى خلاف ما جاء بهما، مع علمه بذلك، عنادًا ومكابرة ... أو تشكَّك في شيء من ذلك.»

هذا الذي قرأتم عاليَه، ليس تلاوة لقرار من قرارات محاكم التفتيش على المتهم قبل فصل رأسه عن جسده بالمقصلة، إنما هو اقتباس بالنص من حيثيات الحكم في قضية نصر حامد أبو زيد.

هذه المرةَ يقف السؤال مع آخر جملة بتلك الحيثيات، وهي الجملة التي تصدر قرارًا بتكفير أي مسلم يتشكك في أمر من أمور الدين، وبالتالي فهي تعتبِر الشاكَّ مرتدًّا يستحق الإعدام. وبذلك وُضعت فتوى أصبحت ضمن بنود القانون المصري، حيث يتحول حكم محكمة النقض إلى سابقة قانونية ومادة يُعمل بها في الحالات المشابهة، وهنا لا بد من التساؤل عن حجم أنهار الدم التي ستسيل إذا تضاعف تصاعُد ذلك المد السلفي.

فمن منا لم يشكَّ؟!

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي وضع كتابًا أسماه «المنقذ من الضلال»، وضع فيه أصول الشك في كل أمر من أمور الدين، حتى وصل به المدى إلى التشكيك في وجود الذات الإلهية ذاتها. ومن يقرأ هذا الكتاب سيشكُّ حتمًا حتى لو لم يكن قد شك من قبلُ أبدًا. والإمام الغزالي رحمه الله يأخذ بيدك في طريق الشك، يسكبه بداخل عقلك سكبًا، حتى آخر صفحة من صفحات الكتاب، بعد أن تكون أميل إلى التشتت النفسي وأكثر ما تكون تشككًا في كل الثوابت الإيمانية، ليترك يدك ويقول: أما أنا فقد قذف الله بنور من لدُنه في صدري فآمنت به. وهكذا كان حل المشكلة: نورًا يقذفه الله في الصدر، فإذا أنا قرأت الكتاب وانتظرت هذا القذف النوراني ولم يحدث، فماذا يكون موقفي؟

فهلَّا حاكمنا الغزالي؛ لأنه فقط لم يشكَّ، بل إنه لم يترك قارئًا للكتابة دون شك، إن الرجل بذلك

لا يستحق أبدًا لقبه «حجة الإسلام» ولا لقب «الإمام» الذي كرَّمه به أسلافنا زمنَ العقل والانفتاح الحر على علوم الدنيا، وقبل إغلاق كافة أبواب الاجتهاد وكل نوافذ العقل.

* * *

لكن هناك رواية أشد فصاحةً من ضرب المثل بحجة الإسلام، وهي تروي لنا حدثًا هامًّا قد حدث مع عمر بن الخطاب يوم صلح الحديبية؛ حيث رأى المسلمون نبيهم يقدم للمشركين تنازلات وتراجعات لها أسبابها الدبلوماسية التي لم يَعِها المسلمون، ولم يدركوا الأهداف البعيدة منها، فأصابهم غمٌّ شديد كلما قدَّم النبي تنازلًا، خاصة أنه كان قد وعد رجاله بدخول مكة عام الحديبية؛ فيروي ابن هشام أن النبي ﷺ قام من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها في منامه أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وعقَّب السهيلي في شروحه بالقول: «كان النبي قد رأى ذلك في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي.» وصدَّق المسلمون نبيهم، لكنهم يفاجَئون به بدلًا من دخول مكة، يقف خارجها ويَقبل صلحًا شروطُه لصالح قريش، وفيه تنازلات اعتبرها المسلمون تهاونًا شديدًا، وهنا تروي لنا كتب السيرة أن عمر بن الخطاب قد لقي من أمر هذا الصلح رهَقًا شديدًا استنفره استنفارًا حتى ذهب إلى النبي يقول: «ألم تَعِدْنا أن نأتي البيت ونطوف به؟ قال: نعم.» لكن الإجابة بـ «نعم» يخالفها ما يحدث في الواقع، فتأخذ الحيرة بعمر كل مأخذ مع رعدة غاضبة دفعته إلى الإسراع نحو أبي بكر، ليدور بينهما الحوار المتوتر التالي:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

أبو بكر: بلى.

عمر: أوَلَسْنا بالمسلمين؟

أبو بكر: بلى.

عمر: أوَليسوا بالمشركين؟

أبو بكر: بلى.

عمر: فعلامَ نعطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟

أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزَه؛ فإني أشهد أنه رسول الله.

وهنا يعلن عمر جهارًا قوله: «وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة.»

وهكذا كان عمر بصحبة النبي يراه ويعاشره ويدركه بحسه وروحه، وعايَشَ نزول الوحي وعايَنَه، ومع ذلك شك في الأمر كله نتيجة موقف لم يدرك أهدافه الدبلوماسية البعيدة في صلح الحديبية.

وهنا يعقب السهيلي على موقف عمر الذي شك ولم تحوله كتبنا التراثية إلى منافق، ولم يتهمه أحد بالارتداد، يقول (السهيلي): «وفي هذا أن المؤمن قد يشك ثم يجدد النظر في دلائل الحق، فيذهب شكه، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد.» وهكذا يستنتج شيخ شراح السير أن المؤمن قد يشكُّ، بل إن ذلك الشك لا يسلم منه أحد على الإطلاق، مستندًا في ذلك إلى حديث عن حَبر الأمة وراوي الحديث الثقةِ عبد الله بن عباس.

وفي الحديبية حدث من المسلمين عصيان عام على النبي ﷺ، وهو ما لا يدخل فقط في مفهوم الشك، بل في عصيان الرسول واللهِ معًا، لموقف لم يعجبهم من النبي، فقد أصابهم الكرب لما قدَّمه رسول الله ﷺ من تنازلات في هدنة الحديبية، وبعدما استُكملت التوقيعات على الصحيفة، قام النبي يأمر المسلمين باستكمال شعائر العمرة التي لم تتم قائلًا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا.» لكن ليلخص لنا ابن الأثير رد المسلمين على نبيهم، فقد تعصبوا جميعًا عليه: «وما قام أحد حتى قال ذلك مرارًا فلم يقُم أحد منهم.» هكذا ظل الرسول يردد أمره ولا أحد يطيع على الإطلاق، ومع ذلك لم يُصدِر ضدهم حكمًا بالارتداد، ولا فرَّق بينهم وبين زوجاتهم، فقط عقَّب بالاستحسان على من حلَّقوا وبالاستهجان على من قصَّروا.

فقالوا له: يا رسول الله، فلِمَ ظاهرت بالترحيم للمحلِّقين دون المقصِّرين؟ قال: لم يشكُّوا. فقط ظاهَرَ النبي من لم يشكُّوا، لكنه لم يطرد كل الذين شكُّوا من ألوف المسلمين من دين الإسلام، ولم يوقِّع عليهم أي عقاب.

وكتب السير والأخبار تكتظ بمثل تلك الأمثلة، لعل أبرزها أن المسلمين أصحاب رسول الله رغم الوعد بالنعيم وبجنة الخلد، ورغم مصاحبتهم وملاحقتهم للنبي ﷺ، ورغم أنهم عاصروا وشاهدوا وعاينوا ذلك الزمنَ العظيم زمنَ نزول الوحي، فقد فروا من حولِ رسول الله ﷺ في غزوة أحد، حتى وقف وحيدًا في الميدان ينادي: إليَّ يا فلان، أنا رسول الله. فما يعرج إليه أحد والنبل يأتي إليه من كل ناحية، حتى قذف أبو دجانة بنفسه فوقه ليحميه.

ولحظة الهزيمة وقف بعض الصحابة من قريش يقولون: «إن رسول الله قد قُتِل فارجعوا إلى قومكم فيؤمِّنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.» أليس مثل هذا القول شكًّا في الأمر برمَّته من الألف إلى الياء؟ (برواية البيهقي). وقولٌ آخر قرر فيه بعض المسلمين اللجوء لرأس المنافقين عبد الله بن أُبي ليستأمن لهم من أبي سفيان، وهو ما رواه ابن كثير في قوله: «فقال بعض أصحاب الصخرة — أي الذين احتموا فوق صخرة أثناء القتال — ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أُبي فيأخذَ لنا أمَنةً من

أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قُتِل، فارجعوا إلى قومكم.» أما البعض الآخر من المسلمين لما رأوا الهزيمة، فقد فروا وعلى رأسهم عثمان بن عفان، حتى ابتعدوا عن المدينة بحوالي ثلاثين ميلًا «فرارًا من الميدان، ومن حول رسول الله بذاته»، ومع ذلك جميعه لم تصدر ضدهم أحكام تكفير وارتداد وتفريق، وكانوا صحابة رسول الله المقربين.

* * *

والسؤال الآن: ألم تقرأ هيئة المحكمة الموقرة ذلك، ومثله كثير في صحيح السير والأخبار الإسلامية قبل أن تصدر حكمها بأن من يشك قد كفر؟ وخاصة أن المتشدد إلى هذا الحد في أمور الدين يجب أن يكون على علم بتفاصيله ودقائقه؛ حتى لا يهلك الناس بأحكامه، ويهلك معهم بقصور علمه، ناهيك عما ينتظرنا إزاء مثل ذلك الحكم أمام موازين العدل الإلهية يوم الدين.

ولله دَرُّ الإمام الغزالي وهو يقول في كتابه إحياء علوم الدين: «من لم يشكَّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر، ومن لم يبصر بقي في متاهات العمى والضلال.» طوبى للإمام حجة الإسلام زعيم الشُّكاك في مرقده، وليغفرِ الله لمن لا يعلم فيتبختر في متاهات العمى والضلال؛ فخورًا بأنه أبدًا لم يشك، وليغفرْ لنا إذا لم نشك، وليهدنا إن شكَكْنا، فالأمر كله معلق بإرادته الكلية الشاملة، وليس لنا مع أمر الله أمر.

الفصل الثاني

السؤال الآخر في قضية نصر أبو زيد

> «يعتبر كافرًا ... من عبد أحدًا غير الله، أو أشرك معه غيره، أو أنكر وجود الله أو أيٍّ من خلقه مما أخبر عنه الله في القرآن الكريم؛ بأن أنكر الجنة أو النار أو الجن والشياطين أو العرش أو الكرسي.»

القول المذكور عاليَه نص مقتبس من حيثيات حكم الاستئناف، والوارد في صحائف محكمة النقض في حكمها التاريخي بتفريق «نصر حامد أبو زيد» عن زوجته؛ لأنه كتب في أعماله المنشورة كلامًا اعتبرته المحكمة موجِبًا لإصدارها قرارًا بارتداد الرجل عن دين الإسلام.

وتعريف الكافر في حيثيات هيئة المحكمة الموقرة يشرح لنا كيف يُعَدُّ المسلم كافرًا، بتعديد لمجمل معلومات دينية أخبر بها القرآن الكريم، إن أنكر المسلم واحدة منها عُدَّ كافرًا؛ لأنه ينكر بذلك معلومًا من الدين بالضرورة.

ولم يفُت هيئةَ المحكمة الموقرة أن تضع ضمن ذلك المعلوم أبعده عن قناعات العقل ومنطق المحسوسات، وأقرَبَه إلى المسلَّمات الغيبية؛ وذلك مثل: الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي، وهي أمور ليست ضمن ما يندرج تحت قناعات العقل، فكيف يُعقَل ما لا يُدرَك؟ أليست هذه بقاعدة العلم الأولى؟

ثم تضيف حيثيات الحكم أن «نصر أبو زيد» قد قال في أعماله قولًا خطرًا؛ هو «أن هناك معركة تقودها قوى الخرافة والأسطورة باسم الدين والمعاني الحرفية للنصوص الدينية، وتحاول قوى التقدم والعقلانية أن تُنازل الخرافة أحيانًا على أرضها.» وتعقِّب المحكمة بقولها: «وهذا من الكفر الصريح، والأساطير معناها الأباطيل ... وهو ما نعت به الطاعن (أي نصر أبو زيد) الدين والنصوص الدينية، زاعمًا أنهما ينطويان على أساطير.»

هكذا ودفعةً واحدة فسرت هيئة المحكمة كلام نصر على كيفها (إي والله العظيم على كيفها)، ثم أخذت معنًى واحدًا من معاني كلمة «أسطورة»؛ لتدعم رأيها المتفرد لإدانة الرجل، فالرجل أبدًا لم يقل باحتواء الدين على أساطير، أو لوجه الحق: هو لم يفصح بذلك، وكان هذا كافيًا؛ فالمحكمة

لا تحاكم الضمير؛ لأن الحكم عليه لله وحده. الرجل قال إن من يفعل ذلك قوى الأسطورة التي تستخدم الدين، ولم يقل الدين، لكن لأن حكم النقض كان آخر السلسلة الطويلة للوصول إلى الهدف، كان لا بد من إدانة «نصر» وتكفيره. أما الأمر الثاني فهو أنها اقتصرت على معنًى واحدٍ لكلمة أسطورة، رغم أن لها من المعاني الكثير، فيقول ابن منظور، علَّامة اللغة العربية، في لسان العرب، وهو مرجعنا اللغوي جميعًا، تحت مادة «سطر»:

«سطر: السطرُ: هو الصف من الكتاب ... والجمع من كل ذلك أَسْطُر وأساطير وسطور ... والسطر: هو الخط والكتابة ... وقال الزجاج في قوله تعالى: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) معناه: سطره الأولون ... وسطر يسطُر، إذا كتب، قال الله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)، أي ما تكتب الملائكة ... والأساطير الأباطيل، أحاديث لا نظام لها.»

هذا ما كان من فهم المحكمة الأوحد، وتفسيرها الأوحد، لأمر عدد من التفاسير كان يجب أن تؤوَّل لصالح المتهم حسب القاعدة الشرعية والفقهية القانونية، لكن المحكمة رأت ما قررت أن ترى.

لكن ذلك يفتح بابًا واسعًا لطرح أسئلة حيرى، ما دامت المحكمة قد فتحته بقرارها التاريخي، وأصبح من الواجب مناقشة مسألة الأساطير حسب الأصول.

* * *

هنا نعترف أن الاستعمال الدارج قد درج على استعمال كلمة أساطير، فيما بعد وبمرور الوقت، لوصف الأحاديث التي لا تخضع لقوانين العقل والمنطق، أو الأحداث التي تكسر قوانين الطبيعة وقواعدها الثابتة؛ لذلك أصبح المؤمنون بدينٍ معين يفضِّلون وصف تلك الأحاديث والأحداث بكلمة «معجزة»، لكنهم في نفس الوقت يصفون شبيهها عند الأديان الأخرى المخالفة أو العقائد التي ينظرون إليها باعتبارها باطلة، يصفونه بأنه «أسطورة».

ومثال لتوضيح ذلك، نحن نؤمن، باعتبارنا مسلمين، بقصة الإسراء والمعراج، كما أخبرنا بها القرآن الكريم، كما نؤمن بوجود كائن غريب الشأن يُدعى البراق، فهو دابة تعقل وتفهم، شكلها ما بين البغل والحمار، أشبه بالحصان، له جناحان، حمل سيد الخلق ﷺ من مكة إلى القدس في المعراج، كما جاء في حديث المصطفى ﷺ.

وفي أقاصيص الديانة اليونانية، كان للإله زيوس دابة للركوب، هي حصان ذو أجنحة يسمى «بيجاسوس»، هنا يرى المسلمون أن قصة البراق معجزة حدثت بالفعل، أما بيجاسوس اليوناني فهو

أسطورة. وهكذا أخذ معنى الأسطورة تحديده قياسًا على المعجزة.

لكن ما لا يفوت لبيبًا هنا، هو أن الاختلاف هنا اختلاف اصطلاحي لفظي فقط، وليس خلافًا حول معنى المضمون، فكلتا القصتين تتحدث عن كائن يخرج في تكوينه على القوانين الطبيعية الصارمة، كما يخرج على مألوف العقل وقواعده، لكن المؤمن هنا يميل إلى تصديق مأثورِه وتكذيب مأثور الآخرين، وتسمى قناعته هنا إيمانًا، أي تسليمًا وتصديقًا قلبيًّا، لكنها لا تسمى معقولًا؛ لأن الأمر لا يخضع لنواميس الكون ولا لقوانين العقل، بل يتم هنا التغاضي عن أبسط قوانين العقل، وهو قانون الهوية، أي أن يلتزم العقل ذات الشروط في ذات الموقف، فلا يناقض نفسه، وهذا القانون هو ألف باء علم المنطق، أي إنه إذا صدَّق قصة البراق، فلا بد، حسب قانون الهوية البسيط، أن يصدق قصة بيجاسوس، وإن لم يقبل قصة بيجاسوس، فعليه بالتالي ألا يقبل فكرة البراق، المقصود من هذا المثل توضيح أن الخلاف بين المعجزة والأسطورة خلاف شكلي فقط، لا يبغي الهجوم على الدين، ولا وصْفَ بعضِ ما ورد به بأنه أباطيل، فقط هي مما لا يخضع لقوانين العقل ولا لقوانين الطبيعة، هي موضوع تصديق وإيمان. ولا محل هنا لتكفير إنسان على اختلاف تسمية اصطلاحية، ما دام المتفق على المضمون خروجه عن المألوف وكسره لقوانين الطبيعة وما درج عليه العقل من قواعد. فهل يمكن لأحد أن يختلف حول معناها هذا؟

* * *

لقد ورد في كتاب الله الكريم، وفي الحديث الشريف عن سيد الخلق، كثير من النصوص التي تحوي مضامينَ وسورًا لا تخضع لنواميس الطبيعة ولا العقل؛ لذلك هي محل اعتقاد، وتعتمد على أمر لا يمكن لبشر الحكمُ عليه، تعتمد على الضمير الداخلي الذي يَقبلها أو يرفضها. وإذا كان اصطلاح أساطير يحمل في معناه ما خرج على قوانين الكون والعقل، فإن استخدامه لا مَثلَبة عليه؛ فأساطير الأولين في ابن منظور هي ما سطره الأولون، وإن (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) معنى ما تكتب أطهرُ المخلوقات، وهي الملائكة.

لذلك، ولأننا مسلمون، فنحن نؤمن تمامًا إيمانًا قاطعًا أن الملك سليمان كان يسمع حديث النملة الذكية، وأنه كان يحاور هدهدًا لَبِقًا، وأنه كان يركب بساط الريح، كما نؤمن أن صخرة قد حبلت وتمخَّضت فولدت ناقة الله، ونؤمن بالحصان المجنَّح الذي حمل رسول الله ﷺ من مكة إلى القدس، ونؤمن بالملكَين هاروتَ وماروتَ وقصتِهما مع الغانية رسول الغواية المعروفة بالحمراء أنثى كوكب الزهرة.

كما نؤمن أن الله قد أرسل على جيش أبرهة قواتٍ جويةً، تمثلت في طير أبابيل، تحمل حجارةً

جهنمية لتُلقيَها على جيش الفيل، فكانت أول قاذفات جوية في التاريخ، كما نؤمن أن نمرود العراقي كان أول رائد فضاء في التاريخ، عندما ركب صندوقًا تحمله النسور يريد بجهله وطغيانه أن يصل إلى رب السماء ليقتله، كما نؤمن أن النار لم تُحرِق إبراهيم الخليل، وأن معدة الحوت لم تهضم يونسَ رغم سكونه فيها ثلاثة أيام. ولا نعلم إلى أي حدٍّ تطلب هيئة المحكمة منا الإيمان، حتى لا نكون من الكافرين، فهناك أمور أشد استعصاءً على العقل، وردت بكتب السير والأخبار، فهل يجب أن نؤمن بها بدورها أم لا؟ يعني هل يجب أن نؤمن أيضًا بأن النبي ﷺ كان يَبصُق على جرحِ مسلمٍ يحتضر فيقوم لتوِّه سليمًا معافًى، أو أن تشرب أم أيمن بوله فلا تمرض بعدها؟ ومثل ذلك كثيرٍ. إن ما نريد أن نقوله أن تلك جميعًا نماذج لا تدخل ضمن بنود العقل ولا تخضع لنواميس الطبيعة؛ فالصخرة حسَب القوانين لا يمكن أن تلد، والريح لا يحمل بساطًا، والهدهد لا يتحدث، والحصان لا يطير، والنار لا بد أن تُحرِق، لكن هذا جميعه محل تصديق وإيمان لأننا مسلمون؛ لهذا نحن نؤمن بها عن يقين، لكن يجب أيضًا أن نعترف بهدوءٍ أن الإيمان بها شيء، وأن قوانين العقل وفيزياء الكون شيء آخر؛ لذلك فالعقل لا ينتظر إمكانية حدوثها إلا إذا كان به خلل، وإلا خلطنا الحابل بالنابل، ودمرْنا أنفسنا بأيدينا، وهو ما يحدث الآن فعلًا نتيجةَ الخلط بين ما يفرضه الإيمان من تصديق، وبين ما هو ممكن الحدوث، حتى أصبح بالإمكان حدوثُ مثل تلك الأحداث الخارقة في أي وقت، إذا ما خلَصت الضمائر، وساعتَها سيتدخل الله فورًا بمعجزات جديدة لتخليص عباده المؤمنين مما أصابهم، ومثل ذلك ما قد حدث بعد مجموعة الهزائم التي أصابتنا، فرفعنا شعار: (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)، وانصبَّ هذا التغيير على الجانب الطقوسي في أداء الشعائر، وعلى الجانب الأخلاقي (وإن كان في مستواه النظري والقولي دون العملي). وتصوَّر الناس أنهم باتباع الفروض والسنن والنوافل وسيرة السلف، سيحوزون رضا الله، فيتدخل فورًا لإنقاذهم بمعجزات؛ لأن الفرق بيننا وبين العدو قد أصبح لا تحلُّه إلا معجزات. فكان أنْ هبطنا إلى مستوًى لم نصل إليه من قبل، من كسل عن تحصيل المعارف العلمية اللازمة للارتقاء والتقدم، وجلسنا ننتظر في بلاهة بليدة ذلك التدخل الإلهي الإعجازي، دون أن نتصور أن الممكن الحدوث فقط هو الأخذ بأسباب العلم والكد والعنت في سبيله، الذي هو سبيل ارتقاء الأمم، وساعةَ نفعل ذلك يمكن أن نقول إن ذلك قد حدث بفضل من الله وإحسانه.

* * *

مرةً ثالثة ورابعة وخامسة، نؤكد إيماننا الذي لا يهتز بكل ما أخبرنا به القرآن الكريم بالوحي الصادق، لكن ما دمنا قد تطرقنا في الأمر إلى هذا الحد، فيجب الاستطراد بالقول إن الإيمان أمر، وشروط العقل والعلم أمر آخر، ويجب ببساطة أن نعترف أن بينهما تنافرًا عظيمًا، لا تحلُّه أبدًا

تلفزة مصطفى محمود التفسيرية، وربما تقف النفس حيرى بين شروط العقل والعلم، وبين الإيمان ومطالبه، تطرح السؤال الآخر، تطلب الاتساق بين ما وقَر في القلب، وما يجب أن يصدقه العقل، لكنها أبدًا لا تبغي من وراء ذلك شكًّا ولا مُروقًا ولا كفرًا؛ فهي تعتز بالإسلام، وهي به عزيزة، فقط تريد الاطمئنان لطويَّةِ فؤادها؛ حتى لا تصاب بالشيزوفرينيا؛ ذلك الفصام المخيف الذي أصاب جماهيرنا العريضة الغليظة، حتى أمست بلادنا مستشفى أمراض عقلية كبيرًا، يكتظُّ بالمرضى ويخلو من الأطباء.

وهذه المشكلة واجهها المفكرون المسلمون الأوائل وأرَّقَتْهم فتحدثوا فيها وتجادلوا، وحاولوا حلها تحت عنوان «التوفيق بين العقل والنقل»، والنقل هو الوحي، فاعترفوا ببساطة ودون خوف أن هناك تناقضًا وتنافرًا يحتاج إلى توفيق، وحاولوا ولم تصدر ضدهم أحكام تفريق، ولهم أجر المحاولة.

* * *

لكن الدنيا منذ تلك الأيامِ تغيرت تغيرًا سريعًا، وحقق العلم منجَزاتٍ لم تخطُر على قلب بشر، وأصبح بالإمكان للإنسان أن يعلم ما في الأرحام، وأن ينزل الغيث كيف شاء وحيث شاء وبالقدر الذي يشاء، وأمكن التدخل في جينات الوراثة بهندسة الوراثة، والقادم طوفان من المعرفة أعظم، ونحن هنا نقف نتفرج، وربما لا نفهم ما يحدث، نُبَسْمِل ونُحَوْقِل (وفي اللحظة الحاسمة في تاريخنا، ربما ذهبنا بعدها إلى مقلب نفايات الأمم)، نُصِرُّ على إغلاق أبواب الاجتهاد، ونرفع سيوف التكفير، ومن يحاول الاجتهاد مخلصًا لوجه الوطن والناس والدين؛ تُدينه محاكمنا الوَقورة بالردة.

أترون إلى أين يمكن أن يصل بنا حكم المحكمة؟

أيها السادة: لم يعد هناك وقت؛ فالدنيا في تسارع هائل، وربما فات أوان اللحاق بها إن لم نلهث لهاثًا صادقًا، لكن الكارثة أن الواقع يفوح بغير ذلك؛ فنحن لم نزَلْ ندفع مكافأة لمن حفِظَ القرآن من الصِّبية أكثرَ مما ندفع كتقدير لعلماء مصر الأفذاذ، نحن لم نَزَل في وادي الأفاعي والمصباح السحري وعفاريت سليمان.

أيها السادة: إما أن نفتح نافذة السؤال دون حرج أو تحريمٍ أمام العقل، أو أن نتكفَّن ونلتحد أشرفُ لنا، وقبل أن نذهب في طوايا القرون الغوابر غير مأسوفٍ علينا.

أيها السادة: فقط افتحوا النوافذ أمام السؤال، واحلُموا بقدر الممكنات، وتوقفوا عن التنادي بالمغازي والحديث عن الغنائم والسبايا، ألَا ترون أنكم ذهبتم بنا إلى المغانم، لكن كنا نحن المغانم؟

اغمدوا سيوفكم العنترية التي تكسرت أمام الأعادي جميعًا، ولا تُشهِروا علينا ما بقي بها من نصال صدئة. هناك الآن حرب أخرى، أدواتها العلم وما يحتاجه من جهد وعنت ومشقة إن كنتم فاعلين، حاوِلوا أيها السادة أن تحاربوا معركة الحضارة ولو مرةً، إن كنتم تعقلون.

الفصل الثالث

ضريبة الحرية شرط التقدم: قتل أمة بسيف التكفير

بهدوء شديد يجب أن نعترف أننا نعاني من أزمة حضارية طاحنة وصلت آخر مراحلها، وأصبحت تهدد وجودنا على سجل التاريخ الآتي، في مرحلة فاصلة من تحولات هائلة آنية، تحدث على كل المستويات في كوكبنا الأرضي، وأن نقر ببساطة أننا في القاع نتنفس الخرافة، ونستحلب الأسطورة، ونستطيب الهيام في العوالم السحرية. وإذا لم نُلقِ الآن في الماء الراكد بكل حجر تطوله أيدينا، وبسرعة وبقوة، ودون وجل أو خوف من سادة المنهج السائد وسدنته، والمنتفعين ببقائه جاثمًا فوق صدورنا ومضبِّبًا لعقولنا، فربما لا نكون بعدها أبدًا، وإذا لم نفتح الآن كل النوافذ لتجديد هوائنا الآسِن دون وجل من تحريمات، ورعب من سيف التكفير المسلط على رءوسنا، فعلينا أن نكتب آخر الحلقات في يومياتنا قبل أن نذهب في طوايا القرون الغوابر، ويتلو التاريخ على الدنيا آياتنا عبرةً مع عاد وثمود والهنود الحمر.

وإجمالًا يمكن القول إن التاريخ العربي بعد ظهور الإسلام قد مر بمرحلتين متناقضتين، تحولنا في الثانية عن الأولى، عن الثقافة المتحركة المفتوحة المتجددة، إلى الثقافة الثابتة المغلقة الواحدة، ومن الطبيعي أن ترتبط كل ثقافة منهما بالمرحلة التاريخية التي أفرزتها ارتباطًا منطقيًّا واضحًا ومتسقًا، فعندما كانت الدولة الإسلامية إمبراطورية قوية عزيزة مقتدرة، لم تخشَ على نفسها من الآخر وثقافته، فانفتحت على كل علوم الدنيا وفلسفتها ودياناتها، وقامت حركة ترجمة واسعة نشطة لمعارف الدنيا وفلسفتها، ومنها كفر صريح من وجهة نظر دينية إسلامية، بل نجد بين كوكبة المفكرين الكبار — والذين نحتفي اليوم بذكرى إبداعاتهم، ونرفع راياتهم في وجه من يتهمنا بالتخلف على إطلاقه — من كان يعلن كفره وصريح إلحاده، لقد كانت الدولة قوية، والذات القومية متحققة، فلم يُرْمَ أحد هؤلاء بحجر؛ لأن التجربة حينها أوضحت بجلاء أن العلم لا يترعرع إلا في بيئة حرة تمامًا، تخلو من كل ألوان التحريم؛ لذلك قبِلوا ضريبة الحرية من أجل التحقق والتقدم، وقد وُضِعت لديهم ضرورة تلك الضريبة؛ لأنها أسهمت بدور عظيم في إثراء السجال الذي حدث آنذاك. ثم تلت ذلك مرحلة التحريمات الكبرى بانتهاء زمن المأمون آخر الحكام المستنيرين، ومن يومها ونحن في انزلاقنا الكارثي نحو القاع، فإذا وعينا هذه الحقيقة البسيطة، بدأنا أول كشوفنا، وهو أن السبب في توقف بلادنا عن إنتاج مفكرين وعلماء كبار؛ هو غياب مناخ الحرية؛ فالعلم لا يتنفس مع القيود وأغلال التحريمات.

ولا شك أننا نفصح بجلاء أن منهج قراءة الدين كان وراء تغييب مناخ الحرية في بلادنا، وقد تم استخدامه انتهازيًّا على ثلاثة مستويات انتهت بنا إلى ما نحن فيه الآن.

المستوى الأول: يتعلق بمنهج البحث في الدين ذاته، باعتبار بعض مناطقه من المناطق الممنوعة من البحث، وانتهى إلى إسدال ستار كامل من التحريمات على كل مناطقه، وتم أثناء ذلك استبعاد كل ما وصل إليه البحث في المقدس وشئونه إبان القرون الإسلامية الأولى، وتحويله إلى تاريخ موقوف وغير فاعل، يتم درس أغلبه من وجهة نظر تخالفه وتكفِّره، بل ويتم أحيانًا إفقاد الذاكرة المتعمد في المناهج التربوية وعبر وسائل تسمى وسائل التثقيف العام، بينما لم تعرف عصور الازدهار أي لون من التحريم المحرض، وانتشرت علوم الكلام ومدارسه التي اجترأت على كل أمر، وأخضعته للبحث والتدقيق العقلي، وعلوم التصوف التي اصطنعت أردية ظاهرة الإسلامية؛ لتتخفى وراءها ثقافات وديانات البلاد المفتوحة، وعلوم الفلسفة التي لم تجد حرجًا في مزج نظريات — تعد من الوثنيات — بأصول إسلامية لا فروع، كما نجد نظريات الفيض عند الفارابي وابن سينا، وعلوم إلحاد ناقشت بالحجة ما رأته ليس من العقل في نصوص الدين وما قد تدحضه، كما نجد عند الطبيب أبو بكر الرازي وعند المعري وعند الحجة الكبير في هذا الأمر ابن الراوندي صاحب مخاريق الأنبياء، ومن أجل ذلك وُضِعت ثلاث قواعد تأسيسية لعصور التخلف والتردي؛ هي: رفض وتكفير ونفي واستبعاد، وربما تصفية، كل بحث ينتهي إلى إنكارٍ معلومٍ من الدين بالضرورة، وأنه لا اجتهاد على الإطلاق مع نص، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هذا رغم أن التاريخ يشهد أن تلك التقعيدات الثلاثة قد تم كسرها لصالح البلاد والعباد بيد صحابة رسول الله أنفسهم، إن قصدًا مبيَّتًا مع سبق إصرار وترصد، وإن سلوكًا عفويًّا إنسانيًّا، فقد اجتهد ابن الخطاب إبان خلافته، ولما يمضِ على رحيل الرسول سنوات تُعد على الأصابع، وكان اجتهاده مع نصوص واضحة، بل وأوامر قدسية، كما حدث في إلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، ومن قبله كان ذات الاجتهاد عندما ألغى أبو بكر سهم آل البيت، وأخذ ابن الخطاب بخصوص السبب لا بلفظ النص، عندما فعل ذلك، وفي مواقف أخرى كما في إيقافه حد السرقة عام الرمادة، بل وأوقف حلالًا كان معمولًا به زمن النبوة عندما وقف على المنبر وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما؛ متعة الحج ومتعة النساء.

هذا ما كان عن إنكار السلف للقواعد الثلاث التي تأخذ بخناق البحث في شئون المقدس عن قصد وعرض، وكان هناك إنكار آخر بالسلوك الإنساني العفوي وصل إلى حد إنكار الدين كله، وكما حدث في واقعة أحد، فرغم الوعد بالنعمة وبجنة الخلد عند الاستشهاد في سبيل الله، ورغم أن رسول الله بينهم، ورغم أنهم عاينوا الأمر وعايشوه، فقد فرَّ أجِلَّة الصحابة من حول رسول الله بينما يناديهم «إليَّ عبادَ الله، أنا رسول الله.» ولا يغيثه أحد حتى أوقعه القرشيون في حفرة وأصابوه إصابات بالغة، وضربه ابن قمئة ضربة شديدة ظل يشكو منها شهرًا، وفرَّ عثمان بن

عفان مع رفقة له حتى أبعد عن المدينة حوالي خمسة وعشرين كيلومترًا، ووقف آخرون يحتمون بصخرة يقولون إن رسول الله قد قُتل، وإن عليهم العودة إلى أهلهم، وأن يرسلوا لهم عبد الله بن أُبي ابن سلول ليستأمن لهم قريشًا، أليس في ذلك إنكار للأمر كله؟! ومع ذلك لم يتعرض هؤلاء للتكفير ومحاكمات التفريق، وكانوا صحابة رسول الله المقربين.

ولكن بمجيء القمع الفكري والسياسي، وتضافره مع القمع التحريمي والتكفيري، تم تقعيد القواعد الثلاث لعصور الانحطاط، وهو الأمر الذي هوى بنا إلى ذلك السقوط الأمثولة، وأضر في الوقت ذاته بالمقدس ضررًا بليغًا، بحيث تمكَّن ذوو النفوذ ووسطاء الدين المحترفون من التعامل مع نصوص الدين بانتهازية قبيحة؛ لتسخيره للمآرب والمنافع، وتبرير أشنع المظالم لذوي السلطان، وبالأمس كان صدام حسين يغزو جارًا عربيًّا بعد أن رفع لاءات الله أكبر على أعلامه، واستدعى رجال دين مشهودًا لهم بالكفاءة يقتطعون الآيات التي تبرر، بل وتسوغ، بل وتدفع إلى، احترام نموذجه، وفي الآنِ ذاته اجتمع رجال دين آخرون لا يقلُّون شأنًا بالعربية السعودية لتبريرٍ على النقيض تمامًا، وبالأمس القريب غنَّينا للاشتراكية بآيات قرآنية، ومع التحول إلى الاقتصاد المفتوح على السوق، وجدنا أننا كنا خاطئين؛ لأن الله قد فضَّل بعضنا على بعض في الرزق، والمدهش أن تجد بعض هؤلاء المحترفين هم هم بأشخاصهم في كلتا الحالتين يستثمرون «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» من أجل دمار البلاد والعباد، والإضرار البليغ بالمقدس ذاته.

هذا ما كان على المستوى الأول لمنهج الهبوط العربي، أما المستوى الثاني فهو يرتبط بالأول ارتباطًا وثيقًا، ويعبر بوضوح عن أسباب هذا السقوط المخيف، حيث تم تحريم أبحاث لا علاقة لها ألبتة بالدين فيما يتعلق بالتكوين الكوني والكائني، وقد اتخذ هذا المستوى سبيله على خط آخر يحاول التوفيق بين المنجز العلمي وبين النص المقدس، ليس من أجل العقل والعلم، ولكن من أجل تسفيه العقل والعلم، بالقول إن كل ثقافة ممكنة قد توافرت داخل مقدسنا، وليس بنا حاجة إلى إعمال العقل أو البحث العلمي الذي قد يؤدي إلى نتائج مضللة وكافرة، وحتى الآن يُمنع في بعض مدارسنا العربية تدريس نظريات النشوء والارتقاء والتكيف البيئي، وهي الأساس الأول لعلوم كالطب وفروعه جميعًا، بل إن هناك فتوى صريحة صدرت بالأمس القريب بتكفيرِ من يقول بكروية الأرض، وهكذا كان المستوى الثاني الذي اضطر شقه الثاني للتعامل مع المنتج العلمي الذي أصبح ذا أثر في الحياة الإنسانية الآن، ولا يمكن رفضه، فقام الوسطاء المحترفون، والمكتسبون اللاعبون بمصير الأمة، بالتعامل معه بعقلية قاطع الطريق، ليقولوا إننا قد اكتشفنا ذلك جميعه، قبل أن يكتشفه العقل الإنساني القاصر، عبر ربنا في مقدسنا التليد.

وعلى المستوى الثالث تمكَّن الإنسان، خلال قرون طويلة من النضال والكفاح والصراع الدموي، مع القهر والعسف والجور، أن ينتزع لنفسه مزيدًا من الحريات لم تكن قد تأكدت زمن

الدعوة الإسلامية، فتم إلغاء وصمة العار الكبرى في جبين الإنسانية المتمثلة في استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان، نعم قدَّم الإسلام في زمن الدعوة مساحاتٍ من الحريات تُعَدُّ تقدمًا؛ قياسًا على زمنه، كالتحبيب والترغيب في العتق، لكنه أبدًا لم يُلْغِ الرق أو يجرِّمه، ولم تزل تُتلى آيات العبيد وملك اليمين، دون أن نحاول اجتهادًا يعوض فارق القرون الطوال منذ عمر بن الخطاب، الذي خالف ومنع وحرَّم وأنكر ولمَّا يمضِ على سكون الوحي بضع سنوات.

وضمن هذا المستوى تندرج حالات هي الكارثة بعينها؛ فنحن أبدًا لم نحاول، بل حاربنا وكفَّرنا أي محاولات لتحريك الثابت من أجل مصالح البلاد والعباد، كالموقف النصوصي من المرأة التي لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لا حاجة إليه، وحتى لو كانت عالمة ذرة أو طبيبة أو مهندسة.

أصبح منهج الانحطاط والتردي لا يملك الحجة الكافية، ولم يعد لديه سوى منطق القتل والتجريم، إنه منهج الهبوط العربي.

الفصل الرابع

السؤال الآخر: الكوارث الإلهية

قارئي مهلًا؛ فأنا أعلم أن العنوان شديد الاستفزاز، لكني قصدته قصدًا؛ لعلمي أن الحس الإنساني لديك يفزع من الكوارث، ويستنكر أن يكون سببها مصالح أفراد أو جماعات، ويصاب بالهلع إن نسبناها إلى الله، لكن ما العمل، وهو المنهج الذي ران على تاريخنا المسترخي المتثائب طوال القرون السوالف، ولم يزل كذلك؟

لا شك أن أي واحد منا ستتأذى نفسه من عمليات التطهير العرقي التي تمارسها عنصرية الصِّرب، ولا جدال أن ذات المشاعر تنتابنا كلما تذكرنا الجريمة الكبرى في حق الإنسانية في هيروشيما ونجازاكي، أو كلما ورد على خاطرنا هتلر وما جلبته الدكتاتورية على البشرية من دمار، ولا جدال أن قلوبنا تقطر ألمًا كلما تذكرنا ضرب بغداد أو قانا الوحشي، أو حتى لو مر طائف الهولوكوست بخيالنا، إن كان قد حدث، فنحن بشر وإنسانيتنا هي رقينا، وهو الرقي الذي يجعل أحاسيسنا تقشعر وأنفسنا تجزع، عندما نعلم أن بشرًا، أو حتى مجرد كائنات قد تعرضت لمذابح أو لفناء؛ بسبب أطماع أو مصالح أو تعصُّب، في أي مكان على كوكبنا الأرضي.

فما بالنا لو أن هناك كوارث كبرى تحمل دمارًا رهيبًا، ونيرانًا تأكل الأجساد، أو صخورًا تسحق العظام، وأن هذه الكوارث تحدث برغبة إلهية، ثم بفعل إلهي، هنا تقف النفس حيرى؛ لأنها تؤمن بالله وتحبه، وتراه الكمال ذاته، والنقمة والأحقاد وإفناء الناس ليست من الكمال، فالله خير كله، لا يتسلى بتقتيل الناس، ولا تطيب نفسه لصراخ العجائز وهلع الأطفال، ولا يسعد بشقاء العباد ودمار البلاد، فنحن نحبه لأنه رحمة، وليس لأنه نقمة، لكن كل تلك المعاني الرفيعة تغيب عن بعض مشايخنا، الذين لا يخرجون أبدًا عن منهجهم، يسيرون عليه بالنعل حَذْو النعل، ولا يفتحون نافذة واحدة على العقل، ونموذجًا لهؤلاء ما خرج علينا به شيخ عظيم السمت، جهوري الصوت، يشخط وينطر في عباد الله الغلابة، عبر شاشة تلفازنا الميمون، ليقرعنا على ما أصاب بلادنا من زلزال عظيم، فنحن السبب، ومن هنا يبطل العجب، فقد استثرنا علينا غضب الله، فقام يدمر ويهدم ويسحق ويُبيد ويُهلك، يخلط اللحم بالحجر، والأسفلت بالدم، ويكتم صرخات الألم تحت الأنقاض، بل وأوضح فضيلته أن ذلك الزلزال كان مجرد بروفة تمهيدية إن لم نرتدع عن غيِّنا، واستعراضًا لقدرات الله علينا، نحن الفقراء إليه، لقد كان الزلزال إنذارًا وبيانًا عمليًّا لما يمكن أن يفعله الله إذا غضب.

أبدًا لم يشغل فضيلة الشيخ باله — وهو في عيشة الهنيء وطعامه المريء ودابته الميكانيكية الفاخرة — إلا بدعاء الركوب ودعاء دخول الغائط، لم ينشغل بقلوبنا وهي ترتجف هلعًا على بلادنا وإشفاقًا عليها، لم ينشغل بوطن سادته العشوائية وسوء التخطيط والفساد، حتى بات على شفا ضياع دون حاجة إلى زلازل، فمصر فيها ما يكفيها، ترجف لها قلوبنا، وتئنُّ أكبادنا إشفاقًا من أي جلل يَحيق بها، مع ظرفها الخاص وسدها العالي الذي يدفعنا إلى وضع الأيادي على القلوب هلعًا، كلما حدث طارئ؛ لأن زلزالًا عقابيًّا مما يتوقعه شيخنا سيذهب بالحرث والنسل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وساعتها لن يجد الشيخ دابته الميكانيكية، ولا حتى مجرد دابة، بل سيذهب هو نفسه مع الغابرين، بعد استعراض القوة العظمى التي يحذرنا من غضبها، كما لو كنا ناقصين قوى عظمى تستعرض علينا، نحن بالذات، للمزيد من الهوان والإذلال.

لكن الشيخ، وهو يؤنبنا على خطايانا، ولا نعلم إن كان بإمكانه بدوره أن يرمينا بحجر، إنما يسير على ذات المنهج الذي ران على عقولنا عبر القرون، منذ أيام التنين والعنقاء وعفريت المصباح السحري والحوت الحنون والنملة الذكية والهدهد اللبق، منذ قررت الأسطورة في خطو العقل الابتدائي أن كل أمر مقدور لا فكاك منه، وهو ما تجاوزته البشرية في خطوها التطوري لتفسير ما يَحيق بها من أزمات، وتفسير ما يلحق بالناس من كوارث لها أسباب واضحة معلومة، في قوانين بات يعرفها أطفال المدارس الابتدائية، لكن الشيخ لا يعلمها؛ لأنه حاصل على الدكتوراه، فهناك فرق.

وأحد العناصر التأسيسية في هذا المنهج العريق، الذي لم يعُدْ موجودًا إلا في كهوفنا؛ قانون من أشد القوانين تخلفًا وظلمًا في تاريخ الإنسانية، هو قانون: الحسنة تخص والسيئة تعم، قانون الثواب الخاص والعقاب الجماعي، حتى بات قانونًا للسلوك على كل المستويات، من المعلم في مدرسته، إلى الضابط في كتيبته، إلى الأب في بيته.

وبهذا المنهج ينسب الشيخ المفضال كارثة الزلزال إلى الله، ويستخرج منها العظات أسفارًا وملاحم، أمواجًا تتكسر على أمواج، دون أن يلقي نظرة واحدة على الإحصاءات التي تناولت الخسائر؛ ليعلم أن أشد آثار الزلزال قد أصابت أكثر المناطق فقرًا في بر مصر المحروسة؛ لأنهم لا يملكون ممكنات المعمار القوي الذي يتحمل تلك الهزات، ثم لم يسأل نفسه عن مدى استحقاق هؤلاء الفقراء للعقاب زيادة على فقرهم، ثم لا يحاول أن يقرأ أعمار القتلى والمصابين، وحتى دون أن يقرأ، فالعقل السليم لا بد أن يستنتج أن النسبة الكبرى من الإصابات كانت في أبعد الناس عن الخطيئة التي تستوجب العقاب، فالكوارث الجماعية تأخذ أولَ ما تأخذ الأطفالَ الذين لا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا يستطيعون الفرار، ثم الشيوخ الذين كلَّت حواسهم عن إتيان المعاصي، ويتطهرون استعدادًا للقاء ربهم، ثم النساء لحرصهن الأمومي على نجدة أطفالهن، أما الناجي الحقيقي فهو الذي

كان يستوجب العقاب، إنه القادر على إتيان المعاصي والقادر على النجاة بنفسه. وعلى مستوًى آخر، فإن فكرة العقاب الجماعي تتنافى مع قدرات الله الكلية، ثم تتناقض مع صفاته تناقضًا صارخًا؛ لأن الله لا يمكن أن يكون فاقدًا لقدرة التمييز، أو عاجزًا عن معاقبة المسيء وحده وبمفرده بإساءته دون إنزال الدمار بالجميع؛ صالحًا وطالحًا. ومن جهة أخرى تتناقض فكرة العقاب الجماعي مع صفة العدل في الله، تلك الصفة التي نطمئن إليها، وهي وراء إيماننا الصادق به، ثم إنها سر هدوء نفوس كثيرة مقهورة وفقراء، يطمحون إلى تدخُّله لإصلاح أوضاع دنيوية فاسدة، أو على الأقل للحصول على نصيب مناسب في جنته، يتناسب مع اختلال الأوضاع في الحياة الدنيا ...

لكن لو قلنا هذا لقامت الدنيا ولم تقعد إلا على مشانق ودماء ترضي النفوس المتعطشة إليها، بعد سيل تكفير وتسفيه، وربما قالوا: إن في ذلك إنكارًا لمعلوم من الدين بالضرورة، وربما رأوا في إعمال العقل مفسدةً لعيشهم الليِّن ورغدهم الطري، ومن ثم ينطلقون بالسخائم على رأس المتسائل يصبونها عليه صبًّا؛ لأن النصوص الدينية قد أكدت من وجهة نظرهم، التي كلَّت لعدم استخدام النظر، أن الله كان يمارس العقاب الجماعي بالفعل، وإلا فماذا كان طوفان نوح وأصحاب هود من عاد إرم ذات العماد التي حقت عليها اللعنة، فأبادت بشرًا وحضارة وحيوانًا ونباتًا بغضب إلهي ماحق، أو أصحاب الناقة التي ولدتها صخرة، فعقروها فدمدم عليهم؟ ثم ماذا عن قوم لوط؟ وما أدراك ما قوم لوط! وغير ذلك من الأمثلة كثير! ورغم ذلك، فإن العقل له شروط وله مطالب كي يكون عقلًا بالأصل، وهو منحة الله للإنسان، بل إن وظيفة التفكير في ذلك العقل هي بضعة متناهية من القدرة الإلهية وعلمها اللامتناهي، وهذا العقل لا يرضى بمجرد سرد الأمثلة، فيقف معاندًا لا يتزحزح؛ كي يطمئن الفؤاد إلى طوية الإيمان، لكنه لا يجد من مفسِّرينا إجابة شافية، ولا تفسيرًا مُرضيًا، لذلك يمسك بالعدل الإلهي، ويرفض ما دون ذلك، قانعًا أن هناك لا شك تفسيرًا جديدًا يرفع عن مأثورنا التناقض، ويحفظ للنفس ثقتها في الله وحبها له، لكنه التفسير الذي لم يطُلْ زمانه بعد، فهلَّا حاولنا فتح نافذة عليه! وهلَّا أمكن الاجتهاد طمعًا في ثواب الأجرَين! ولن نخرج بحسرة إذا حصلنا على ثواب الأجر الواحد، وتكفينا المحاولة.

ألَا يمكن أن تكون تلك الأقاصيص من حكايا الأولين مجرد ضرب مَثَل، وعاه مؤرخونا ورجالاتنا الأوائل، فنحتوا له اصطلاحًا نعلمه هو «الترغيب والترهيب» ... ربما ... ربما كان ذلك ضربًا من المثل الرمزي لعقولٍ غير عقولنا، في زمنٍ غير زماننا، له مفاهيم غيرُ مفاهيمنا ومستوًى معرفيٌّ غير مستوانا ... ربما.

إن الإصرار على المنهج العتيق في فهم لغة المقدس بقدر ما يضر بحياتنا بالتأكيد، فإنه يضر بالمقدس ذاته، ذلك المقدس الذي نريد أن نحافظ عليه وعلى احترامه؛ لأنه جزء من تاريخنا الذي

يشكل هويتنا.

الفصل الخامس

السؤال الآخر إلى الشيخ والطبيب التلفازيَّين: أي علم؟ وأي إيمان؟

عندما بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها الإمبراطورية، كان طبيعيًّا أن تتحول عن خوفها الأول من الكتب والمؤلفات لشعوب المنطقة، وعلوم الحضارات القديمة في مصر وبابل وفينيقيا، بعد أن صلب عودها واشتد كيانها، ولم تعد تخشى على نفسها من الآخر المخالف أو من ثقافته؛ لذلك انفتحت على كل ثقافات دنيا ذلك الزمان، على علوم مصر وفارس والهند، وعلى مختلف الديانات والعقائد؛ الكتابية منها وغير الكتابية، وعلى فلسفة اليونان ورياضياتها. واتسمت الحياة الثقافية بقدر عالٍ من التحرر، مع حركة ترجمة نشطة نقلت كل هذا إلى اللغة العربية، في مناخ يتسم بروح إنسانية رفيعة من عدم التعصب، إلى الحد الذي تجاوز فيه المسلمون معنى التسامح مع ثقافة الآخر وعقيدته، إلى معنى التواصل (كما عند المعري) وإلى معنى الاحترام المتبادل (كما عند ابن عربي مثلًا)، حتى وصل الأمر إلى حرية اعتقاد مقبولة من المجتمع ومن الدولة، وكان طبيعيًّا أن يفرز ذلك المناخ كل الاتجاهات الفكرية والعلمية، ووجد العلم مناخه المناسب فتنامى، حتى قدَّمنا للعالم كوكبة عظمى من المفكرين، ووسط كل هذا الزخم العظيم لعلوم الدنيا والدين، نسمع عن الطبيب المعجزة «أبو بكر الرازي»، وهو ذات الرجل الذي كان يعلن إلحاده دون ترميز أو مواربة. ثم نسمع بين مدارس الاجتهاد، وحركة تدوين التاريخ، وعلماء الرياضيات، عن وجه آخر لحقيقة الحرية الثقافية، يمثله الداهية الكبير «ابن الراوندي»، الذي كرس عمره الذي وصل إلى قرن من الزمان؛ لدحض ما أسماه: مخاريق الأنبياء، وكتب فيما علمنا ما ينوف على تسعين مصنفًا، أسماها بمسميات الأحجار الكريمة، فهذا كتاب اللؤلؤة، وذاك كتاب المرجانة، وثالث كتاب الزمردة ... إلخ، وعاش الرجل عمره الطويل يناقش بالعقل ما رآه ليس من العقل في تاريخ النبوات والكتب المقدسة، ويكرس ما يدحض فكرها وينعى عليها منهجها، ولم يطلب أحد محاكمته، ولم تصادَر كتبه، ولا انقضَّ عليه نجار مسلح جهول بمطواة قرن غزال. لكنا على أية حال فقدنا كل هذا، ولم نعُدْ نسمع مقولات ابن الراوندي إلا من المقتطفات التي كتبها المتأخرون من مشايخ الأمة، بعد أن زال مجدها وحلَّت بها الغمة، لتسفيه أفكاره وتكفير ضميره، مع انهيار قوة الدولة وإغلاق نوافذ العقل، مع بداية عصر الخليفة المتوكل، الذي أغلق باب الاجتهاد، وألغى دور العقل، وحرَّم الكتب المخالفة، ومن بعده وحتى اليوم، نتحرك بسرعة الصاروخ، ولكن إلى الخلف.

لكن قبل أن تدخل الأمة في التردي، وإبان حركة العلم والترجمة النشطة، تعالت فلسفات

الفيوض الغنوصية، التي استمدت أسسها الفكرية من عقائد مصر القديمة وديانات فارس القديمة، وصبتها في قالب إسلامي، بحيث قامت فلسفات جديدة تكاد تكون عقائد جديدة بكل معنى الكلمة، تسمى عقائد الفيض، وأشهر الأسماء في تلك الفلسفات الفيلسوف «أبو نصر الفارابي»، ثم «ابن سينا» الطبيب الفيلسوف.

* * *

أما في علوم التصوف فحدِّث ولا حرج، عن عقائد قديمة من عقائد مصر وفارس والمسيحيين واليهود، تستخفي وراء عباءة إسلامية، حيث قامت الشعوب المفتوحة للغزو العربي الإسلامي، تحافظ على قديمها الوطني تحت مظلة إسلامية. ثم أبدًا لا ننسى علم الكلام، ذلك العلم الشديد الجرأة والاجتراء، والذي كان نموذجًا لديمقراطية الرأي، وحرية القول، وعلمنة المساحة الفكرية، واحترام الرأي الآخر مهما كان مخالفًا، وقام يعلم الناس عدم الخشية من مناقشة أي أمر، فليس هناك كبير على العقل، وليس في علم الكلام محرمات عقلية، فناقش الناس أيامَها أمورًا لو ناقشناها اليوم لرُجِمْنا بألف حجر. وبرزت بين مدارسه مدرسة المعتزلة التي أسسها «واصل بن عطاء»، والتي جعلت العقل مرجعًا لكل أمر، حتى لو اختلف الوحي مع العقل، فقد رجح المعتزلة اللجوء لحكم العقل.

ولو قُدِّر لهؤلاء جميعًا أن يعيشوا زماننا الأغبر، لجلس الفارابي على خازوق في ميدان التحرير، ولصُلب ابن سينا إلى جوارٍ منه في ميدان طلعت حرب، ولتطوَّع سبَّاك من أمراء هذا الزمان بذبح واصل بن عطاء بباب أحد المساجد، ولَمَات ابن سينا بطلقات رصاص من أحد الصنايعية الذين تثقَّفوا بثقافة العفاريت السليمانية.

نحن هنا لا نمزح قدر ما نأسف وننزف وجعًا على الأمة، ولا نستهين بقدر دين أو فكر أو اعتقاد؛ إذ أصبحت هموم جماهيرنا الغفيرة العريضة الغليظة (في الوقت الذي تنشئ إسرائيل مفاعلها النووي الأكبر الجديد على حدودنا) هو كيف نوقف خُطانا مع السلف؟ هل يرفع المسلم إصبعًا واحدًا أثناء التشهد أم إصبعين؟ المسبحة الثلاث وثلاثون حبة أكثر شرعيةً أم التسع وتسعون؟ هل أكل الجبن الرومي حلال؟ أصبح كل شيء يدور حول لا شيء، وله مرجع واحد، هو حياة السلف الصالح في أدق تفاصيلها، مع ملاحظة شديدة البساطة أن كل تلك الهموم في فكر أمتنا قد تواكبت مع انحطاطها في قاع مزبلة الأمم.

هذا عن كيف يفكر رجل الشارع وغير المتعلم وأنصاف المتعلمين، فماذا عن الطبقة المتعلمة؟ (نقول المتعلمة وليس المثقفة؛ فهناك فرق، كالفرق بين رواد حقل البرسيم ورواد حقل الياسمين).

إن تلك الطبقة تنحو منحًى آخر أسسه رجل هُمام، تقلَّب من ذات الشمال إلى ذات اليمين، وما أدراك ما اليمين وما فيه من رغد ونعيم مقيم، يقوم فيه بدور المعلق وصاحب المنهج والرفيق المؤسس ... وهلم جرًّا، وجرًّا هلمُّوا! ومع ذلك المنحى والانعطاف التاريخي لفكر شبابنا مع اللافتة المعنونة بـ «العلم والإيمان»، نقف نحاول أن نفهم، كيف نتمسك بالعلم؟ وكيف نحترم الإيمان؟

نحن، مِثل كل فرد في الأمة، نعرف معنى الإيمان، ونشهد لإله أوحد ليس له كفوًا أحد وليس له شريك، ونؤمن بمنظومة متكاملة لها كتابها الذي يحدد شروط ذلك الإيمان، ويضع للسلوك والنظم الاجتماعية قواعد محددة. لكنا أيضًا نوقن تمامًا أن ذلك الكتاب الكريم ليس كتابًا في الفيزياء أو الكيمياء أو الهيدروليكا أو هندسة الوراثة، لسبب شديد البساطة، وهو أن القرآن الكريم كلمة الله الثابتة الواحدة، التي لا تقبل التغير أو التقلب أو اللعب بها، هو موضوع إيمان في المقام الأول، أما العلم فطبيعته متغيرة متبدلة؛ لأنه بذلك يصحح نفسه باستمرار، ويتقدم على هذا الأساس، فهذا منهج، وذاك منهج آخر مخالف تمامًا، هذا إنتاج عقل بشري متغير، وذاك من مصدر إلهي قدسي لا يقبل الانتهازية والاستخدام النفعي، كما لا يقبل التبدل والتغير.

ولكن لأننا قد استقربنا المقام في قاع مقلب نفايات الأمم، ولأن الأمم الأخرى قد تقدمت تقدمًا علميًّا هائلًا على كل المستويات، فقوي شأنها وعظُم أمرها، ولأننا بجوارها في حال ضعف وهوان، ولأن العلم لا ينمو إلا في مناخ حر، حرية مطلقة بلا حدود، يسمح بالرأي الآخر، ليس فيه تكفير ومحاكمات تفريق، فإن تربة بلادنا لم تعُدْ صالحة لإنتاج العلم؛ لذلك اكتفينا باستهلاك منتجات العلم التي جهد عليها علماء الدول المتقدمة، وأفنوا فيها أعمارهم، وهنا طيب خاطرنا شيخ المفسرين التلفازي، الذي «تولى» علينا «متوليًا»، عافاه الله وأبقاه للأمة الإسلامية ذخرًا ولمصر فخرًا، فرأى أن عزاءنا في كون غير المسلمين يكدون ويتعبون ويشْقَون كالأنعام للوصول إلى كشوفهم العلمية، بينما نحن بأموالنا وبترولنا الذي منحه الله لنا، نأخذ نتاج هذا العلم ونستهلكه على الجاهز؛ فالدول المتقدمة مستعدة دومًا لتوصيل الطلبات إلى المنازل، فحمدًا لله أنه قد سخَّر لنا أخيرًا بني الروم، فهل بعد ذلك نصر؟ وهل بعد ذلك فهم للعلم والإيمان؟

* * *

أما الدكتور الحجة، الموج المتلاطم من العلم المتراكم، مفتاح العلم وخزانته، الشيخ الطبيب، بحر العلوم، صاحب البرنامج التلفازي المعلوم، فقد أخذ مبكرًا، منذ أن سار مع عقارب الساعة، بحل آخر، يحل به مشكلة الأمة ليرفع عنها الغمة، بحل أساسي لعلاقتها بالعلم.

رأى الشيخ الطبيب «رأيًا» أو «رؤيا» لا نعلم، ثم قام يقولها في سلسال طويل عبر شاشات

التلفاز الميمون، ثم قال، لا فُضَّ فوه، ذات الأقوال في سلسال آخر من الكتب، التي أصبحت تملأ أرفف أدمغة شبابنا. وكان الرأي والقول يؤكدان أن حل مشكلة أمتنا يكمن في إثبات أننا أصحاب كل الكشوف العلمية قبل زمانها بزمان، وحتى التي لم تُكتشف بعدُ منها.

لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لو كان الرجل موضوعيًّا لقال إننا قد شاركنا الإنسانية في تطورها العلمي، عبر ما قدَّمت كوكبة علمائنا في العصور الخوالي، وبذلك لا يكون العلم حكرًا على أحد، إنما نتاج مشاركة كل البشرية فيه، منذ عصر اكتشاف النار وحتى الآن، لكنه لم يرَ ذلك، لقد أراد الفضل كله بالتمام والكمال لا يخس مقدار جناح بعوضة، ويكون له هو الفضل كله في ذلك الكشف العظيم.

كان الحل هو القول: إن القرآن الكريم يحوي كل علوم الأولين والآخرين، وهنا قام يفتش في أفلام كدَّ عليها العلماء، ينتقي منها ما يلتقي مع تفسيره هو للآيات الكريمة، ليقصَّ لها النظرية العلمية ويفصِّلها على قدِّها ومقاسها، نعم قد تأتي مرة فضفاضة، ومرة شديدة الضيق، لكنه وهو يفعل ذلك يرتكب جرمًا كبيرًا، ثم يقع في إثم عظيم.

أما الجرم فهو في حق اثنين لا نتنازل عنهما أبدًا، الأول في حق العلم نفسه، فهو يقدمه مجزوءًا، منقوصًا، مشوهًا، يهدر ما بذل فيه من عناء وجهد بالعقل البشري، خاصة مع تعقيباته وابتسامته الساخرة المعهودة، من ذلك العقل الغِر المفتون، الذي يحاول اكتشاف علوم عرفناها نحن قبله بقرون، عبر معرفة ربنا لها. أما المجني عليه الثاني في هذا الجرم، فهو زهرة شباب بلادنا، الذين عليهم المعتمَد والأمل، فالعلم عناء وكدٌّ وتعب عظيم، يمكن بمنهج الطبيب التلفازي الاستغناء عنه والاكتفاء بالقرآن الكريم، فيدمر الطبيب المعجزة عقل الأمة ممثَّلًا في شبابها، ليتحولوا إلى صُناع قنابل محترفين، وقتَلة متمرسين.

بقي الآن الإثم العظيم، وهو الأخطر، فالرجل أولًا يريد إثبات صدق الله بمعارف الإنسان، هذه واحدة، أما الثانية فهو أنه يعرِض لنا الأفلام العلمية ويتطفل عليها، ثم يبدأ في السخرية من العقل البشري القاصر الذي أنتج علومها المصورة، أترون أين الإهانة الخفية؟ إنه يثبت صدق الله بنتاج عقل إنساني أبله، أليس ذلك ما يفعله الطبيب المعجزة؟

ثم إن الإثم مركب، فالعلم متغير، والقرآن كلمة الله الثابتة، فهل إذا ربط السيد الطبيب نظرية علمية اليوم بآية قرآنية، ثم ثبت بعد ذلك فساد النظرية، أفلا ينسحب ذلك على الآية القرآنية؟

وهكذا، ولأن الغرب دومًا عدو، ولأن العلم منتَج غربي، فهو عدو! لكن لأن العلم يساعد على تقدم الأمم، تم سحب شرف العلم منهم وتحييدُه وجعْلُه خادمًا مطيعًا لمنظومتنا، ولكن في الوهم، وهكذا نصبح أعلم علماء العالم، فالعلم في كتابنا، وهنا الوجه الكارثي؛ فالقرآن كلام الله، ونحن

نفخر به على أولئك الذين يظنون أنفسهم متقدمين وهم واهمون، وهذا يعني أن رب القرآن رب خاص بنا وحدنا، نتباهى به على الآخرين، رغم أن الله رب العالمين، ونحن نؤمن بذلك عن يقين.

ثم ألَا يعني ذلك الشعور بالدُّونية والقَزَميَّة، وأننا مجرد قبيلة لا تعرف شيئًا وتتخبط في الجهالات، لكن شيخها يعرف كل شيء، وعلى جميع أفرادها الاطمئنانُ إليه، وأنه سيتدخل لإنقاذها في الوقت المناسب؟ ألَا يعني ذلك تحول الذات الإلهية الرفيعة العظمى إلى مجرد سيد لجماعة؟ وبالمناسبة أليس ذلك هو فَهْم يهود لمعنى الألوهية؟

وطبعًا من حق الرجل أن يفخر، بعد أن سار وراءه العربان «ذرافات» أو «زرافات»، لا فرق، وانتابهم هوس العلم والإيمان، ليصيبهم ذلك الهوس بحمَّى العلوم الإسلامية، التي انعقدت لها المؤتمرات العالمية، التي علمنا مؤخرًا من التقارير المنشورة أنها قد موِّلت من قِبَل المخابرات المركزية الأمريكية.

فإذا كان هناك مثلًا طب إسلامي، فلا شك أن هناك طبًّا بوذيًّا وطبًّا يهوديًّا، أما نحن إذا كنا مخلصين لطبِّنا، فعلينا إغلاق كليات الطب في بلادنا، مع سحب شهادة الطب من السيد الطبيب التلفازي، ومنحِه شهادة تفوُّق في الطب الإسلامي مثلًا، كتعبير عن العرفان لما قدمه لأمة العربان.

والآن جاء موعدنا مع السؤال الدوري «السؤال الآخر»:

بفرض أن كل ما فعله السيد الطبيب صحيح، وبفرض أننا لم نفهم المراميَ البعيدة لخطته السديدة، فما هو الممكن تحقيقُه من تلك الخطة لصالح البلاد والعباد، والخروج من القاع؟ بماذا أفادنا كل ما فعل ويفعل بفرض صدقه؟

يعني: هل يمكن للسيد الطبيب، باعتباره الرائد في هذا الطريق، أن يقدم لنا حلًّا لتخلُّفنا؟ أو هل بإمكانه أن يكتشف لنا مِن المقدس أسلحة كالليزر، ونسميه الليزر الإسلامي مثلًا؟

نحن ننتظر تلك الجدية في السيد الطبيب بكل أمل، نعم ربما يطول انتظارنا حتى نموت فنُبعث لنحاسَب على ما قدَّمت أيدينا خاصة في حق أمتنا، لكنا على أية حال نطلب لأنفسنا وله المغفرة إن نسينا أو أخطأنا.

الفصل السادس

مرض المنهج: محاولة للتشخيص المبسط

من وجهة نظري، أعتقد أن المشكلة أبعد وأعمق من الاستفسار عن مستوى المد السلفي أو جذره وانحساره، فالأمر يكمن في منهج تفكير سائد مستمَد من المقدس ويعتمد عليه ويقوم به، ولأن للمقدس عدة وجوه وعدة قراءات قد تصل إلى حد التنافر المذهبي، فإن المسألة تتخذ شكلًا أكثر تعقيدًا، حيث يتحول تعدد الفهم وتعدد التفاسير إلى تعدُّد في المناهج التي تطبع سلوك أتباع المذاهب بطابَعها، ويسلكون في الواقع العملي بوحي من توجيهها، ويضبطون عليها حركاتهم وسكناتهم ورؤيتَهم للماضي وللحاضر وللمستقبل، ويحددون بها موقفهم من المنتج الثقافي الإنساني، ومن الآخَر المخالف، بل وبه يحددون خياراتهم السياسية، وهنا الوجه الكارثي.

وقد يبدو هذا التعدد في ظاهره رحمة، لكنه العذاب بعينه، فهو من جانب يؤدي إلى تصلب مذهبي شديد، ومن جانب آخر يضع التعامل العلمي معه من الخارج في حالة استحالة، حيث ستختلف أساليب الجدل بين مذهب وآخر، وحول ما يراه هذا المذهب أو ذاك من صحيح التفاسير أو الأحاديث، ومن جانب ثالث، فإنه رغم التعددية فإن الرؤى جميعًا تستند إلى فكرة تأسيسية، ترى أن ما يملكه العقل المتمحور حول المقدس؛ هو الرؤية المنهجية الواحدة الصحيحة صحةً مطلقةً، لا يدخلها الباطل من بين أيديها أو من خلفها، بل تجتمع المذاهب جميعًا عند حقيقة تأسيسية مرجعية، هي نصوص الكتاب والسنة، التي انقضى على زمنها وظروفها التي أفرزتها ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان.

وينبني على ذلك شعور حادٌّ بامتلاك الحقيقة النهائية والمطلقة لكل أمر في كل علم ممكن، وهذا بحد ذاته هو المصيبة بعينها؛ لأنه يؤدي، أو أدى بالفعل، إلى استشراء وباء نفسي حاد، عندما يصطدم صاحب هذه الحقيقة المطلقة، بما يحمله من زهو نفسي يؤدي به إلى الاستعلاء والنرجسية، بواقع الأحوال وتقدُّم الآخر المخالف وتفوُّقه الحضاري؛ فيزداد تمحورًا حول الذات، في محاولة يائسة للتمسك بهويته وإثبات ذاته، ليتداخل ذلك كله مع الانبهار الضروري بحضارة الآخر المتقدم، في تعقيدات أخرى، تنتهي إلى استشراء حالة فصامية جماعية ظاهرة الوضوح، تظهر أعراضها على كل المستويات، حتى على المستويات القيادية وما تتخذه من قرارات وتخبطات انتهت بنا إلى حيث نقبع الآن.

وإذا كنا لا نغفُل عن العوامل الأخرى التي أدت إلى الحال الراهن، وخاصة الجوانب

الاقتصادية، ومدى نضوج الأوضاع الاجتماعية المتفاوتة بتفاوت خصوصيات الأوطان العربية، وعدم تبلور طبقاته بشكل محدد واضح، مع الانحرافات العنيفة التي أصابت الأشكال السياسية العالمية في مفاجآت السنوات الأخيرة؛ فإننا سنحاول تقديم مطالعة بسيطة في دور النصوص ووسطاء الدين المحترفين في تأسيس هذا المنهج وترسيخه.

(١) النص بين الثبات والحركة

معلوم أن النص القرآني لم يأتِ به صاحب الدعوة في شكل كتلي، إنما جاءنا مفرقًا منجمًا بالتبرير القرآني: (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ)، تغيَّرت أحواله وتبدَّلت بتبدُّل أحوال الواقع والمتغيرات زمنَ الدعوة، فتجادَلَ مع أحداث الواقع، وفعل فيها وانفعل بها، واستجاب لضرورات المتغير الموضوعية، عبر ثلاثة وعشرين عامًا، هي العمر الذي تواترت خلاله النصوص القرآنية. وعبر هذا العمر تغيَّرت آيات وتبدَّلت أخرى، ومُحيت آيات ونُسخت أخرى، ورُفعت آيات وأُنسيت أخرى، وهو الأمر الذي وجد صداه في الآيات القرآنية التي تردد أمورًا معلومة في أبواب علوم القرآن، كما في الآيات التي قيلت بمناسبة حديث الغرانيق: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (الإسراء: ٧٣-٧٤).

كذلك الآية: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ) (الحج: ٥٢).

وبشأن محو آيات، تقول الآية: (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) (الرعد: ٣٩).

وعن التبديل، تقول الآية: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (النحل: ١٠١).

وبشأن الإنساء والنسخ، تقرر الآية: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) (البقرة: ١٠٦). وغير ذلك كثير واضح الدلالة والمعنى.

وإعمالًا لذلك، لا بد من فَهْم أن هذا النص القدسي لم يأتِ كتلة واحدة متماسكة جامدة كألواح موسى، لكنه مر بمراحل تطورية ارتبطت بواقع الحجاز زمنَ الدعوة، وبتطور المتغيرات فيه ارتباطًا وثيقًا، لكن بموت صاحب الدعوة وانقطاع تدفق الآيات، توقف هذا التفاعل وتحول النص على يد أتباعه إلى مقدس لا يقبل تبديلًا ولا تحويلًا، وثبتوا به، ومعه، عند تلك اللحظة الزمنية

التاريخية بكل ما لها وما عليها، ومع حراك الواقع، الحراكَ الضروريَّ بمتغيراته المتلاحقة، ظل المنهج واحدًا ثابتًا لا يتزحزح ولا يتحرك، وأصبح الإصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة سمة المنهج العربي المسلم، في التفكير وفي السلوك، مما أدى في النهاية إلى تخلُّف ثقافي هائل، قياسًا على الحراك الضروري، الذي انتهى بالإنسان العربي اليوم إلى استخدام كافة المنتج الحضاري التقني للعالم المتقدم من جهة، مع الإصرار على ثباته المنهجي والثقافي بمنظومته الواحدية في الجانب الآخر.

وعبر القرون الخوالي السوالف، تمكَّن الإنسان في بقاع المعمورة، عبر نضالات طويلة وتضحيات عظيمة، أن يُرسي مبادئ إنسانيته الحرة؛ مما أدى إلى تبدُّل عظيم وتغيُّر هائل في المفاهيم، خاصة حول قضايا الحريات، بينما على الجانب الآخر، ظل منهجنا هو المحافظة والثبات عند ظاهر ألفاظ النصوص التي أحيطت بكل التحريمات، لعدم الاقتراب أو المساس، أو حتى محاولة فَهْم صحيح يواكب المستجدات.

وحتى الآن يردِّد المسلم آيات مِلك اليمين، دون أي محاولات من جانب فقهاء المؤسسات الدينية للإعلانِ الواضح عن وقف العمل بأحكام هذه الآيات، باعتبار استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان كان وصمة عار في جبين الإنسانية على مر التاريخ.

نعم حضَّ الإسلام على العتق وحبَّب فيه في مراحل الدعوة الأولى، لكنه أبدًا لم يحرِّم الرق كما حرَّم مثلًا لحم الخنزير، ولم يجرِّمه، ومات الرسول ﷺ والصحابة ولديهم الأعداد المعدودة من العبيد، ونعم كان الإسلام بالتحبيب في العتق والترغيب فيه نقلة تقدُّمية قياسًا على زمنه، لكن الأمر اليوم قد اختلف اختلافًا تامًّا. ومع ذلك لم تزل أدعية ميكروفونات المساجد الكبرى في بلادنا المحروسة تنادي المسلمين بالتهيؤ لنفل أموال غير المسلمين وسَبْي نسائهم، الأمر الذي يطفح بالمراقب ويضعنا سخريةً للعالمين، ما بين واقعنا في قاع الأمم وبين مطالبنا التي نرفعها إلى ربنا.

وضمن قضايا الحريات، والتي تحتاج إلى كسر جريء وعميق في جدار الثبات والسلفية، قضية المرأة، التي لم تزَلْ حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لا لزوم له، رغم أنها قد تكون حاصلةً على أعلى الدرجات العلمية، وتعدل في موازين العقل مئاتِ الرجال. وعندما حاول نصر أبو زيد — كمثال — الخوض في هذا الأمر، قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تكفير وتفريق وشوق إلى الدماء، وهو الأمر الذي يدفع إلى التساؤل عن مدى جدوى التعامل مِن على ذات الأرض، لمنهج يستسهل دماء المخالف في الرأي، بل يراه أمرًا جميلًا وعظيمًا وسبيلًا إلى ملكوت الله.

وهنا يطيب لي أن أشرك القارئ في طُرفةٍ ما دمنا في ميدان القراءة المبسَّطة، حيث كنت مؤخرًا على الستالايت من القاهرة مع الشيخ يوسف البدري بالدوحة، على قناة الخليج الفضائية، وأذكر أني قلت ساعتها إني رجل قد لوثته الحضارة، يكره رؤية الدماء تُسفك والأيدي تُقطع

والأجساد تُجلَد، فكان رده العجيب: وماذا عن سفْك دماء المسلمين في البوسنة؟ ويبدو أن منهج الرجل، وهو منهجهم عمومًا، يرى أن الغرب — وهو النموذج المبهر وغير المعلن في بواطنهم — يمارس الذبح والقتل، فلماذا لا نمارسه؟ وأنه ما دام الغرب المتحضر يمارسه، فليس علينا ملامة، الكارثة أنه يريد أن يمارسه معنا أيضًا. ولا تعليق.

وهكذا يكون أي خلاف في الرأي حول تفسير آيات، أو محاولة الخروج من أَسْر الثبات، مَدعاةً لإهدار الدم بكل بساطة، بل أحيانًا بولع شديد. وهو الموقف أيضًا من قضايا الديمقراطية، ناهيك عما هو أبعدُ ما يكون عن مجرد السماح بمناقشته، بينما قد أصبح مبدأً إنسانيًّا راسخًا؛ هو مبدأ حرية الاعتقاد، فدون مناقشته خرق القَتَاد وإسالة الدماء أنهارًا.

(٢) العلم والمعجزة

ولأن النص القدسي هو الثقافة الوحيدة الصحيحة والممكنة وفق هذا المنهج، فقد أصبح النص هو المرجع العمدة والأم لكل القضايا، حتى لتجد أساتذة أكاديميين يشرفون على تخريج أجيالنا يتساءلون مع كل جديد: هل جاء ذكره في القرآن؟!

ولأن النص كان يعمد في أحيان كثيرة إلى ضرب الأمثلة لأهل زمنه ترغيبًا وترهيبًا، للإيعاز بأن ضعف صاحب الدعوة والمسلمين الأوائل لا يعول عليه، فوراءهم تقف قوة الله والملائكة ظهيرًا. وتأتي ضمن تلك المرحلة أحاديث النصوص مشحونة بالمعجز والملغز الذي يكسر قوانين الطبيعة والعقل معًا، فنجد قصة الحصان المجنح (البراق)، وحديث الصخرة التي تمخضت فولدت ناقة الله، وحديث الملائكة المحاربين يركبون الخيول ويحملون السيوف، وحديث الجن والعفاريت وبساط الريح السليماني، وكل هذا لطيف وموعظة حسنة وإنذار للكافرين من أهل الحجاز زمن الدعوة، لكن اليوم، ومع المفترض في الإيمان أنه تصديق وتسليم، يصبح بالإمكان الوثوق في تحقيق أشباه تلك الأحداث اليوم، فقط إذا خلصت الضمائر وصفت النوايا بالإخلاص كلية لكل تفاصيل المنهج الطقوسية، فبالإمكان بل بالضرورة عدم بذل أي جهد علمي حقيقي، ويتحول الشعور بالعجز والدونية إلى ارتكاس نحو زمن السلف الصالح؛ تهيئة للواقع الأرضي لمجيء نصر الله والفتح. ولا يصبح هناك مجال سوى لإنشاء دولة دينية، وساعتها سيتدخل الله بنفسه لإنقاذ حزبه والخروج بخير أمة أُخرجت للناس من القاع بقدرته وحده.

والوجه الكارثي في أصحاب هذا المنهج أنهم يتعاملون مع المنتج العلمي الإنساني بتعالٍ وترفُّع، ولأن العلم قد ساعد على تطور الأمم الأخرى فقد أصبح محل نقيضَين، محلًّا للحب والكره،

نستعمل منتجه التقني لكن نختصر العلم في ذاته، هو الشيطان الأعظم الذي ساعد الآخر المتفوق. ويتم تكريس هذه المعاني عبر وسائل التثقيف العامة كالإذاعة والتلفاز، بل ودُور التعليم على تنوعها. ومع الانبهار بهذا العلم وبالعقل المتفوق لا يملك الموفقون والانتهازيون وأصحاب المصالح والمتاجرون بمصير الأمة سوى ادعاء توفيقية رخيصة ومبتذلة بين العلم وبين نصوص الدين، تنتهي إلى تكريس العلم كله لله وحده وتحقير شأن العقل الإنساني القاصر. وإبان ذلك يتم التعامل مع المنتج العلمي بعقلية قاطع الطريق، وبنفسية المريض بالذهان وبالشيزوفرانيا معًا، فيتم التأكيد على أننا أصحاب كل تلك الكشوف قبل أن يكتشفها الغرب الكافر بعقله القاصر، وأننا نعلمها سلفًا عبر علم ربنا بها، كما لو كان الله بهذا التصور التجزيئي والقبلي شيخًا لقبيلتنا وحدها ويكفينا أن يعلم هو نيابة عنا، فهو المتصرف، وهو العالم، وما علينا سوى طاعة أوامره ونواهيه وانتظار تدخله في الوقت المناسب الذي لا يعلمه إلا هو. وهكذا، ورغم أننا شركاء مثل كل البشرية في صياغة العلم الإنساني عبر مراحل متعددة من تاريخنا، ننفي هذا العلم ونحيله إلى عدو شيطاني، نحبه ونخافه ونكرهه ونتمنى امتلاكه ونحتقره في آن واحد. ثم نحول أنفسنا إلى مجرد كائنات بلهاء تعتمد على علم ربها فقط وهو العلم المخفي، وتستخدم كافة المنتج التقني للعلم البشري، أفلا يسيء ذلك إلى مفهوم الكمال الألوهي ذاته؟!

(٣) قوانين التخلف الثلاثة

رغم أن المسلمين الأوائل الذين عاينوا الدعوة وعاشوا زمنها، قد وعوا درس تجادل النص القدسي مع الواقع، فمدوا الخط على استقامته واستفادوا من حواره مع المتغيرات، ثم جاءت الإمبراطورية الإسلامية في عصر الثقة والقوة لتفتح كل الأبواب والنوافذ على حضارات الدنيا وعلوم العالمين آنذاك.

وبمجيء الخليفة المتوكل، وتضعضُع قوة الدولة وما صاحب الأحوال بعدها من الدخول في عصور الانحطاط والتردي، انتهى الأمر بتقعيد القواعد المكبِّلة للحريات الفكرية عبر تحريمات وُضعت في التعامل مع النصوص الدينية، تكبح أي محاولة للانطلاق بالمفاهيم من أسْر الثبات لتواكب حركة التطور والمتغيرات.

وقد تمثلت تلك القواعد في ثلاثة قوانين تأسيسية أولها: تكفير من ينكر معلومًا من الدين بالضرورة، ورغم أن هذا المعلوم من الدين بالضرورة لا يملك أحد تحديده وضبطه؛ لأن معنى ذلك هو الاطلاع على المقصد الإلهي منه بدقة وتواصل نبوي، فإن هذه القاعدة كثيرًا ما استُخدمت لإخراس ألسنة المعارضة على المستوى السياسي، كما حدث في ذبح محمود طه بالسودان، وفي

أحيان أخرى استخدمتها المعارضة السياسية المرتدية للزي الإسلامي، كما حدث منذ سنوات قليلة في مقتل فرج فودة في مصر ثم محاولة اغتيال نجيب محفوظ، وأخيرًا ما حدث مع نصر أبو زيد.

وكانت القاعدة الثانية هي «لا اجتهاد مع نص»، والمقصود بالنص ذلك الواضح الدلالة القطعي الذي لا يختلف عليه اثنان وحوله لا تنتطح عنزتان، رغم ما نعلمه أن ذلك التوصيف بوضوح الدلالة والقطعية وعدم الاختلاف حوله؛ قد تبدل وتغيَّر ونُسخ وتفاعل مع الواقع، ثم جاء رجال كبار في تاريخ الإسلام فاجتهدوا مع نصوص من هذا القبيل بما يتعارض وما استقرت عليه الدلالة، حتى إنهم أكسبوه دلالات أخرى، وحتى وُضعت بهذا الاجتهاد تحريمات وأُلغيت محلَّلات، عندما مدوا الخط على استقامته ووعوا الدرس النبوي والقدسي في تجادل النص مع الواقع، واستفادوا من حواره مع المتغيرات وجدله معها زمن الدعوة، حتى إن الخليفة عمر أوقف العمل بحدود كما حدث في عام الرمادة، وحرَّم حلالًا كمتعة النساء، بل وأوقف العمل بفريضة كمتعة الحج، بل وأوقف العمل بنصوص واضحة كآية المؤلفة قلوبهم. كذلك فهم الخليفة «علي» ذات الأمر وأعلنه واضحًا في قوله: «إن القرآن لا ينطق بلسان بل ينطق به الرجال»، مطلِقًا بذلك حرية تعدد الأفهام حوله.

أما القاعدة الثالثة فكانت قاعدة شديدة الانتهازية وترتبط بمصالح ذوي السلطان ووسطائهم المحترفين من رجال الدين بوضوح وجلاء لا يقبل جدلًا أو مكابرةً، ووُضعت لتبرير مظالم بغيضة لأصحاب السلطان، ضد مصالح الناس والوطن والدين نفسه. وبهذه القاعدة كان — ولم يزل — يتم نزع الآيات من سياقها الداخلي لتمرير أشنع المظالم. ولا بأس من اللجوء في ظرف آخر إلى نقيض تلك الآيات لتبرير أمور هي على العكس تمامًا، نتيجة ما احتواه المصحف العثماني من تجاور للآيات الناسخة بجوار المنسوخة، وما يصح العمل بحكمه إلى جوار ما توقف العمل بحكمه، والتغطية الكاملة على هذا الأمر والتعمية عليه حتى يمكن استثماره وقت الحاجة.

وإبان ذلك يتم إلغاء دور الإنسان وفاعليته تمامًا في صياغة أي مأثور، وتُحال الثقافة جميعًا إلى عالم غيبي مفارق، ويدرَّب المسلم على الإفراط في تقديس كل قديم بكل رموزه الممتدة في الحاضر فيُصاب برهاب اليونيفورم المشيخي والعمامة، ويسلم له القيادة، مع تقديس لكل لحظة تاريخية ترتبط بأمر ديني، حتى اللغة ذاتها أصبحت مقدسة وتم تثبيتها عند زمن تواتر النص، ومُنعت من الحراك، وكُبِّلت عن التطور.

وأصبح النص القدسي مصدر كل معرفة ممكنة، حتى المعرفة بالذات وبالهوية وبالتاريخ الذي انقطعنا عنه بانقطاعنا عن لغته القديمة، وهي وعاؤه الحافظ، ففقدنا الذاكرة التاريخية، ومع فقدها توارى مفهوم الوطن والمواطنة خجلًا أمام مفهوم أصولي يؤكد دومًا أن الإسلام هو الوطن.

وتمحورت الأحكام على الفكرة، أو على السلوك، أو على الرأي، أو على الموقف السياسي، حول الحلال والحرام والإيمان والكفر، وليس بحساب مصالح البلاد والعباد، وليس حول الحكم بالصواب والخطأ العقلي والعلمي والعملي، وتحول المأثور إلى وسيلة للمعرفة بدلًا من أن يكون مادة للمعرفة والدرس تنقُله من مستوى الرأي المختلف حوله، إلى مستوى العلم الذي لا خلاف حوله.

الفصل السابع

خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل

أبدًا لم تأتِ سور القرآن الكريم وآياته دفعة واحدة في كتلة متماسكة مثل ألواح موسى عليه السلام، بل تتابعت مفرَّقة ومنجَّمة ليقرأه النبي على الناس على مُكث وعلى مهَل حسبما قررت آيات القرآن ذاتها. وقد استمر تواتر آيات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عامًا هي عمر ذلك الوحي بالمقاييس الزمنية البشرية.

ولأن تلك الآيات قد انضبطت حركتها الزمنية بشروط الزمن الإنساني وتكوين الإنسان ذاته، فانتهت بموت الوسيط البشري (النبي ﷺ) وتوقفت بتوقف زمانه على الأرض وشروطه الجسدية في علاقتها بالحياة وبالموت. وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنساني الأرضي أخذًا وعطاءً في جدل ينفعل بالواقع ويفعل فيه، يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه، وهو ما يعني أن هذا النص الجليل لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بل عمد عمدًا إلى إبراز وإظهار تفاعله معه وتبدله بتبدل الظروف الإنسانية والموضوعية البحت، بكل ما للإنسان وبكل ما عليه؛ بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل في صياغة الواقع وصناعته، بل إن الجانب الإلهي في المقدس عندما كان يفعل في الواقع زمن الدعوة المحمدية، أبدًا لم يكن يفعل بتدخل إلهي مباشر، بل كان يفعل بواسطة البشر أنفسهم، وبذلك كان مشاركًا للإنسان والإنسان مشاركًا معه من صياغة الواقع ودفع الحراك التاريخي.

ومن هنا جاءنا الناسخ والمنسوخ والحديث القرآني عن آيات رُفعت، وأخرى بُدلت، وثالثةٍ مُحيت، ورابعة أُنسيت ... إلخ، وهي أبواب معلومة في علوم القرآن، قامت على شهادة المقدس ذاته بما كان يحدث، لكن مثل ذلك الحديث سيبدو غريبًا لغير المتابع ولمن لا يقرءون في علوم دينهم وقرآنهم ويكتفون بتلقِّيها شفاهة، وعادة ما يكون مثل هؤلاء هم أشد الناس دموية ولا إنسانية وأعظمهم تعصبًا؛ لأنهم أشد الناس جهلًا بمقدسهم.

ثم إن هذا المقدس نفسه قد قرر على الناس مناهج مقدسة، وهي في حقيقتها مناهج إنسانية ورأي بشري ثبت صوابه فأقره الوحي، وكم من حالة أقر فيها الوحي آراء الصحابة مثل أبي بكر وعمر بوجه خاص! لذلك تجد مساحة الإنساني في القرآن الكريم هي المساحة الكبرى والفاعلية العليا، خاصة إذا لم تنسَ أن هذا المقدس لم يأتِ من أجل الله، فهو أجلُّ من الاحتياج لأي أمر كان، لكنه جاء من أجل الناس وصلاح معاشهم، ومن هنا جاء الجانب الإنساني ليغطي المساحة الأوسع

من الآيات والأعظم، بينما كانت الإلهيات والغيبيات فيه التي هي محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو كفر، قبول أو رفض، إما أن تؤمن بها أو لا تؤمن، فهي قليلة محدودة حتى أمكن صياغتها في جملة واحدة يمثلها قانون الإيمان الإسلامي «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره.»

لكن عندما اجتهد مفكر مصري وقال إن النص القرآني بمفارقته لمصدره الإلهي قد تأنسن وأصبح ملكًا للبشر، قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تنفير وتكفير وطبول حرب دينية ومحاكم ومحاكمات وأحكام تفريق وردَّة، كما هو معلوم، رغم أن آيات القرآن تتم قراءتها بلسان إنساني وحنجرة وشفتين، وتُرى بعين بشرية، وتتداولها الحواس بآلات إنسانية فيزيائية بحتة، بل وتختلف حولها الأفهام باختلاف المجتمعات الإسلامية وباختلاف المذاهب والرؤى، بل تختلف من شخص إلى آخر باختلاف الثقافات ودرجتها بين الناس.

كان هذا هو درس الوحي الأول والأخطر والأكثر تمييزًا للدين الإسلامي عن بقية الأديان، أنه مع التحرر ضد التسلط، ومع التغير والحركة ضد الثبات والجمود، ومع الإنسان وقوانين الواقع وشروط العقل، ضد كل المستغلقات والأساطير والألغاز والأحاجي والخوارق، وعندما كان يرِدُ حديث الخوارق والمعجزات كان يأتي من باب ضرب المثل للترغيب والترهيب لقوم هكذا كانت ثقافتهم، وهكذا كان منهجهم في التفكير، وهكذا كان مستواهم المعرفي.

أما التشريعات والأحكام فكانت هي ذلك المتغير الضروري الذي أثبت سمته المتغيرة والمتحولة زمن النبي نفسه مرات ومرات، كما في أحكام المواريث وزواج المتعة والموقف من الرق والموقف من الخمر ... إلخ. ليعطي الدرس للمؤمنين به ألا يثبتوا عند منطقة زمكانية بعينها، فيتم تقديسها وتصبح مصدرًا لثقافة واحدة ثابتة لا تتغير. ليعطي الدرس أن تلك اللحظة الزمكانية وزمانها زمن الدعوة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا، ومكانها الحجاز وحده، لحظة بدء وانطلاق، وليست لحظة ثبات وجمود. أعطى الدرس بأنه جاء يفجر كل قيود المكان، فكان ملكًا للبشرية جمعاء، ويفجر كل قيود الزمان بدرس تغير الوحي مع متغيرات الواقع الأرضي. أعطى الدرس أنه مع المدينة ومع المدنية عندما أصبح اسم يثرب هو المدينة المنورة، وعندما هاجم كل نزعات الارتداد عن المدينة بهجومه الكاسح والمتكرر على الأعراب. وقد وعى المسلمون الأوائل ذلك الدرس، وكان الصحابة من الخلفاء الراشدين نموذجًا أولَ وعى هذه الحقيقة، فاعتبر مصالح الناس والبلاد وحدها هي سبيل الرشاد للأحكام والقرارات، حتى لو خالفت تلك الأحكام والقرارات العقلية الإنسانية نصوصًا إلهية، وهو ما تكرر بعد الخلفاء الراشدين في مواقف فريق المعتزلة المعلومة بين العقل والنقل.

وهكذا كان دفع النص القرآني الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال

الأرضية، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الخرافة والتواكل وانتظار الخلاص السماوي. وقد صحب ذلك الدرسَ النظري دروس عملية في أكثر من موقف حاسم إبان زمن الدعوة ذاته. بل كانت تلك الدروس العملية تحمل قدرًا شديدًا من القسوة والردع لنزعة الثبات والتواكل لتأكيد منطقها الإنساني والموضوعي والعقلاني. فجاءت غزوة بدر الكبرى لتعطي درسًا أمثل للمؤمنين؛ فعندما راعوا الظروف الموضوعية للمعركة، ودرسوا مواطنها واختاروا مواقعهم وأرسلوا الجواسيس والعيون لأخذ الأخبار عن عدوهم (دون انتظار للملاك جبريل)، وتهيئوا عسكريًّا وتدربوا تدريبًا كافيًا، انتهى الأمر بنصرهم نصرًا عزيزًا، وعندما ركنوا إلى التدخل السماوي بالملائكة في غزوة أحد، وأهملوا شروط الواقع الموضوعية أُصيبوا بهزيمة شديدة المرارة كادت تفصل في مصير الدعوة الإسلامية سلبًا. وهكذا صحب الدرسَ النظري التطبيقُ العملي في درس واضح البلاغ والبيان والإفصاح المبلغ المبين.

أما الأشد إفصاحًا وأنصع جلاءً فهو القرار الإلهي الرفيع بأن النبي محمد ﷺ هو آخر حلقة من حلقات تدخُّل السماء في حياة الناس على الأرض. فوصف النبي ﷺ بصفة اصطلاحية تحمل كل تلك المعاني، فهو النبي الختم والنبي الخاتم.

والختم هو ضمانة توثيق العهد ونهايته بعد أن استوفى جميع شروطه وبنوده؛ وبذلك يكون الختم هو خاتم العهد واستيفاءه شروطَ الصدق وبنوده. ويصبح نبي الإسلام هو ختم العهد السماوي مع الأرض بكونه كان آخر رسالة تواصل للسماء مع الأرض بعد تواصلها مع الإنسان عبر زمن وتاريخ طويلَين قامت خلالهما بتوجيه وتصحيح السبل والمناهج الإنسانية وليست السماوية. حتى جاء النبي الخاتم كآخر حلقة في تلك السلسلة من التدخلات السماوية في عالم الإنسانية. لقد بلغت الإنسانية سن الرشد وعليها من تلك اللحظة التاريخية الزمكانية أن تعتمد على نفسها ولا تنتظر تدخلًا سماويًّا آخر. جاءت لتعلن انتهاء التدخل الإعجازي السماوي وبداية عصر العقل الإنساني على الأرض، والعقل هو بضعة من العلم الإلهي والروح القانوني الكوني، وهو رمز الله في الإنسان، هو سر الإبداع والإنتاج والتوافق مع النواميس الكونية المتحركة التي لا تعرف الثبات. وبهذا العقل أو الأمانة التي حملها الإنسان استحق الخلافة على الأرض كنموذج للإبداع الإلهي فيها رمزًا عليه، وعلى اقتداره واتساقه بذاته مع القوانين التي وضعها بنفسه، وضمن تلك القوانين: الاتساق وعدم التناقض، والله لا يتناقض مع قوانين هو واضعها، وتلك القوانين هي التغير الأبدي؛ لذلك جاءت دروسه للإنسان كي يعي قوانين التغير في الكون، من هنا كانت دروس الإسلام النظرية والعملية التي جاءت تؤكد بدء عصر العقل والإنسان على الأرض، وأنه قد بلغ سن الرشد، وآن أوان اعتماده على ذاته وعقله ومناهجه وتجربته الإنسانية، بعد أن اختتمت السماء شروط عقدها مع خليفتها على الأرض بمجيء آخر تواصل للسماء مع الأرض؛ النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وانتهاء عصر المعجزات.

الفصل الثامن

السؤال الآخر: الإسلام والقضية الإسرائيلية

«اتبعوني أجعلكم أنسابًا، والذي نفس محمد بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر.»

كان ذلك نداء النبي يجلجل في مكة يعِدُ من يتبع صاحبه بكنوز عظمى وفتوحات أعظم، وقد ظل هذا النداء يتكرر حتى بعد قيام دولة الرسول النبوية الصغيرة في يثرب، خاصة في المناطق الصعبة، وهو ما حدث في غزوة الخندق والمدينة محاصرة بالأحزاب قد يدخلونها على أهلها بين فينة وأخرى، وساعتها أعلن الرسول وعده للمؤمنين أن الله قد فتح عليه بلاد الفرس وبلاد الروم، وهو ما دعا مسلمًا أنصاريًّا هو «معتب بن قشير» ليعقب في المساحة الواقعة بين الوعد وبين واقع الحال، فيقول: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!» وكما هو واضح رد ساخر ينعى همًّا حاضرًا لا ينبئ بمثل ذلك الوعد العظيم. لكن خط سير التاريخ كان مع صاحب الدعوة وأمله الكبير.

كانت مصر وساحل أفريقيا مع فلسطين وبلاد الشام جميعًا تقع حينئذٍ تحت ظل عرش قيصر الروم، بينما كانت العراق وما والاها شرقًا تقع تحت مظلة كسرى الفرس، وكل الدلائل تشير إلى فراغ سياسي واضح ناتج بالضرورة عن انهيار قوى الإمبراطوريتين بعد حروب دامت وطالت، ولا بد أن تملأ هذا الفراغ قوة جديدة.

وقد وعى عرب الجزيرة الدرس وقرءوه بإمعان وأدركوا دورهم التاريخي المنتظر، فكانت دعوة النبي ﷺ، وكان الوعي النافذ لرجل من سادة الملأ القرشي عظيم، هو الشيخ «عتبة بن ربيعة» الذي كللت السنوات رأسه بالحكمة، فقرأ خطوات التاريخ المقبلة قراءة واضحة بوعي ضفره موقعه القيادي في دار الندوة، فقام يحدد موقف الملأ القرشي من محمد ودعوته بندائه: «يا معشر قريش أطيعوني وخلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزِلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن تُصِبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكُه ملكُكم وعزُّه عزُّكم وكنتم أسعد الناس به.»

وهنا يطفر السؤال: هل كان معلومًا لدى صاحب الدعوة، وفي خطة الوحي، أن بلاد

الحضارات الشرق أوسطية القديمة، مثل مصر والشام والعراق، ستقع ضمن حدود الدولة الإسلامية الإمبراطورية المنتظرة، وأنها ستتحول تمامًا لتصبح دولًا عربية تتبنى العروبة لغة وثقافة وقومية بل وربما عنصرًا؟

المشكلة أننا لو سلَّمنا بذلك لوقعنا في مأزق حرج بين ما يطلبه الإيمان وما تطلبه همومنا الوطنية والقومية، فنحن اليوم في أزمة حضارية طاحنة تستدعي تمسكًا شديدًا بالهوية مقابل الآخر الغاضب المتفوق، والهوية في مصر مصرية تضرب بجذورها آلافًا من السنين في أزمنة غوابر، والهوية في العراق عراقية تضرب بحضاراتها المتعددة من آكد إلى بابل وآشور في عمق الماضي فحازت العراقة لاسمها، وبلاد الشام بدورها لا يقل وجودها الحضاري القديم عن شأن جيرانها، ثم يجمع هؤلاء جميعًا رابطة العروبة التي تحققت خلال قرون بعد الغزو العربي لها، لكن مكمن المشكلة أن اعتزازك بذلك القديم العريق الذي يحفظ لك التماسك النفسي والروحي، ويضمن لك عدم فقد الذاكرة التاريخية، سيتصادم فورًا مع موقف الوحي القرآني الذي كرَّم بني إسرائيل تكريمًا مقارنًا طوال الوقت بأصحاب تلك الحضارات، مع تسفيه هذه الحضارات لصالح التاريخ الإسرائيلي؛ لأنه يعتمد في موقفه على الإيمان والكفر وحدهما، وكانت تلك الحضارات حضارات كافرة برب الشعب الإسرائيلي؛ لذلك يغرق فرعون مصر وقومه المجرمون في لجج بحر ينشق بالعصا الحية؛ لأنه كفر برب موسى وهارون الإسرائيليَّين، وينهار برج بابل فوق نمرود وقومه؛ لأنه جادل الحق الذي جاء به الخليل إبراهيم أرومة العبريين، ويموت جوليات الفلسطيني قتيلًا وهو يدافع عن أرضه ضد الاستيطان الإسرائيلي لبلاده بقيادة الملك داود؛ لأن جوليات كان بدوره كافرًا. ومن هنا تطرأ الأسئلة الملحة والمشروعة إيمانيًّا ووطنيًّا وقوميًّا، التي تفرضها متغيرات واقع الأحوال منذ جاءت هذه المواقف وحيًا مع بدء دعوة النبي ﷺ حتى الآن، أسئلة تبحث عن السواء النفسي والاتساق مع الذات ومع الإيمان ومع منطق الأحداث. تبغي التمدد في هويتها العريقة احتماءً وتماسكًا، وتريد في الوقت ذاته احترام المقدس وقراره؛ حتى تطمئن إلى ما وقر في القلب حتى يصدقه العقل ويطابقه العمل. وحتى يمكن ذلك سنحاول قراءة حركة التاريخ على مستويين: الحركة الأولى إبان تواتر الوحي في مكة والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ وتوقف الوحي. والحركة الثانية منذ توقف الوحي، حتى الآن.

(١) وقائع الحركة الأولى

وعلى محور الحركة الأولى نطالع الدعوة الناشئة في مكة وهي في بدئها تبحث عن ملاذ وحلفاء وأتباع، وتمثَّل هذا البحث في سعي صاحب الدعوة إلى كسب الولاء لدعوته، بعرض نفسه

على شتى القبائل، وعلى المستوى الاستراتيجي كان أهم نقطتين يجب التركيز على حلف أحدهما يتمثل في مدينتين تقع كلتاهما على الخط التجاري الدولي الذي يمسك بعنان تجارة عالم ذلك الزمان. المدينة الأولى هي الطائف التي تقع على عصب طريق الشتاء اليمني، والثانية هي يثرب الواقعة عند عنق طريق الإيلاف الصيفي إلى الشام.

وبحكم المصالح التجارية المشتركة التي تربط أهل الطائف بالأرستقراطية التجارية المكية، رفضت الطائف عرض التحالف مع الدعوة الجديدة، وبالمنطق نفسه، منطق المصالح، قبلت يثرب حلف صاحب الدعوة، بعد أن دفعها إلى ذلك أمران:

الأول: أن قريشًا قد أسقطت يثرب من حسابات مكاسبها التجارية؛ نتيجة لضعف يثرب الشديد بعد مجموعة الحروب الأهلية التي دارت بين بطونها وأحلافها، حتى لم يعُدْ بإمكانها القيام بفعل مناسب على طريق الإيلاف الشامي للضغط على قريش؛ حتى تنال نصيبها من تلك المكاسب التجارية الهائلة. وقد رأت يثرب أن التحالف مع صاحب الدعوة هو الفرصة المثالية للوقوف ندًّا لمكة التجارية، بل وتشكيل تهديد حقيقي تمثل في قمته في قطع الطريق التجاري تحت قيادة زعيم قرشي من قريش ذاتها، قريش مكة التي سبق وأهملت يثرب من معادلتها الاقتصادية.

أما الأمر الثاني الذي دفع يثرب إلى هذا التحالف أو ساعد عليه بالأحرى، هو خئولة النبي وآل هاشم في بني النجار من الخزرج اليثاربة، تلك الرابطة القرابية التي دعت الأخوال في يثرب إلى استقبال ابن رحمهم الهاشمي، وفتح مدينتهم له لتكون نواة الدولة وعاصمتها المقبلة. ولا يغيب علينا دور الإيمان العظيم لأهل يثرب بالدعوة الجديدة، وهو الإيمان الذي هيأهم له معاشرتهم لفكرة التوحيد الإلهي عبر أهلها من يهود يثرب، لكن ذلك تحديدًا كان سببًا في جعْل يثرب مدينة إشكالية؛ لوجود العنصر اليهودي بها؛ مما استدعى، في التعامل معها، تكتيكًا من نوع خاص، أراد به الله إعطاء الدرس الموضوعي للمؤمنين.

* * *

من نافلة القول التأكيد أن يهود يثرب إنما كانوا عربًا بكل معنى الكلمة، فقط كانوا يَدينون باليهودية. ومثلهم مثل بقية يهود الشتات كانوا ينتظرون نبيًّا من بني إسرائيل، يعيد لإسرائيل مجدها ويقيم لها دولتها الغابرة التي أنشأها داود وولده سليمان، على أن يكون هذا الآتي من نسل تلك الشجرة، وحين ظهوره سيمسح بالزيت المقدس مسيحًا ليقيم عمد دولته ويعيد بناء الهيكل الذي دمره طيطس الروماني عام ٧٠ ميلاديًّا.

وقبل ذلك بزمان عانت الدولة السليمانية من قوة جيرانها، فقد وجه الفرعون شيشنق لها أولى الضربات زمن رحبعام بن سليمان، ثم تبعه الآشوريون الذين قضوا على النصف الشمالي من دولة إسرائيل، لينهي الأمر نبوخذ نصر البابلي باحتلاله نصفها الجنوبي وسبي أهله. وهنا لم يبقَ أمام أنبياء شعب الرب سوى استمطار اللعنات على أعداء إسرائيل المتمثلين في حضارات المنطقة القديمة، والتنبؤ بانتقام سيقوم به الممسوح المسيح الآتي بعد أن يقيم دولة إسرائيل على أنقاض دول المحيط المعادي لها، ومن هنا كثرت نبوءات الكتاب المقدس بنبيٍّ آخِر الزمان الآتي من سجف الغيب.

وعندما ظهر النبي محمد ﷺ في مكة، أرسل إعلانه يدوِّي بين فيافي الجزيرة ليصل من يهمهم الأمر، يؤكد أنه نبوءة موسى وبشرى عيسى، وأنه أحمد النبي المنتظر. وتم دعم ذلك بقصة الذبح التي كاد يتعرض لها أبوه عبد الله لتتناغم مع قصة الذبح التي كاد يتعرض لها إسماعيل بن إبراهيم، حيث كان الذبح علامة على التواصل مع السماء. وقد تم تعويض ذلك الذبح في اليهودية بذبح شاة أو بذبح جزئي للطفل بجراحة الختان، التي أكدت التوراة أنها بصمة العقد الذي تم بين إبراهيم ونسله وبين الله، وبموجب هذا الختان/الختن/الختم تم توثيق العقد والوعد بوراثة النسل الإبراهيمي الإسرائيلي للأرض ما بين نهر مصر إلى نهر الفرات.

ولكن لأن شرط النبوة التوراتية أن تكون في بني إسرائيل، ولأن النبي محمد ﷺ ليس من بنى إسرائيل، فقد أمكن إيجاد الصلة مع الوعد بإرجاعه ليس إلى يعقوب المسمى بإسرائيل، لكن إلى الأب الخليل صاحب الوعد والعقد الأول، إلى إبراهيم نفسه. وحيث إن إسماعيل كان أول من اختتن قبل شقيقه إسحاق، أمكن القول بإمكان مجيء نبي آخر الزمان من الفرع الإسماعيلي، دون شرط اقتصاره على الفرع الإسرائيلي من نسل إبراهيم. وهكذا تم ربط صاحب الدعوة بالمشروع الإسرائيلي؛ ليكون محقق الوعد لكن عبر النسل الإسماعيلي. وهو الأمر الذي وعاه مؤرخونا الأوائل وعبروا عنه بهذا المعنى.

* * *

لا زلنا على محور الحركة الأولى التي حددت علاقة النص المقدس بواقع الأحداث التي أصبحت تاريخًا، إبان تواتر الوحي في مكة وقبل الهجرة إلى يثرب، في دفعات متتالية من الآي القرآني الكريم للتأثير في يهود يثرب؛ توطئةً لهم لقَبول دعوة النبي، بل وقبوله هو نفسه في يثرب. فجاءت آيات الكتاب الكريم تتحدث عن مكانة بني إسرائيل في التاريخ السياسي والديني للمنطقة، وكيف فضلهم الله على العالمين، مع تأكيدِ أن محمدًا إنما هو استمرار للنبوات المتوارثة في البيت

الإبراهيمي، مع تكرار لقصص أولئك الأنبياء منذ نوح وإبراهيم عبورًا على إسحاق ويعقوب والأسباط، وانتهاء بداود وسليمان وعيسى، باعتبارهم كانوا توطئة لخاتم النبوات. ومن جانبها كانت الأحاديث تؤكد أن محمدًا كان غرة بيضاء في جبين آدم تناقلتها أصلاب الأنبياء والطاهرين التي شخصت بميلاده.

ومن هنا جاءت الآيات تترى تؤكد ليهود يثرب الذين يترقبون (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) (المائدة: ٤٤)، (إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) (الصف: ٦). مع احترام واضح حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة وتوقيرها والإشارة إليها في الآيات، كذكر شعيرة اليهود المقدسة التي كانوا يحملون بموجبها تابوتًا يعتقدون أن ربهم يرقد بداخله، وجاء ذكر هذا التابوت في الآيات: (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (البقرة: ٢٤٨)، أو مثل كتابة الله للتوراة (بإصبعه فيما تقول التوراة) على ألواح الشريعة: (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً) (الأعراف: ١٤٥). ثم تلا ذلك الموقف العملي للنبي عند حلوله كريمًا على يثرب لتستنير به وتحمل اسم مدينة الرسول المنورة؛ فقد استقبل مع أتباعه قبلة اليهود في الصلاة، بل وصام معهم يوم كيبور/الغفران/يوم غرق المصريين وخروج بني إسرائيل من مصر، ثم عقد الصحيفة مع يهود يثرب للتعاون والدفاع المشترك، مع كفالة تامة لحرية الاعتقاد، وإعلان عدم التناقض العقدي بين ديانة يهود وبين ما جاء به محمد، وهو ما تنطق به آيات كثيرة من قَبيل: (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ) (البقرة: ٩١)، (وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) (البقرة: ١٢). وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب لونًا من ممكنات مستقبلية تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، لكنهم أبدًا لم يروا في محمد النبي الإسرائيلي المنتظر، بينما كانت خطوات النبي تلك تسجل على الجانب الآخر تباعدًا مؤقتًا عن أهل مكة؛ في إنذار واضح لقريش كي تغير موقفها وتستمع إلى التاريخ وهو يحث خطاه نحو تغير التكتيك من أجل سيادة عربية بقيادة قرشية مقبلة.

* * *

وبمرور الوقت لم يبقَ وداد الود على حاله؛ فقد استمر يهود يثرب يهود دون اندماج كامل يضمن لدولة المدينة تماسكها، ثم تأتي غزوة بدر الكبرى لتضع بيد المسلمين القوة المادية سلاحًا ومالًا، وتمنحهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، وهكذا آذن فجر الأيام البدرية بمغرب مرحلة آن لها أن تغرب. وأخذت آيات القرآن تترى تحمل روح سياسة جديدة، تنسخ ما قد سلف من حرية اعتقاد سُمح بها في ظرفها، آتية بجديد يوطئ لخلاص يثرب الكلام لدولة الإسلام؛ لأن الدين قد أصبح

عند الله فقط هو الإسلام: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران: ١٩)، (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) (آل عمران: ٨٥).

وأخذت الجفوة في الاتساع لتتحول إلى عداء جَهير صحِبته معارك طاحنة انتهت بخروج يهود من يثرب نهائيًّا، مع إيضاح جديد تحيطنا به الآيات علمًا في قولها: (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) (النساء: ٤٦). (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) (البقرة: ٧٥)، ناهيك عن تقرير القرآن أن القائلين بأن الله ثالث ثلاثة قد كفروا، قد صحبته معلومة لم تكن معلومة بالتوراة، وهي أن يهود تقول عن الله الذي لم يلد ولم يولد إنه قد أنجب عُزيرًا ابن الله.

هكذا كانت حسابات الجدل المتفاعل بين صدق الواقع وبين الوحي الصادق الذي طابق الواقع وتحرك معه في درس عظيم من البرمجة والتخطيط، بدأ على أمر وانتهى إلى أمر، وقفت بعده دولة الرسول موحدة شامخة بعد الخلاص المنكر الإيماني الحي لدعوة الرسول، يهود يثرب.

لكن ما علاقة كل هذا بسؤالنا التأسيسي عن أزمة مؤرقة بين ما يمليه الاعتقاد وبين همومنا القومية والوطنية؟ الإجابة رغم وضوحها فإنها سيبين فيها الخيط الأسود من الخيط الأبيض مع قراءة المحور الثاني للحركة، التي تبدأ من وفاة الرسول ﷺ وتوقُّف الوحي حتى الآن.

(٢) وقائع الحركة الثانية

عملًا بخطة الرسول ﷺ التي استنَّها بنفسه قبل رحيله إلى عالم البقاء، قامت الخلافة من بعده بحروب الفتوحات الكبرى التي انتهت بإدخال دول غير عربية تحت مظلة الدولة الناشطة، بل وتم استعراب سكان البلدان المفتوحة لغة وثقافة وعقيدة ومنهج حياة، فكان أن دخلت في ضفائر العروبة بلدان ذات حضارات عريقة، كان لها مواقف عدائية مع اليهود الغوابر، وتتلو في مقدسها مواقف تشين جذورها الحضارية وتقتلعهم منها، عبر الإيمان بكفر أصحاب تلك الحضارات من أجداد كانوا لنا عنوان الفخار، مع وجوب الإيمان بصدق الآخر الإسرائيلي وتبجيله إزاء الوطني العريق. خاصة مع مرور زمان تمكن فيه يهود العالم من إقامة مجد داود وسليمان في أورشليم مرة أخرى باقتطاع أرض عربية من أهلها لصالح شعب الرب والدولة الموعودة بالكتاب المقدس.

لقد كان الموقف قبل انجلائه في بدر، يسعى لتأكيد العلاقة مع التوراة وأصحابها، بسرد القصص التوراتية في آيات قرآنية تؤكد صدق نبوة النبي ليهود يثرب، وضمن تلك القصص تم تكفير حضارة مصر ممثلة في قوم فرعون الذين أجرموا في حق بني إسرائيل؛ فغرقوا عقابًا واستحقاقًا، كما انتصرت الآيات للملك داود الإسرائيلي وهو يقتل جالوت الفلسطيني ويقيم على

أنقاض الفلسطينيين دولة إسرائيل، ثم تم الوقوف من حضارة العراق القديم ذاتَ الموقف؛ لأن ملكها النمرود جادل إبراهيم أرومة العبريين في أمر ربه؛ فاستحق هو وإلهه دمار برج بابل والعذاب.

السؤال الملحاح لا يتحرج ولا يتراجع عن الاجتزاء الحر يتساءل: ألا يكفر هذا الموقف فينا نصف هويتنا إن لم يكن معظمها، ويكفر الأسلاف والتاريخ، ويقطع مع الماضي، ويفقدنا الذاكرة الوطنية؟ وإذا كانت خطة الوحي قد استدعت نسخ مصالحة يهود وكل ما ارتبط بها من آيات، لكن الحكمة الإلهية لصالح الموقف الجديد المعادي لليهود، لم تُدخل ضمن خطة النسخ بقية البنود المرافقة لقصص مثل قصص فرعون وجالوت ونمرود، لكن ألا يشرخ ذلك في الذات القومية تجاه الآخر المعادي المتفوق المحتل؟

فكيف نحل هذه الإشكالية دون أن نستهين بأي عنصر في ديننا الحنيف الجليل، ودون أن نفقد تواصلنا مع أصولنا الحضارية التي تشكل هويتنا؟

لا أتصور حلًّا يليق بجلال الوحي وتوقيره سوى إعادة قراءته غير منزوع من سياقه مرتبطًا بواقعه وأحداثه؛ لنعلم حكمة السبب؛ حتى لا يتصادم الإيمان مع العزة الوطنية بأسلافنا العظماء، ولا يتضارب الوطني مع القومي، ولا يتناقض القومي مع الإيماني.

وهذا النوع من القراءة هو وحده الكفيل الآن برفع الالتباس في علاقة الإيماني بالقومي، أو ما يمكن تسميته فك اشتباك، ومن جانب آخر يحقق مصلحة ضرورية هي رفع الانتهازية والاستخدام النفعي للدين ونصوصه حسب مصالح ذوي النفوذ، فنحارب إسرائيل بآيات ونصالحها بآيات، ونبني الاشتراكية بآيات ونفتح المجتمع الحر على السوق بآيات، وبحيث يظل النص القرآني في مكانه اللائق من ثقافتنا، دون مصادمات تفرز الأسئلة الصعبة، وربما نكون قد أصبنا، وربما نكون قد أخطأنا، لكنا نحاول لوجه مصر ولوجه الله، ما نبغي سوى الفهم، وهو مطلب إنساني طبيعي.

الفصل التاسع

الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة

الإيمان هو التسليم والقبول والتصديق بموضوعات لا تخضع للدرس والنظر العقلي أو التجريبي، فهو تسليم بغيب أخبر عنه صاحب الدعوة، وهذا التصديق يُعَد مقياسًا للالتزام بالديانة من عدمه، وصلاح الإيمان من فساده. ونموذج ذلك في الإسلام ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو ما ورد في شكل أحاديث منسوبة للنبي محمد ﷺ، مثل التسليم والإيمان بوجود إله كامل مفارق للمادة خالد أزلي أبدي، وبرسالات سبقت دعوة نبي الإسلام، وبآيات إعجازية كبرى حملها الأنبياء والرسل كدلالة صدق تكسر قوانين الطبيعة؛ لأنها لا تخضع لنواميس العقل ومنظومته وقواعده، ومثل التسليم بوجود كائنات مجنحة نورانية تسكن السماء وتحف بعرش الإله ويحمل ثمانية منها ذلك العرش، كل تلك وغيرها كثير من الغيبيات هي من شروط الإيمان، هي موضوعات لا تقبل البحث والبرهنة عليها، ومناقشتها من الأمور غير الممكنة؛ لذلك هي محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو رفض، فإن صدَّقتها دخلت في زمرة أتباعه لتسليمك بها إيمانًا بصدق المبلِّغ بها والداعي إليها، وإن رفضتها لا تدخل في زمرة هؤلاء. هي موضوعات محلها القلب والوجدان والضمير الداخلي، هي محل قبول أو رفض، يصلح دومًا عرضها على الناس الأمس واليوم وغدًا، وتصح الدعوة إليها في أي مكان؛ لأنها لا تطلب سوى التصديق القلبي والإيجاب والتسليم والانقياد، بإيجاز: هي قابلة للعرض على الناس في كل مكان وزمان.

ومثل تلك الغيبيات موضوع الإيمان يمكنك أن تجدها في أي كتاب مقدس في أي دين؛ لذلك سُمي دينًا، ومثل هذا المقدس في أي عقيدة، أمر يعتقد أتباعه ومن آمنوا به أنه صالح دومًا وأبدًا لكل مكان ولكل زمان. ومثل هؤلاء جميعًا يعتقد المسلمون أن القرآن الكريم صالح لكل مكان وكل زمان؛ باعتباره كلمة الخالق الأزلي المبدع التي لا تقبل تبديلًا. لكن ذلك لم يمنع المدارس العلمية من مناقشة الكتب المقدسة والتعاطي معها بالعقل وقوانينه وبمنهج العلم وشروطه، حتى أصبحت مدارس نقد الكتب المقدسة مرجعًا لا غنَى عنه اليوم في جامعات العالم، خاصة المتقدم، للباحثين في شتى التخصصات، سواء على مستوى درس البعد التاريخي للنصوص أو أصولها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

ورغم أن القاعدة تفترض صلاحية النصوص المقدسة لكل مكان وزمان بذاتها وبمحتواها وقوتها الذاتية؛ فإن التقدم العلمي الهائل والمتسارع، إضافة إلى التطور الاجتماعي والسياسي الذي

شهدته المجتمعات الإنسانية، أوجد مساحة ضخمة بين ثقافة ثابتة وتصلح رغم ثباتها لكل المتغيرات، وبين ما يحدث في واقع الحال فعلًا من تباعد واضح من جانب منهج التفكير العلمي عن تلك الثقافة الثابتة، بل أصبحت فكرة الثقافة الثابتة الصالحة دومًا فكرة خارجة عن مفاهيم العلم وشروطه وعن قوانين العقل ومنظومته.

من هنا قام المفكرون المنتمون لهذا الدين أو ذاك بمحاولات التقريب بين النصوص المقدسة وبين ما أفرزه ذلك الحراك الإنساني المستمر والمتسارع؛ من قواعد ومفاهيم ومعارف جديدة تمامًا لم تكن معروفة زمنَ تدوين ذلك المقدس. وهو بالتحديد ما حدث مع الكتابَين المقدسَين التوراة والأناجيل، تحت عنوان مدرسي هو: مدارس نقد الكتاب المقدس Bibel. والواضح لدى الجميع أن الاتجاه الكهنوتي المُصر على الثبات قد سجل مجموعة عظيمة من التراجعات أمام التقدم العلمي الهائل، كما لوحظ تحول هؤلاء عن العنف إلى التراجع السلمي، بعدما رسَّخت مفاهيم الحريات خاصة مبدأ حرية الاعتقاد، بل وبدأت هذه التراجعات بمبادرات من رجال الكهنوت أنفسهم، بعدما بدأ الأمر في فجر العلم التجريبي صراعًا دمويًّا عظيمًا أدى إلى سفك دماء البشر أنهارًا مع أول بادرة نقد أو خلاف كانت تظهر.

(١) الإسلام دين الحراك

لكن الحال مع الدين الإسلامي يختلف اختلافًا بيِّنًا، حيث بدأت محاولات التوفيق بين العقل والنقل مبكرة جدًّا في مدارس العرب، وأدت إلى نشوء فرق فلسفية تم تصنيفها جميعًا تحت عنوان مدرسي واحد لعلم جديد هو «علم الكلام». ونادرًا ما أُهدِرت دماء مسلم لاختلاف حول أمر من شئون المقدس، قد أرست مدارس علم الكلام أقدامها بثبات منذ فجر الدولة الإسلامية، مما فتح أبواب الاجتهاد على مصراعيها، حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترجيح حكم العقل إذا تعارض أو اختلف مع نص. وكانت تلك المدارس — والمناخ السائد الذي أدى إلى طمأنينة وسلام أفرزها — رحمة بالمسلمين، إذ تم إرساء حق الاختلاف حول أمور الدين مبكرًا، بحسبان الإسلام تحديدًا ملك جميع المسلمين وليس فيه أية سلطة كهنوتية تفرض رأيًا بعينه في فهم النص دون فهم آخر، ومن ثم فقد أمسى راسخًا لكل مسلم واعٍ واجب الاعتراف بحق تعدد الأفهام حول النصوص، وأصبح هذا الحق متاحًا للجميع على اختلاف مذاهبهم ومعارفهم.

وإذا كان ضمن عناصر المقدس موضوعات لا تقبل المناقشة هي الغيبيات، فإنه يحتوي ما يتعلق بالشرائع ومعاش الناس ومصالحهم، وهو الجانب الذي نصر على أن نطرح بشأنه أسئلتنا الأخرى، مع الابتعاد عن مناقشة الغيبيات، رغم أن مناقشة الغيبيات ذاتها ليست ممنوعة ولا هي

مناطق محرمة، ولم يتوقف الباحثون المسلمون الأوائل عند الجانب المتغير بتغير الزمان والمكان، وهو الجانب الحقوقي في الشرائع، بل تجاوزوا ذلك إلى بحث موضوعات الإيمان الغيبية، بل وتم بحث ودرس ومناقشة وجدل واختلاف عظيم حول أمور بحثية هي من الغيب المطلق، مثل ذات الله وصفاته، وهل هي حقيقية أم مجازية؟ وهل القرآن مخلوق محدَث أم قديم أزلي؟ لكن ذلك كان زمن القوة والاقتدار، زمن العزة والوثوق بالذات، عندما كانت الأمة عفيَّة صبية قوية لا تخشى على ذاتها من حرية البحث بل وحرية الاعتقاد. لكننا نسمع اليوم كلامًا غير الكلام، ودعوة للعودة إلى سلف دون سلف، وإلى موقف منتقًى دون آخر، كما لو كان أسلافنا من باحثين عقلانيين ليسوا ضمن هؤلاء الأسلاف، رغم أنهم كانوا دومًا مصدر اعتزازنا وفخارنا. ونرى مواقف آنية تشير إلى حالة مستعصية من الخصاء الذهني المشتبك مع ذهان عقلي واضح، تُسفك بموجَبها دماء بريئة باسم الدين والقرآن، ويحاكَم الناس على رأي أو قول، بل ويحاكَمون في الأغلب على ضميرهم ونواياهم. ويصدر الأمر بالتنفيذ!

ولعل السبب الواضح هو حالة الانحطاط والتردي التي وصلنا إليها بين أمم العالمين، فكان رد الفعل هو التمسك الشديد بالذات، وبعدما فقد الإنسان علاقة الأمان مع الوطن تحولت الهوية من الوطن إلى الدين، من باب تجميع أكبر حشد من الأنصار والمؤيدين خارج إطار حدود الوطن. وتحولت تلك الهوية الدينية نحو المفهوم القبلي، وحيث نتحدث عن بشر دون الحديث عن حدود وطنية، فنحن نتحدث عن منظومة قبلية؛ فالقبيلة وحدها هي التي تتحرك باستمرار ولا تعرف أية حدود، وبالتالي ليس لها وطن بعينه؛ لذلك استبدلت من فجرها مفهوم الوطن بمفهوم الحِمى الذي يتحرك معها أينما تحركت، مفهومًا معنويًّا وليس ماديًّا، يرمز له سلف القبيلة البعيد وسيدها القديم الذي عادةً ما يكون هو ربها الضامن عزتَها وتماسكها اللزج الضروري إزاء تحركها الدائب وغير المستقر. لذلك كان استبعاد الوطن كهوية والإبقاء على الدين وحده يحيل بالضرورة إلى الشكل القبلي والفهم القبلي لتجميع الأمة متعددة الأوطان في قبيلة واحدة، يكون الخروج عليها إضعافًا لها، وبقوانين القبيلة العتيدة القديمة يكون هذا الخروج جريمة تستوجب التصفية والاستبعاد من دنيا الأحياء، والمشكلة تكمن في تكييف شكل هذا الخروج، ولأنه عادة ما يتم تكييفه قانونيًّا، فإنه يكون عرضة للتطرف في الفهم والحكم، ويصبح أي قول أو مناقشة مدعاة لنعته بالخروج، وبالتالي للحكم والتنفيذ.

(٢) الشخصية الثقافية الثابتة

وقد اتخذ التمسك بالهوية خشية الذوبان في الآخر المتفوق وثقافته شكل الشخصية الثقافية

القديمة الثابتة المقدسة، لنكون شعبًا مقدسًا يتحد بالله القوي، ألسنا خير أمة أُخرجت للناس؟ وبذلك يمكن مواجهة الآخر القوي وثقافته المتغيرة دومًا بثقافة لا تتغير أبدًا.

ولأن العلم المتقدم بكل منتجاته وكشوفه واختراعاته المبهرة قد ساعد الدول التي تم تصنيفها معادية، بل معادية للإسلام تحديدًا، فقد تحول هذا العلم في نظر أصحاب الرؤية الثابتة إلى شيطان مَريد مقتدر يساعد الآخر على التفوق؛ كراهيةً في الإسلام. ومن هنا كان المزيد من التمسك بالشخصية الثابتة والهوية الدينية لإقامة حزب الله في مواجهة حزب الشيطان أو حلف العلم، ولأن الواضح والظاهر أن حزب الشيطان هو المتفوق حتى الآن، فإن النبوءة هي أن حزب الله هو الغالب بالتأكيد، مع محاولة استيهامية مريضة تؤكد دومًا أنه حتى هذا العلم قد تمت معرفته لدينا قبلهم عبر معرفة ربنا بكل تلك العلوم قبل أن يكتشفها العلم الغربي، وأنها محفوظة في كتاب الله من الأزل.

وإعمالًا لذلك قررنا الوقوف عند لحظة زمكانية، زمنها هو لحظة تواصل السماء مع الأرض منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا، ومكانها بلاد الحجاز من جزيرة العرب. وتم تثبيت كل الزمن الماضي والزمن الحالي والزمن الآتي عند تلك اللحظة؛ لنتجاوز التخلف الحالي بتفوق قديم تمثَّل في ذلك الدين القويم الذي أقام للعرب دينًا ودولة ودنيا وإمبراطورية سامقة. غير مدركين أن الدنيا بعد تلك اللحظة قد تحركت تحركًا هائلًا وعظيمًا. ودون أن ندرك أن ذلك التفوق القديم كان قياسًا على زمنه وعصره، وأن الوقوف عند كل تفاصيله الدقيقة وتثبيتها ثقافةً لليوم؛ هو التخلف ذاته. ولا نرى أن موقفنا اليوم من التغير والحركة مع المتغيرات هو ذات موقفِ مَن عارضوا الدعوة الإسلامية في فجرها وقالوا: هذا ما وجدنا عليه آباءنا. وغير مكترثين بالتناقض الصارخ بين القول بثقافة ثابتة وبين الموقف الواجب اتخاذه لصلاح حالنا الراهن، كما تتناقض مع رغبة دفينة في التغير وملاحقة الزمن، نبغي تطويع الكون المتغير لثقافتنا الثابتة بتأكيد أن أي تغيير يطرأ يوافق بتمامه وكماله ما نعلمه من موقعنا الثابت وثقافتنا التي وُضعت من الأزل في لوح محفوظ؛ لتوافق كل تغير ممكن حتى نهاية العالم.

ومن ثم لم نعد نفهم درس التغير الذي كان هو درس الإسلام الأول، ولم نعد نعي ما وعاه المسلمون الأوائل، بل لم نعد نقرأ ثقافتنا قراءة واعية، ناهيك عن الثقافة العالمية. وحوَّلنا ثقافتنا من ثقافة إلى تمائم وتعاويذ سحرية ندعو بها على الأعداء كما ندعو بها المطر إلى السقوط. ويمكن ببعض الأداء الطقوسي الرمزي استدعاءُ ملائكتها ومعجزاتها وكل كائناتها الغيبية لتحارب لنا معركتنا وتفعل فعلها في الواقع، دون أن نبذل من جهد أكثر من مسواك ومسبحة وسجادة وترتيل وتنفيذ الأوامر في السلوكيات. وبهذا يمكن لقوى السماء أن تدمر لنا الآخر المتفوق، وكُفي المؤمنون القتال، وهو غاية المراد من رب العباد.

إلا أن الواضح الظاهر الجلي أنه لا هذا ولا ذاك يحدث، وكل ما يحدث هو تفوق المتفوق، ومزيد من الهبوط والانحطاط والتردي على جانبنا. مع استهتار واضح بالمقدس ذاته بتثبيته عند تلك اللحظة التاريخية وتجميده في قوالب ثابتة ومفاهيم محددة لدى السلف، كما لو كنا لا نملك عقولًا كما كانوا يملكون، ناهيك عما وصلنا إليه من انهيار شبه تام أصاب حياتنا ومعاشنا وفق تصورِ أننا نملك الحقيقة الكاملة والمطلقة والثابتة.

الفصل العاشر

حول ما هو أهم من تصريحات «الأب الروحي» المشهور!

عراب مافيا الإسلام السياسي الأستاذ «مصطفى مشهور» ألقى القفاز في وجه الدولة المدنية، وقذف بالكرة إلى ملعب دنيا المتنورين، فأقام الدنيا ولم يقعدها، رغم أن الرجل كان صريحًا واضحًا بسيطًا صادقًا مع نفسه ومع ما يعتقد ومع أهداف جماعته المعلنة، ومع الأيديولوجيا الشمولية التي ينتمي إليها. فلم يكذب ولم يدلس ولم يلتوِ، إنما قال ما يؤمن به سافرًا فاضحًا، حيث قال — فض فوه — في حوار صحفي: إن جماعته تطلب تحصيل الجزية من أقباط مصر مع استبعادهم من الجيش تحسبًا لخيانتهم للوطن. الرجل لفق على المسيحيين؟ نعم، لكنه لم يلفق فيما يعتقد ولم يقف في مناطق الوسطية الانتهازية النفعية المائعة وقال كلمته بشجاعة جسور.

والغريب في الأمر جميعه أن الهجوم تعامل مع الرجل كما لو كان قد قال فرية أو جديدًا لا نعلمه، كل ما في الأمر أنه نفخ الرماد الهش الذي يخفي تحته الجمار الملتهب، ونحن نأنس للرماد لأنه يساعد على إخفاء الحقائق والتناسي. ونسيان يلقيه من يزعمون التقدمية والتنوير على لهب لا يجرءون على الاقتراب منه؛ لأنهم يحذرون المناطق الملغومة، بل ويرتعبون من مجرد مساندة من يقتربون منها حقًّا ويحترقون بها صدقًا، بمنهج علمي واعٍ رصين وبروح وطنية فدائية لا تعرف تعدد الألوان حسب المصالح والهوى. إن هؤلاء البعض الذين هاجوا وماجوا وأرغوا وأزبدوا هم أكثر زيفًا من كل إفك وتلفيق، فهم يريدون الأمور على هواهم، ولا يريدون ريحًا مفاجئة تطفئ شموع طرقهم السرية في تحالفات مصلحية مقيتة.

نعم ربما صفق هؤلاء المستنيرون لباحث عاشق حقيقي لوطنه تئن كبده وتنزف روحه ولهًا عليه، بمنطق التصفيق للفدائي أو الجندي المجهول، لكنهم في الوقت ذاته يصمتون صمت القبور ويكمنون كمون البوم إزاء أبحاث صادقة حقيقية رفيعة علمية هادئة لا تبغي نفعًا سوى وجه هذا الوطن، تخوض عش الثعابين وتصارع بروح قتالية عالية وفدائية نادرة. تؤمن بهذا الوطن وتحب هذا الوطن وتتعشقه حتى الموت فرحًا باختلاط دمائها بثراه. ويكتفي المستنيرون الكبار بإعلان الإعجاب بهذه الأبحاث العلمية في ندوات ديوانية جانبية وجلسات ثقافية بيتية، وعادةً ما يكون الإعجاب أقرب إلى الهمس؛ لأن الصوت المسموع يضر بالمصالح والتوازنات وألعاب السياسة البهلوانية، ولأنه قد يودي بالحياة وهم يحبون الحياة حبًّا جمًّا. وإذا اضطروا لإبداء الرأي إزاء هؤلاء الباحثين المهمشين عمدًا، المعتَم على أعمالهم قصدًا، فإنهم عادة ما يسلكون سلوك العاقل

الرصين المتزن الثقيل، فيقولون أقوالًا مرسلة لا هي مع ولا هي ضد، أما بعضهم من أنصار تحالف المستنيرين مع عقلاء الفكر الديني، فإنهم عادة ما يشجبون، وربما باعوا تلك القلة النادرة والفذة من مفكري مصر المخلصين مع أول صفقة سلطانية؛ ليُذبحوا وتُهدر دماؤهم أو يُنفَوا من بلادهم، ولا بأس أثناء ذلك من بعض التمثيليات المبتذلة التي تشجب وتُدين الإرهاب الفكري، ويعود الجميع بما غنموا من عزاء واجب وما دايم إلا وجه الله.

وهؤلاء ذاتهم مَن شرعوا كل سيوفهم العنترية وتنابذوا بالأقلام عندما أعلن مشهور ما يعلمونه جميعا يقينًا، ويغمضون عنه العيون، وتتبلد أفهامهم إزاءه بجبن رخيص، وتتم المتاجرة بالوطن هنا وبالله هناك. ناهيك عن السماسرة المقتدرين من رجال شئون التقديس المحترفين على الجانبَين الإسلامي والمسيحي، الذين يميِّعون كل المواقف بلثم لِحَى بعضهم بعضًا في تظاهرات إعلامية مقيتة ورخيصة و«يدفنوه سوا» وسرًّا، وهو أشد فتكًا بالوطن من النفايات النووية، تحت غبار هش لا يصمد مع أول نفخة، وهو ما تكرم «مشهور» بعمله ببساطة، وبكل بساطة، ودون أن يرتكب إثمًا دينيًّا، بل ولا حتى وطنيًّا. ألا ينص دستورنا التليد الخليط بكل أنواع السلطة؛ إسلامية على اشتراكية على ليبرالية على سمك على لبن على تمر هندي، عملًا بالشعار الرفيع والأسمى: كله عند العرب صابون! ألا ينص الدستور أن لدولتنا المدنية دينًا رسميًّا هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع؟ فأين أخطأ الرجل؟

لقد بحَّ صوتنا حول هذا الأمر لكن لا حياة لمن تنادي، ولأن هذا الكلام ليس أوانه، ولأنه خوض في محظور خطر، رغم أنهم يعلمون يقينًا أنه إذا فات أوان اليوم، ونحن على هذه الحال، فلن يكون لنا بعد ذلك أوان.

وعصبة الإخوان أقوياء بضعف موقف هؤلاء السادة وحذرهم الشديد أمام التابوهات. وجميع فصائل الإسلام السياسي تعلنها صريحة أن ما يفعلونه ليس ناتج فكرة أو آرائهم الشخصية، إنما هو تنفيذ لأوامر إلهية صريحة واتباع لسنة فعلية وقولية صريحة، حتى القتلة الإرهابيون منهم يستندون إلى نصوص لا تقبل لبسًا، ومع ذلك لا يجد مشايخ السلطة أي بأس من الكذب والتدليس في تلفازنا المبارك، أسكت الله له حسًّا، فيلجئون إلى منهج انتقائي باطل من النصوص للرد على نصوص الإرهابيين، رغم أنهم يعلمون بحسب علوم القرآن، ومن أبواب النسخ، أن آية السيف قد نسَخت كل آيات حرية الاعتقاد، والناس جميعًا تعرف ذلك، ومع كل هذا يجلس مشايخ السلطنة يلفقون، رغم أن الكل يعرفون، وتستمر التمثيليات العبثية دون قلم جريء مجتهد واحد يطلب مثلًا إعادة النظر في مفاهيم النصوص ذاتها بما يتفق وظرفنا وزماننا، حتى إننا لم نقترب حتى اليوم من نصوص الرق والسبايا والعبودية إطلاقًا، ولا حتى طالبنا مجمعًا دينيًّا بإصدار ما يفيد بإيقاف العمل بأحكامها؛ قياسًا على اجتهادات جريئة أخرى مماثلة سبقتنا. فأي كارثة نعيش أيها السادة؟

وفي الحوار الذي سبب الأزمة مع عرَّاب الإخوان، يقول الصحفي المحاور «خالد داود» إن «مشهور» لم يكفَّ عن ترديد أنه لا يقول قول جماعة ولا يرفع مجرد شعار ورأي خاص ولا قول مشهور، إنما هو يتحدث عن نصوص صريحة في القرآن وفي السنة وفي الشريعة، وأن الجزية جزء أصيل في شريعة الإسلام. لكن حول هذا الجزء الأصيل لم يتكلم أحد من عناترنا، بل كأنهم لم يسمعوه أو يقرءوه، ولم ينطق أحد، وتغابت عنه جميع الأفهام، ووجهوا نحو الرجل، دون الأصل، كل إداناتهم. فأثبت المهاجمون للرجل أنهم دونه شجاعةً وأكثر مداورةً وأشد التفافًا حول الحقائق. وقد عبر الصحفي «خالد داود» عن ذلك بقوله: «إن هذا قول كافٍ لزرع الخوف والرعب في قلب أي محاور؛ لأنه ببساطة يوجه الحديث إلى مناقشة أمور عقيدية.» والمطلوب بنفس البساطة التغافل عن ذلك والتعامي عنه وعدم المناقشة.

وهذا طبعًا لا يعني صدقًا حقيقيًّا في المواقف المعلومة للأب الروحي وعصابته المشهورة؛ فهو في ذات الوقت الذي طلب فيه تطهير الجيش من المسيحيين، أكد بكل كذب مفضوح وتلفيق أشر أن المسيحيين يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية هكذا! وبغض النظر عن هذه الصورة الكاريكاتورية، فإنه حتى هذا الكذب له مسوغاته من زمن الرعيل الإسلامي الأول وزمن الصحابة وأيام تدوين الأحاديث، فهو الكذب المستحب، بالضبط كالأحاديث النبوية المكذوبة لكنها المستحبة ... وإنها رغم كذبها فهي في سبيل الله ... وإن مثل هذا الكذب الشرعي ليس جديدًا؛ فقد أسس له أبو ديانات المنطقة وأبو أنبيائها سلفًا عن خلف، عندما كذب ثلاث كذبات توصف بأنها جميعًا «في الله»، وذلك عندما ادعى السقم، وعندما قال: فعلها كبيرهم هذا، وعندما قال لملك مصر عن سارة زوجته: «هي أختي.» فحتى الكذب عند السيد مشهور ولو كان مضحكًا، فهو كذب شرعي مشهور لم يناقض الرجل فيه نفسه ولا تاريخ منظومته.

أما المستنيرون الأعلام المنتشرون فكانوا هم أهل المداورة والالتفاف والكذب البواح الصُّراح، يمسكون كل شيء من منتصف ليميلوا مع ثِقَل أحد الطرفين حسب المستجدات من ظروف ومتغيرات؛ لذلك لم يقترب أحد ممن حدثونا من جوهر وسر الداء الدفين، ومناقشة الأصول دون الفروع. كل الكلام كان عن زمان وكان ياما كان من حب ولهيب مشتعل من الغرام بين المسلمين والأقباط، ولطالما عانق الهلال الصليب، وكلنا حلوين وكلنا طعمين، رغم ما يغص به تاريخ مصر من ألوان اضطهاد رسمي وشعبي على مر التاريخ حتى الآن. بل لقد تم إسقاط ما يقرب من ألف عام من تاريخ مصر؛ لأن شقها الأول كان ثورة قبطية ضد الرومان لا تشغلنا كما لو كان المسلمون غير مصريين، وهو منطق بشع يؤصل دومًا لفكرة غزو عربي طويل الأمد، طالما لم ينشغل المسلم بتاريخ وطنه وتركه للأقباط. أما الشق الآخر من تلك المدة الطويلة المنسية، فقد كان ثورة مصرية ضد الغزو العربي مُسحت أيضًا مسحًا من تاريخنا؛ لأنها قبطية، كما لو كنا لسنا بدورنا أقباطًا، أعني مصريين!

هؤلاء السادة لم نسمع لهم صوتًا حول هذا الأمر — مثلًا أيضًا مجرد مثل — ولم يملكوا شجاعة العرَّاب المشهور على مواجهة الحقيقة؛ من أجل حسم كثير من الأمور التي تقف عثرة كبرى ومصدر خطر عظيم، لنعطي ما لله لله وما للوطن للوطن، وهو الأمر الذي نلح عليه ونقدم فيه جهودًا معلومة ولن نتنازل عنه، مهما ظل هؤلاء يشيحون عن المطلب الأساسي برعب غير خافٍ من الاقتراب من مواطن التحريمات والتكفيرات، حيث هناك الفزع الأكبر.

علينا أن نفتح كل نوافذ البحث الرصين على مأثورنا، ونعترف بما فيه ببساطة دون تأويلات مخلَّة لا تخدم الحاضر، وقد تضر بالدين نفسه، ولا بالانتقاء منه حسب المناسبات أحيانًا وحسب هوى السلاطين أحيانًا أخرى، والنموذج هنا من ذلك المأثور أن النبي ﷺ عندما قيل له في غزوة أحد عن استعداد حلفاء المسلمين من يهود يثرب للقتال في صفه قال: نحن لا نستعين بأهل الشرك على أهل الكفر. ورفض العرض، مشهور لم يخرج بذلك على ما يعتقد، لكن المطلوب بعد الاعتراف إعادة نظر شاملة في فهم النصوص المقدسة، وفي أحكامها وفيما يجب اليومَ العملُ بحكمه بقانون مصلحة العباد الذي شرعته علوم الفقه ولم تجرِّمه، بل حضت عليه وحرَّضت، وما سبقنا إليه السابقون من مستنيرين منذ أزمان، حين قال أبو الفضل الأندلسي والسنون تردِّد صداه:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئًا ويرى للأوائل التقديما
إن هذا القديم كان جديدًا وسيغدو هذا الجديد قديمًا

الفصل الحادي عشر

تعقيب على لقاء نتانياهو بالمثقفين المصريين

ولا أقصد هنا التعقيب على الحوار أو على كل ما قال السيد نتانياهو، لكن فقط على فقرة واحدة قالها في هذا اللقاء، وأوردها الأستاذ عبد الستار الطويلة في عدد ٣/١٠ من روزاليوسف.

يقول الأستاذ عبد الستار: «وهو — أي نتانياهو — لا يعدم حجة يقلب فيها حقائق التاريخ، فهو يقول في براءة شديدة وهو يبرر احتلال يهودا والسامرة، كما أصر على تسمية الضفة الغربية بشكل مستمر طوال اللقاء: نحن لسنا الأمريكيين أو الفرنسيين الذين ذهبوا لاحتلال فيتنام والجزائر، هؤلاء غرباء عن الأرض والشعوب هناك، ولا حق لهم في ذلك، أما نحن فهذه الأرض هي أرضنا، والذي حدث أننا طُردنا منها ونريد استردادها.»

وكنا نظن أننا قد تجاوزنا هذا المنطق من حقبة الستينيات، لكن السيد نتانياهو بالتزامه العقدي الواضح والمعلن قد أعادنا مرة أخرى إلى تلك المنطقة من التاريخ بمنطق يدعي الحقوق المؤسسة على التاريخ.

لن أكرر هنا القول المأثور إن كان ذلك كذلك، وكان لا بد من إعادة الأراضي المسلوبة عبر التاريخ إلى أصحابها، فعلى العالم المتقدم الذي يأخذ بهذا المبدأ أن يعيد القارة الأمريكية إلى الهنود الحمر.

ولن أكرر هنا أن الحقوق الدينية لا تعطي حقوقًا في الأرض، وإلا كان للمسلم الأفغاني والصيني والإندونيسي حقوق في أراضي الحجاز، وهو ما لم يدَّعه مسلم عاقل أو رشيد.

ولن أكرر ما سبق وقلته في أعمالي المنشورة عن كون إسرائيليِّي اليوم أمرًا يختلف تمامًا عن بني إسرائيل التوراتيين، وإلا كان على السيد نتانياهو أن يقدم لنا أهم وثيقة تؤكد تلك الحقوق، وأنه وفق منطقه هو عليه أن يقدم لنا شهادة إثبات نسب تعود به رأسًا للنبي يعقوب المعروف بإسرائيل.

نعم نحن نعلم أن في الأزمنة الخوالي كانت هناك العقود المكتوبة بين أفراد مجتمعات الأمم المتحضرة لتؤكد الحقوق، أما القانون، كما في مصر القديمة، فقد كان للدنيا مثلًا، ولكنا نعلم من توراة السيد نتانياهو أن أولئك الذين ينتسب إليهم لم يكونوا ممن يفكون الخط، لذلك عمل يعقوب مع خاله الآرامي رجمة حجارة لتكون علامة شاهدة على عقدهما أسماها «يجر سهدوثا»، وأعطى

إبراهيم سبع نعاج لأبيمالك ملك جرار الفلسطيني، وزرع شجرة أثل عند بئر سبع (لذلك سميت كذلك) كي تكون شاهدة على عقده مع أبيمالك حول ملكية أحد الآبار — وليس شيئًا كالنيل مثلًا — أو بالنص التوراتي: «وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها، فقال أبيمالك لإبراهيم: ما هي هذه السبع نعاج التي أقمتها وحدها؟ فقال: إنك سبع نعاج تأخذ من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذا البئر، لذلك دُعي ذلك الموضع بئر سبع؛ لأنهما حلفا كلاهما هناك، فقطعَا ميثاقًا في بئر سبع ... وغرس إبراهيم أثلًا في بئر سبع» (سفر التكوين، ٢١: ٢٨–٣١).

وهو ذات الأمر الذي تكرر مرة أخرى مع أبيمالك الفلسطيني لكن البطل هذه المرة لم يكن إبراهيم بل ابنه إسحاق، وكان النزاع حول البئر التي سميت بئر سبع أي بئر القسم، القسم الذي أقسموه على عهد غير مكتوب، فهي تعني الرقم سبعة، كما تعني القسم أو الحلف (انظر: سفر التكوين، ٢٦: ٢٢–٢٣).

مجرد بئر كانت البداية، وحولها تناقضت رواية التوراة؛ مما يشير إلى بطلان القصة بكاملها من أول سرد لها بكتاب يُنعت بالمقدس.

نعم نحن نعلم أنهم لم يكونوا من بين الشعوب التي تعرف الكتابة حينذاك، حتى إن العهد الأعظم وهو المزعوم قد حدث على ذمة التوراة بين إبراهيم وبين الله ليأخذ أرض فلسطين من الله، كان بموجب عقد موثق مختوم بخاتم واضح، وكان أي ختم؟ وأي توثيق؟ كما تقول التوراة: «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم كلُّ ذكَر في لحم غرلتكم (أي في القضيب الذكري) فيكون علامة عهد بيني وبينكم» (التكوين، ١٧: ٩–١١).

وبالطبع ليست تلك هي الوثيقة التي نطلبها من السيد نتانياهو لتؤكد الحقوق التاريخية التي يدعيها، فلا هو يستطيع إبراز تلك الوثيقة للإعلام العالمي، ولا أي محكمة يمكنها أن تأخذ بهذه الوثيقة المعتمدة بختم الطهارة (بالطبع هي غير الطهارة الثورية). ناهيك عن أنه إذا كان هذا الختم وتلك الوثيقة إعلانًا عن امتلاك بئر سبع (البئر فقط وليس المدينة)، فلا شك أن المطالبين بحق الملكية وما يملكون من صكوك إثبات لن تكفيهم آبار الدنيا (لعلماء النفس رأي في تلك القصة، وهي عندهم تعبير عن الفعل الجنسي، فالقضيب معروف، والبئر رمز الفرج).

والغريب في أمر نتانياهو أنه يؤكد حقوقه اليوم في فلسطين اعتمادًا على حقوق الآباء الأولين وإقامتهم في فلسطين، رغم أن توراة السيد نتانياهو تؤكد وتعيد وتزيد أن أرومة العبريين إبراهيمَ ذاتَه كان غريبًا على أرض فلسطين، وهو الأمر الذي ظل يكرره أخلافه من بعده؛ مما يجعل كلام السيد نتانياهو غريبًا غرابتَهم على فلسطين. انظر معي يا سيد نتانياهو توراتك إذ تقول بلسان إبراهيم وأخلافه:

- (١) فخرجوا معًا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان (تكوين، ١١: ٣١).

أي إن القبيلة الإبراهيمية جاءت إلى فلسطين وافدة من أرض أخرى وبلاد أخرى، وقد أثبتنا في كتابنا «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول» أن أور الكلدانيين هذه تقع في بلاد أرمينيا الحالية ولا علاقة لها بالمنطقة.

- (٢) وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك (تكوين، ١٢: ١).

- (٣) أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها (تكوين، ١٥: ٧).

- (٤) لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان (تكوين، ١٧: ٧، ٨).

ولعل القارئ لاحظ — كما لا شك يعلم السيد نتانياهو يقينًا — أن التأكيد على غربة تلك القبيلة عن أرض كنعان تكاد تتكرر في كل إصحاح، نكتفي منها بتلك الأمثلة؛ لأن إحصاءها يحتاج صفحات طويلة من الملل.

وهكذا جاء السيد نتانياهو بافتراء واضح على التاريخ، بل على توراته ذاتها التي يعض عليها بالنواجذ. لقد وصل أسلافه قادمين من بلاد بعيدة غرباء على أرض كنعان. الرجل ذكي ومذاكر توراة كويس، سيرد علينا: نعم كان أهل الأرض كنعانيين وهم شعب سامي لا يمكن لأحدنا أن يدعيه لنفسه دون الآخر؛ لأن كلينا سامي، لكن لديك أيها السيد في توراتك ذاتها ما يشير بوضوح إلى أن الفلسطينيين قد سكنوا تلك الأرض قبل مجيء أجدادك إليها من أرمينيا أو من حيث ألقت، ولم يكن فقط سكانها الكنعانيون، لقد وصل إبراهيم وكانت تلك البلاد لا تسمى بلاد الكنعانيين رغم سكن الكنعانيين فيها، لكنها كانت تسمى أرض الفلسطينيين ... هكذا بوضوح فصيح تسميها التوراة أيها السيد المؤمن، وقد ورد ذلك في قصة طريفة لا تستحي التوراة من ذكرها؛ فلا حياء في الدين، والتوراة كما تعلمون أيها السيد لا تعرف الحياء.

كان إبراهيم جدك البعيد حسبما تزعم، وإن كنا في شك عظيم في ذلك لو ناقشناك، لكنا على يقين في عدم نسبتك إليه دون أن نناقشك، كان جدك هذا قد نزل مصر يستجدي القوت بعد مجاعة حلت ببلاد فلسطين، ونستمع معًا إلى تراتيل التوراة إذ تقول: «وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك؛ لأن الجوع في الأرض كان شديدًا. وحدث لما قرُب أن يدخل مصر أنه قال لسارای امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم

يقولون هذه امرأته؛ فيقتلونني ويستَبْقونكِ، قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببكِ وتحيا نفسي من أجلكِ (تكوين، ١٢: ١٠–١٣).

ثم نفهم من بقية الرواية أن ادعاء سارة الأخوة لإبراهيم لم يكن اتقاء إبراهيم للقتل، إنما لسبب آخر ترويه التوراة تذكرةً للعالمين؛ إذ تقول: «فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًّا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيرًا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُن وجِمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارای امرأة إبرام، فدعا فرعون إبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجالًا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له» (تكوين، ١٢: ١٠–٢٠).

سنفهم الآن المراد والمقصود عندما نعلم أن ذات الأمر قد تم تدبيره للملك أبيمالك، فنقرأ: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة» (تكوين، ٢٠: ١، ٢). وكانت النتيجة: «فأخذ أبيمالك غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته، وقال أبيمالك: هو ذا أرضي قدامك، اسكن في ما حسن في عينيك. وقال لسارة: إني قد أعطيت اك ألفًا من الفضة» (تكوين، ٢٠: ١٤–١٦). وتكررت القصة ذاتها مع ولده إسحاق بحذافيرها، لكن لنسمع هنا القول: «فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين، إلى جرار» (تكوين، ٢٦: ٢). التوراة هنا تنتهي إلى تعريف أبيمالك بأنه ملك الفلسطينيين، لقد كان الفلسطينيون قد استقروا في الأرض وأقاموا فيها ممالك أدت بالنبي صفنيا إلى مناداتها في سفره: «يا كنعان يا أرض الفلسطينيين» (صفنيا، ٢: ٥). حيث هناك زعمٌ تروِّجه جامعات العالم يقول: إن الفلسطينيين — أو كما ذكرهم التاريخ «البلست» — قد قدموا من كريت إلى فلسطين، فحتى لو كان ذلك هو الحادث تاريخيًّا، فإن التوراة تقول بمجيء أرومة العبريين إلى بلاد كنعان، وقد عُرفت باسم أرض الفلسطينيين، لقد كان البلست قد أقاموا في فلسطين زمنًا كافيًا قبل ذلك ليمنحها اسم الفلسطينيين.

ومع منظومة أخلاقية كتلك المنظومة التي حدثتنا عنها التوراة، لا يكون هناك مجال للقول بنقاء الجنس الإسرائيلي مع هذه البداية التي لا تبشر بخير، ناهيك عن كون هذا النقاء الجنسي ظلمًا لطبيعة الإنسان؛ فمن المستحيل أن تقنعنا بنقاء هذا السلسال خلال ألوف السنين، وأن البذرة الإسرائيلية ظلت تتناقل في أرحام الطاهرات حتى وصلت يهود اليوم؛ لأنه من جانب آخر هناك مغالطة تتم بموجبها المطابقة بين مفهوم الدين اليهودي وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلي، بحيث يبدو وفق تلك المغالطة أن يهوديِّي الفلاشا الزنجي ويهوديِّي روسيا الأحمر ويهوديِّي المنطقة

السامي ويهوديِّي أمريكا المهجن، هم جميعًا يعودون بالنسب إلى جدهم يعقوب إسرائيل.

فنحن كبشر لا نستطيع التسليم بلون خارق من العفاف الجنسي المنقطع النظير عند بنات يهود، حتى تحمل البذرة الإسرائيلية خالصة، ولن نضرب هنا أمثلة ضربناها كثيرًا في أعمالنا المنشورة عما يموج به الكتاب المقدس من صخب جنسي وصهيل شبقي لبنات صهيون على الشباب الفتي لأمم غير إسرائيلية (انظر مثلًا سفر إرميا ٣٠، ٥٠، ١٣ وحزقيال، ١٦ ... إلخ). ولهذا السبب تحديدًا وضعت دولة إسرائيل قانونًا لا يعتبر الفرد بموجبه يهوديًّا إلا إذا كانت أمه يهودية.

لكن المشكلة أننا إذا طبقنا هذا المبدأ على مؤسس دولة إسرائيل الملك داود، ثم على أشهر ملوكهم الملك سليمان، فسنجد الأول حفيد راعوث، ولم تكن لا إسرائيليةً جنسًا ولا يهوديةً دينًا إنما كانت مؤابية، أما سليمان فقد رُزق به أبوه داود من امرأة حيثية لا يهودية ولا إسرائيلية. وطبقًا للقانون وإعمالًا لبنوده، فإن كليهما لم يكن يهوديًّا ولا إسرائيليًّا وإنما فلسطينيان؛ لأن الأمهات فلسطينيات، وتكون المؤسسة الكبرى من البدء دولة فلسطينية تم سلبها لصالح يهودا.

يبدو هكذا أنه لم تصبح لدى السيد نتانياهو أية وثيقة تعطيه حقوقًا في الأرض، حتى أساطيره لا تسعفه، وبالطبع لن نقبل منه الوثيقة التأسيسية؛ فلدينا منها الأقوى والأكبر والأكثر عددًا ونفيرًا.

الفصل الثاني عشر

حدود الاجتهاد (مناظرة تليفزيونية ١)[١]

المقدم: مساء الخير، واضح أن قضية الأمس والحوار الذي دار بالأمس مع المفكر الأستاذ نصر حامد أبو زيد كان بالفعل قضية خطيرة جدًّا، نصر حامد أبو زيد الذي أثاره من جدل ومن نقاش حتى الآن لم يهدأ، وما زالت المكالمات وما زالت الفاكسات تتوالى علينا من أجل مناقشة ما قال؛ ما بين مؤيد وما بين معارض وبين مستفسر، أنا وصلني منه اليوم فاكس من حيث هو موجود في أوروبا، أحب أقرؤه عليكم، ومن حقه علينا أن نعطيه فرصته كي يقول كلمته الأخيرة في هذا الأمر.

يقول: الأستاذ فلان، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في نهاية البرنامج وبالأمس طلبتم مني أن أرد في ثلاثين ثانية إن كنت أقبل مناقشة من أخرج القضية من إطار البحث العلمي في الجامعة، حيث واجه الفكر بالفكر والاجتهاد باجتهاد مقابل إلى ساحات المحاكم؛ حيث لا يمكن حسم الخلافات الفكرية إلا بإجبار الرأي على الخضوع للرأي الآخر، وفي مدة الثلاثين ثانية المتاحة قلت إني لا أقبل مناقشة شخص أعتبره عدوًّا، وحتى لا يُساء فهمي أود أن أوضح للمشاهدين أنى قصدت بالعدو من اتخذ مني ومن اجتهاداتي موقفًا مسبقًا دون مناقشة علمية موضوعية، بل وحتى في كثير من الأحيان دون قراءة مؤلفاتي، وأكثر من ذلك نقل الأمر كله من خلاف الفكر إلى منازعة قضائية انتُهك من خلالها حرمة حياتي العائلية، واتُّخذ التفريق بيني وبين زوجتي وسيلة للإرهاب الفكري.

وهو ما يفضي دائمًا إلى غلق باب الاجتهاد نهائيًّا. أما غير ذلك فإنني مستعد لمناقشة كل من يخالفني في الرأي مناقشة علمية موضوعية هادئة؛ فأنا من أشد المتمسكين بالمبدأ الفقهي العظيم: رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأي خصمي خطأ يحتمل الصواب. وأنا في النهاية لا أبغي من اجتهاداتي الفكرية سوى وجه الله سبحانه وتعالى والدفاع عن نصرة وجه الإسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نصر حامد أبو زيد

إذن الأستاذ الدكتور نصر حامد أبو زيد على استعداد لمناقشة فكرية والدخول في أي مناقشة مع من يريد الدخول في هذه المناظرة معه، وأوربت كالعادة تؤمن بالرأي والرأي الآخر، وهي ستفعل كل ما في جهدها من خلال هذا البرنامج أن تُتاح فرصة هذه المناقشة.

تحقيقًا لهذا المبدأ، الرأي والرأي الآخر، اليوم يستمر النقاش في هذا الموضوع ولكن ننقله إلى درجة أخرى، وهي حق الاجتهاد وحدود الاجتهاد. نحن نسأل: هل أُغلق باب الاجتهاد؟ ما هو الاجتهاد؟ وما هي حدوده؟ هل هناك قضايا مسلَّمة لا يمكن الاجتهاد فيها؟ وهذه القضايا التي تعتبر مسلَّمة واجتُهد فيها، فهل يحق للآخر إذا كان ذلك خطأً أن يعيد فتح باب النقاش فيها؟ الإسلام دين الحرية وأيضًا دين العقل، ولكن هل هناك حدود لهذه الحرية وضوابط لهذا العقل؟ القضية بالفعل معقدة وليست بسيطة. وتحتاج منا إلى طرح الرأي والرأي الآخر.

معي في الاستوديو اليوم طرفان يعبر كلٌّ منهما عن وجهة نظر وعن مدرسة من التفكير ... معنا في الاستوديو الدكتور عبد الصبور مرزوق رئيس رابطة العالم الإسلامي سابقًا والمفكر الإسلامي المعروف ورئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية، وهو رجل له آراؤه الواضحة والمعروفة، وأحد الذين يؤمنون بالحوار، الحوار على كل اتجاهاته، لكن هناك أيضًا نقاطًا له فيها وجهة نظر، وأيضًا معنا في الاستوديو صاحب هذا الكتاب (يرفع الكتاب أمام الكاميرا) الدكتور سيد القمني صاحب كتاب الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، وهذا هو أكثر الكتب التي أثارت جدلًا في مصر في الآونة الأخيرة بالنسبة للفكر الإسلامي، وهذا الكتاب أثار جدلًا يكاد يكون أكثر من كتب الدكتور نصر أبو زيد، وصف الأستاذ المفكر فهمي هويدي، وصف الأستاذ الدكتور سيد محمود القمني بأنه أسوأ من سلمان رشدي وأكثر خطرًا. إذن نحن معنا في الاستوديو رجل يعبر عن مدرسة من التفكير الإسلامي التقليدي المتعارف عليه، وآخر يعتبر من الذين يجتهدون في التفكير، وهذا الاجتهاد وصف من بعض المفكرين الإسلاميين بأنه أخطر من سلمان رشدي. إذن علينا أن نعمل الجدل والحوار في هذه الحلقة حتى نجيب عن الأسئلة: هل أُغلق باب الاجتهاد؟ ما هو الاجتهاد؟ ما هي حدوده؟ تسمحون لي نبدأ هذا الحوار ... أبدأ مع أستاذنا الدكتور عبد الصبور، أستاذ عبد الصبور: ما هو الاجتهاد؟

د. عبد الصبور مرزوق: بسم الله الرحمن الرحيم. الاجتهاد في مفهومه العميق والصحيح؛ هو إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة فيما ليس فيه نص لا يقبل التأويل، هذا الاجتهاد يعتبر إحدى القسمات الأساسية في الفكر الإسلامي منذ نزول القرآن حتى هذه اللحظة؛ لأن القرآن ليس كتاب تشريع فقط وليس كتاب هداية فقط، ولكنه دستور الأساس بالنسبة للإسلام ككل وللدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

القرآن كما نعلم يحترم العقل احترامًا كاملًا، ويدعو إلى إعماله في كل الاتجاهات، يدعو الإنسان إلى التفكير وإلى النظر وإلى السير في الأرض ... كما هو معروف؛ ومن ثَم يعتبر إعمال العقل، الذي هو الاجتهاد فيما لا نص له، قسمة من قسمات الإسلام الحضارية التي تُحسب دائمًا لهذا الفكر الإسلامي، وحدد هذا الاجتهاد؛ أولًا: هذا الاجتهاد يبدأ منذ التعامل مع النص، فيه مقولة بتقول إنه لا اجتهاد مع النص، أنا باعتقد أن هناك اجتهادًا مع النص في فهم النص، وفي محاولة الوقوف

على مرامي وأهداف وأغراض النص التي تنتهي أو تصل في النهاية بالمجتهد، إلى أن يلتمس أو يتلمس جوهر الإسلام، والتي قد لا يكفي النص في عرضها أو في توضيحها للقارئ.
الحدود التي يتحرك فيها الاجتهاد نأخذها ببساطة شديدة من مقولة سيدنا رسول الله ﷺ لما أراد أن يرسل القاضي المعروف إلى اليمن، لا أتذكر الاسم الآن غاب عني، هو معروف، فقال له: بماذا تقضي؟ قال: أقضي بكتاب الله. فقال: إن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي. فربَّت الرسول على كتفه، وهنا حمد الله أن يكون في الأمة المسلمة من يسلك مثل هذا السلوك. إذن فتح باب الاجتهاد.

مقدم البرنامج: إذن فتح باب الاجتهاد، لكن فعلًا هل كان من الممكن أن يذهب هذا القاضي إلى اليمن ويقول إن الخمر حلال؟

د. عبد الصبور مرزوق: اسمه معاذ بن جبل.

مقدم البرنامج: هل كان من حق معاذ بن جبل أن يحلل الخمر؛ يحلل ما حرم الله ويحرم ما حلل الله؟ والاثنتان قضيتان، مشكلة كبيرة.

د. عبد الصبور: لهذا السبب أنا قلت في البداية إن إعمال العقل فيما ليس فيه نص قاطع لا يجوز تجاوزه، واحنا لما نقول نص لا يجوز تجاوزه لا يعني هذا الحجر على العقل أو التفكير؛ لأني قلت أيضًا إن هناك مساحة لإعمال العقل حتى في النص نفسه. في محاولة فهم النص الفهمَ الصحيح بما يتفق مع روح الإسلام.

مقدم البرنامج: د. عبد الصبور، تسمح لي أسأل الدكتور سيد القمني: ما هو تعريفك للاجتهاد من وجهة نظرك؟

سيد القمني: أخي الكريم، ليس هناك خلاف على ما قاله الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق، هو إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة «فيما ليس فيه نص يقبل التأويل» تحتاج إلى وقفة؛ بمعنى أن الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق قال إنه يجوز الاجتهاد مع النص للوقوف على مراجعه لتلمس جوهر الإسلام. حين لا يكفي النص أن يكون شارحًا موضحًا شاملًا في وقائعه وتفاصيله، بمعنى أنه قد أعطى عمومات كلية، ولنا أن نجتهد في الجزئيات، هذا إذا كان فهمي موافقًا لما قاله الدكتور مرزوق.

الدكتور مرزوق: تمام الموافقة.

سيد القمني: لكن ربما أخالف السياق العام للدكتور مرزوق؛ لأني فهمت من حديثه الطيب أن باب الاجتهاد لم يغلق أبدًا حتى الآن، وأنه منذ البدء وُضعت حدود الاجتهاد منذ زمن صاحب الدعوة نفسه عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن في القصة التي سمعناها الآن. لكن من وجهة

نظري باعتباري أعايش هذا العصر، وأقرأ أيضًا في نصوص ديني والاجتهادات السابقة وكتب السير والأخبار، أجد هناك ما تمكَّن الإنسان من الوصول إليه بعد كفاح ونضال طويل، حتى وصل إلى تأسيس مبادئ لحرياته، فهل هذه الحريات اليوم مسموح بها في ضوء مسألة حدود الاجتهاد أن له حدودًا بعينها؟ مثلًا «لا اجتهاد مع النص» ... الخليفة عمر اجتهد مع النص.

د. مرزوق: نعم.

سيد القمني: واجتهد إلى حد أتصور أنه لو أن أحدًا منا حاوله اليوم لحوكم وطُورِد وفُرِّق عن زوجته وربما عن مجتمعه وبنيه بالنفي، أي إن هناك مجموعة من التحريمات تلحق هذا الاجتهاد وتكبحه عن ممارسة البحث الحقيقي من أجل صالح البلاد والعباد والدين.
ونموذجًا لذلك شرط أو قيد الاجتهاد مع النص، هناك قاعدة أخرى قُننت تكبح الحريات فيما يتعلق بالتعامل مع النص الديني أيضًا، مثل القاعدة التي تقول: العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

مقدم البرنامج: ماذا تعني هذه القاعدة لبعض المشاهدين غير المثقفين، وأنا منهم، ماذا تعني هذه العبارة؟

سيد القمني: هذه تعني ببساطة أنك تستطيع في أي لحظة تصادفك إشكالية آنية الآن أن تجد لها في لفظ الكتاب الكريم ما يدعمها أو ينفيها، بغض النظر عن كون هذا اللفظ قد قيل في أي مناسبة، وماذا كان سعيه الحقيقي الذي حدث زمن صاحب الدعوة، وزمن تواتر الوحي.

مقدم البرنامج: هنا يمكن الرد عليك من العامة بأن القرآن الكريم صالح لكل مكان وزمان. ما رأيك يا دكتور عبد الصبور؟

د. عبد الصبور: أنا سعيد أنك قلت القرآن لكل زمان ومكان؛ لأن هذا جوهر الموضوع الذي تفضل به الأخ الأستاذ الدكتور سيد، وهو قضية أسباب النزول: هل النصوص القرآنية التي نزلت في مناسبات معينة يتوقف الحكم على زمنها ولا يصلح أن يستمر في مجتمعنا المعاصر أم لا؟ والأصوليون قالوا هذه القاعدة: العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب. أيًّا كان السبب الذي نزلت معه الآية، لكن الحكم قابل للاستمرار والصلاحية عبر الزمان والمكان، وهذا موضوع يحتاج توضيحًا. هناك مبدأ لا يمكن إغفاله فيما يتعلق برسالة محمد ﷺ وهل هي كغيرها من الرسالات السابقة؟ خاصة ببيئة معينة، بناس معينين أو قبيلة معينة؟ مثلما قال القرآن: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) وهكذا يعني هنا الرسالة مختصة بقضية فلان أو علان، لكن لما جاء الإسلام خاطب الرسول قائلًا: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)، خرج بالرسالة من الإطار المحدود، لا عرب ولا عجم ولا قرشيين، إلى العالمية.

ومعنى الخروج إلى العالمية أن الرسالة بتشريعها وجوهرها وفلسفتها مستمرة عبر الزمان والمكان، إذن هي قابلة للتطور، ويجب أن تكون قابلة للتطور والتغيير عبر الزمان والمكان، وتلائم المتغيرات التي تحدث في الأزمة المختلفة والأمكنة المتغيرة؛ لذلك سنجد أن الوقوف عند سبب النزول لأن الحكم ينبغي أن يمتد، ولا سيما في عموم الرسالة، وهذا ما دفع الإمام الشافعي لكي يغير حكمه بتغير المكان الذي يعيش فيه؛ فعندما جاء إلى مصر غيَّر أحكامه وآراءه بتغير المجتمع الذي يعيش فيه. وهكذا، فإن ما تفضل الدكتور سيد وأشار إليه في هذه القضية، فإن ربط الحكم بسبب النزول يلغي عموم الرسالة وعالميتها وتجددها، ثم هناك أمر مهم في هذا الجانب؛ أن التعلق بهذا تعلق ضعيف، لماذا؟ لأن حصر الآيات وأسباب النزول كما عند الواحدي أو فيما كتبه السيوطي في اللباب، ستجد النسبة كلها عند الاثنين لا تزيد على ٧٪ عند كليهما، فالنسبة بالفرض إذن بذلك أنا أهدر ٨٦٪ من الآيات وأكاد أنحيها عن التأثير في حياة الناس، فهذا الكلام يحتاج إلى وقفة جيدة ومراجعة مقولة: النص هو الحكم.

مقدم البرنامج: بدون لف بدون دوران، دكتور سيد، من الذي يقف ضد الاجتهاد من وجهة نظرك؟ الآن!

سيد القمني: كل المنتفعين والانتهازيين الذين يلعبون بحياتنا وبمصيرنا وبمستقبل أولادنا وبالدين نفسه. كيف؟ لماذا أقول إننا علينا أن نعرف الأسباب الحقيقية للنص القرآني الكريم وللسنة النبوية المطهرة؟ نحن عانينا من انتهازية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» طويلًا، عندما نريد أن نبني مجتمعًا اشتراكيًّا نقول إن النص نص اشتراكي؟! ونقتطع منه ومن سياقه الداخلي ومن سياقه التاريخي ومن سببه الحقيقي؛ لنأخذ به لنرضي الجالسين على كراسي الحكم في هذه اللحظة. ويتغير الرجال الكبار وتتغير مؤسسة الدولة وشكلها ودستورها، فيأتي نظام الاقتصاد المفتوح والحر فنجد ... (مقاطعة من الاستوديو.)

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج: قبل أن نبدأ برنامجنا بقليل كان على إحدى القنوات الفضائية الشيخ يوسف القرضاوي، وهو عالم إسلامي جليل، وقال إنه كان يتمنى أن يكون مشاركًا في حلقة الأمس التي أجريناها مع نصر حامد أبو زيد. وها هو مفكر إسلامي موجود، والدكتور نصر حامد أبو زيد قال لنا بالفاكس إنه مستعد لهذه المبارزة الفكرية مع هؤلاء الذين يمثلون الفكر الآخر.
معنا في الاستوديو اليوم الدكتور عبد الصبور مرزوق والدكتور سيد القمني، والمناقشة الآن حول سؤال كنت أسأله للدكتور سيد سؤالًا واضحًا: من الذي يقف ضد فتح باب الاجتهاد؟ فقال:

المنتفعون. ووصف منهم بعض الحكام ... اتفضل أكمل ...

سيد القمني: ليس بهذا الشكل الذي تقول، نحن نقول: القاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يتم بواسطتها استخدام كلام الله في غير موضعه أحيانًا ولأغراض انتهازية دائمًا، فنبني الاشتراكية بآيات، ونفتح البلد على الاقتصاد الحر بآيات أخرى، وإنك لتجد أن بعض الذين أدلوا هنا وأدلوا هناك من رجال الدين بالمؤيدات الشرعية من الكتاب ومن السنة، يكادون يكونوا هم هم نفس الأشخاص، وفي هذا ضرر بليغ بالدنيا وبالدين. والأمثلة كثيرة على هذا، صدام حسين احتل بلدًا شقيقًا هو الكويت، واستقطب في عاصمته بغداد عددًا لا حصر له من المشايخ المشهود لهم بالكفاءة من العالم الإسلامي، قاموا يؤيدون احتلاله للكويت بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. في الوقت نفسه عُقد مؤتمر في مكة ليرد على ذلك. فكيف يمكن أن نمتهن النص القرآني إلى هذا الحد ونعامله بهذه الانتهازية؟

مقدم البرنامج (مقاطعًا): هناك مُشاهد هو الأستاذ عبد العزيز النفيسي بيقول، وكان الأستاذ صلاح منتصر قد أشار إلى ذلك، بيقول: كيف تتم المقارنة ما بين مؤتمر يُعقد في مكة منبع الوحي بحضور كبار العلماء من العالم الإسلامي، وبين مؤتمر إسلامي، إذا صح التعبير، أقيم في بغداد يحلل ما قام به صدام ضد الكويت بدعوة من صدام حسين، الذي يتبنى وينتمي إلى حزب البعث الاشتراكي، الذي تنص فيه التوصية الرابعة من مقررات المؤتمر القومي لحزب البعث: يعتبر المؤتمر القومي الرجعية الدينية أحد المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية ... إلى آخره.

سيد القمني: نحن يا أخي لسنا في مقام تقييم؛ هذا رجل وطني، هذا حاكم عميل، هذا ليس مجال الكلام، نحن نتحدث عن علاقة حرية التفكير بالعقيدة والحدود المسموح بها، وعلى أي درجة يجب أن نجتهد ... وعند أي درجة يجب أن نتوقف؟ هذا هو موضوعنا، فنحن نضرب مثلًا. والمكان ليس شرطًا يا سيدي الكريم لعقد مؤتمر كي يكون هذا المؤتمر مبروكًا أم لا؟! إطلاقًا (يوافق د. مرزوق بقول: نعم، نعم) وإنما صيغة العمل والأهداف المرجوة منه هي التي تحدد مدى نفعه وقيمته وماذا سيقدم للناس.
ما أريد أن أصل إليه هو أننا نستخدم بهذه القاعدة نصوص الدين استخدامًا انتهازيًّا يضرُّ بنا ويضر بديننا، وبخصوص الاجتهاد علينا أن نتذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اجتهد مع النص. نحن نريد أن نطمئن إلى طوية الفؤاد، يجتهد نصر أبو زيد فيفرَّق عن زوجته ويكفَّر، يُقتل فرج فودة، يُضرب نجيب محفوظ بسكين، أنا أصبح مثل سلمان رشدي أو أسوأ منه ... إلى آخره. مثل هذا ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): أنصار المدرسة الأخرى يقولون إنكم تعديتم المسموح والممكن في التفكير الإسلامي. وإنكم اتخذتم هذه المواقف بغرض الربح التجاري، بمواقف متشددة، مواقف خارجة على المنطق، من أجل إثارة أكبر قدر من الجدل، وذلك مثل الاتهام الموجه إليك بأنك في

كتاب الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، تتحدث عن أن ما حدث في بداية عهد الرسول ﷺ أنه كان صراع السلطة، وأن عمه أراد أن يوصله إلى الحكم من أجل ثأر قديم بينه وبين القبائل الأخرى.

سيد القمني: هذا تفسير أُسقط على كتابي.

... سيدي الكريم أنا قدمت في هذا الكتاب قراءة للواقع الموضوعي في جزيرة العرب، للمجتمع وهو يتحرك للاقتصاد وهو يفعل، للسياسي ... لكذا وكذا، وقدمت قراءة لصاحب الدعوة الإنسان. قيل إن هذا محاولة للقول إن الدعوة الإسلامية مجرد حركة سياسية ابتغت بها القبيلة أو العشيرة الهاشمية الاستيلاء على مقدرات الحجاز وحكمه. يا أخي الكريم أنا قلت ما حدث لأن هذا ما حدث بالفعل، وفي الواقع نحن طول الوقت نقرأ القراءات المعتادة، فلنفتح نوافذ على الواقع الموضوعي في قراءتنا، ثم إن ذلك لا يتعارض ولا يتناقض ولا يتضارب مع الناموس الإلهي. الله سبحانه وتعالى بكماله لا يتناقض ونفسه. إذن في هذه الحالة عندما يرسل رسولًا محملًا برسالة، لا بد أن يهيئ له الواقع الأرضي، ويضبط حركات هذا الواقع وسكناته كي تلتقي مع الرسالة المرجوة كي نفهمها وكي نستقبلها وكي نتفاعل معها، فهذا أمر لا يتعارض.

مقدم البرنامج (مقاطعًا): يا د. عبد الصبور مرزوق ... الدكتور سيد القمني تعامل في كتابه مع الرسول كإنسان كما ذكر وتفضل. هل حينما يتحدث عنه كإنسان فقط فهل هو يجرِّده من نبوته، ويجرده من كونه شخصًا غير عاديٍّ تلقَّى رسالة من السماء؟

د. عبد الصبور مرزوق: هناك مسألة حول ما قاله الدكتور سيد عن المنتفعين والانتهازيين، وعن أولئك الذين يطوِّعون أي نص للحكام، وأشار إلى مؤتمر بغداد وما يتصل به. الحقيقة أنا عشت هذه التجربة وكنت أحد المشاركين في المؤتمر الذي أشار إليه الدكتور سيد، وفي لحظة كنت أقول كلمتي بالمؤتمر، فإذا بصدام حسين يدخل، تصفيق في القاعة، وتوقفت إلى أن دخل ... قلت ننتهز فرصة وجودك معنا هنا (الكلام ده مثبت ومسجل وظل تليفزيون وإذاعة بغداد يذيعانه) لكن أحب أقولك على حاجات (الكلام موجه من فضيلة الدكتور الشيخ لصدام حسين) لقد قلت إنك ستحرق نصف إسرائيل إذا اعتدت على أي بلد عربي، وأتمنى لو تحرقها كلها إن استطعت، لكن في تقديري، إن الأيديولوجيا التي ينتهجها حزب البعث لا يمكن أن تفي بهذا. وإذا أردت أن تصل إلى قوة تساعدك على إسرائيل لا بد أن تنفتح على الإسلام، وأن يتغير فكرك كرئيس. والأمر الثاني أن العمق البشري للعراق جميعًا لا يفي أبدًا بهذه الطموحات؛ لأن إسرائيل قوة ضخمة، ولا يمكن أن يقف كفؤًا لها سوى القوة الإسلامية. وقلت له: أنا مش عايز أتكلم اتفضل أنت؛ فالناس بتحب تسمعك.

ونزلت وجلست في مكاني بين الشيخ الغزالي رحمة الله عليه وأخينا الدكتور سيد طنطاوي الذي

أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر، وإذا بصدام حسين يقول: أنا سعيد أني باسمع هذا الكلام، وأحب أقول لأخونا اللي اتكلم إني أنا منذ بدأت أغير اتجاهاتي وبدأت أتجه للتعبير عن القومية كانت لي متغيرات، وإني أصبحت أتجه الاتجاه الإسلامي، وأصبحت أتعامل مع الرؤية اللي أنت اتكلمت عنها تعامل آخر باعتبارها هي طريق الخلاص، والدليل على هذا، كما قال صدام حسين، إن أنا بدأت أفرج عن الأسرى الإيرانيين وبافتح الباب الآن لنوع من التسوية ... وأثناء كلامه قام من خلفي شخص عراقي وقال له: يا سيادة الرفيق ... كذا وكذا ... فإذا بصدام حسين يرفضها ويقول له: كلمة رفيق دي كانت زمان، نحن الآن نتكلم باسم الإسلام، وأنت ما سمعتش أخونا بيقول إيه؟ يقصد الكلام الذي قلته.

مقدم البرنامج (مقاطعًا): هل الإسلام هو تغيير مسميات، ويكتب على العلم ...؟

سيد القمني: الله أكبر.

مقدم البرنامج: يكتب على العلم: الله أكبر. وهذه كلها شكليات.

د. عبد الصبور: أصل الأخ الدكتور سيد قال إن هناك بعض الانتهازيين، وإذا كان من يصفهم بالانتهازيين فلا يجب أن يتم تحميل الإسلام وزرهم على الإطلاق ... وهؤلاء موجودون في كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنا بعد أزمة الخليج كان لي كتاب عنها «الحقيقة الغائبة في أزمة الخليج»، وأعطيته للشيخ الغزالي قبل أن أذهب إلى المغرب في ندوة، ووقفت فيه أمام ما أشار إليه الأخ الدكتور سيد، وقلت إن الإسلام هو الذي دفع الفاتورة في الحالتين؛ لأن كليهما، كما قال الدكتور سيد، يستخدم النص. إما مع صدام أو ضد صدام. لكن هذه ليست القضية ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): نحن الآن نناقش ما قاله الدكتور سيد، وأنه تحدث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كإنسان، هل يعني هذا أنه سحب منه نبوته؟

د. عبد الصبور مرزوق: أنا لم أقرأ ما كتب الدكتور سيد، لكن إذا كان كما قيل عنه، وأنه يجعل النبوة والرسالة كلها انعكاسًا لواقع سياسي أو واقع اقتصادي أو قبَلي، فقطعًا يكون هناك شيء لا يمكن الموافقة عليه على الإطلاق؛ لأن الرسالة وحي غير مرتبطة بمتغيرات الواقع القبلي أو الجاهلي لأسرة الرسول ﷺ.

مقدم البرنامج (موجهًا كلامه إلى د. سيد): حضرتك عندما كتبت تحدثت عن الرسالة باعتبارها وحيًا؟

سيد القمني: يا سيدي الكريم، لا يستطيع أحد هنا أن يكتب كتابًا منشورًا ينكر فيه وحيًا أو نبوة، لسبب بسيط هو أننا في النهاية نريد أن نصل إلى غاية نتفق عليها في قراءة النصوص

المقدسة؛ لأن سر تلك الخلافات يعود إلى أن هناك خلافًا تأسيسيًّا في قراءة لفظ القرآن الكريم وفهمه. نفس الأمر الذي يقع مع أي نص حتى مع النص الإنساني. مثلًا نصوص نصر حامد أبو زيد يُختلف عليها، أنا شخصيًّا أرى أنه رجل شديد الحرص على الإسلام مدافع عن وطنه وعن مستقبل هذه الأمة. هناك آخرون رأوه بشكل آخر. المشكلة أن كلام نصر شيء، وكلام المقدس أمر آخر ... لماذا؟ هذا كلام بشر، كلام إنسان، أما ذلك فكلام قدسي، لذلك نتحرى الحذر والحيطة في التعامل معه؛ لذلك يشغلني أن أتحدث عن الحدود الموضوعة للاجتهاد التي أعتقد أنها تقف بيني وبين حرية التفكير والتعامل مع هذا النص؛ بحيث إن هؤلاء الانتهازيين، وأنا لا أقول إن الكل انتهازيون ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): ماهي شروط الذي يجتهد؟

د. عبد الصبور مرزوق: الكفاءة العلمية رقم واحد، وأن يكون المتقدم للاجتهاد دارسًا دراسة جيدة للقرآن ولتفسيراته ولكل ما كُتب حوله، ويمتلك المقدرة العلمية التي يستطيع بها أن يتعامل مع نصوص القرآن، مع المذكرات الشارحة كالسنة النبوية، بحيث يخرج منها في النهاية إلى فهم معطيات الرسالة، وأمر آخر شخصي أقترحه، أن يكون المجتهد لا يستخدم اجتهاده مطلقًا لغاية دنيوية، وكانت من ممارسات من تعرضوا للاجتهاد، وبذلك نضمن أن الاجتهاد غير موجه لأي غاية شخصية أو قبلية أو حزبية.

مقدم البرنامج: إذا اجتهد وأخطأ، ما هي العقوبات؟

د. عبد الصبور: المعروف شرعًا أن من اجتهد وأخطأ فله أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وهذا يعطي علامة وإعلانًا كبيرًا عن أن الاجتهاد في الإسلام مطلوب ومرغوب ودائم حتى لو أخطأ ماحدش له عنده حاجة، لكن في قضية نصر أبو زيد كانت القضية في البداية قضية ترقية جامعية ومراجعة بحوث ترقية، واللجنة قالت إن البحوث لا ترقى إلى مستوى الترقية ولا تؤهل الأستاذ الدكتور نصر أبو زيد للترقية. تبقى القضية بذلك قضية جانبية، لكن من نقل القضية إلى مستوًى آخر بعض الإخوة الذين هم في تقديري لا يملكون الرؤية السليمة ولا الحس السليم، وجعلوا منها قضية كفروا بموجبها نصر أبو زيد وفرقوا بينه وبين زوجته ونقلوها من الجامعة إلى المحاكم. أنا قرأت عن نصر أبو زيد في إحدى الصحف أنه يعلن إسلامه وتمسكه بكل أركانه ولا يقول إنه كافر، وأنا لم أقرأ كتبه، فقط أقرأ الآن نقد الخطاب الديني على حلقات بصحيفة العربي، لكن اجتهاد الدكتور نصر اجتهاد بشري، كما قال الدكتور سيد، ويمكن الرد عليه. والأمر يختلف مع النص المقدس.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج: قضية اليوم هي حدود الاجتهاد في الإسلام، وهذه القضية بالغة الخطورة والأهمية؛ لذلك معنا الآن في الاستوديو الدكتور عبد الصبور مرزوق، الباحث الإسلامي المعروف، والدكتور سيد القمني، وهو باحث في شئون الأديان وأصدر عدة كتب في تاريخ الأديان أثارت جدلًا واسعًا، منها سبعة كتب هي مثار جدل كبير حولها. لو تسمحون لي بتصحيح، فالمؤتمر الذي كان يتحدث عنه الشيخ مرزوق ليس هو ما تحدث عنه الدكتور القمني؛ لأن الذي تحدث عنه الدكتور مرزوق كان قبل غزو الكويت وليس المؤتمر الذي حدث بعد غزو الكويت؛ فالأول كان بخصوص حرب الخليج بين العراق وإيران، أما الثاني فكان بعد غزو صدام للكويت وكان في بغداد، ثم كان هناك آخر في مكة. تسمحون لي نأخذ الاتصالات الهاتفية.
مين معانا على الخط؟ ألو، الأستاذ فيصل المرزوقي، اتفضل يا أخ فيصل.

المشاهد (فيصل المرزوقي): في الحقيقة عندي تعقيب على حلقة الأمس التي جرت مع نصر أبو زيد، فأنا أعتقد أن مقدم البرنامج يستغل البرنامج لمواضيع مثل الجنس وغيره للإثارة فقط. وفي الحقيقة، إن هذا البرنامج يُستغل لفرض وجهات نظر خاصة بمقدم البرنامج ولا يقدم معلومة تفيد الناس.

مقدم البرنامج: شكرًا، تحب تضيف حاجة ثانية؟

المشاهد (فيصل المرزوقي): في حلقة الأمس التي خُصصت للدفاع عن المرتد نصر أبو زيد، وهو مرتد بحكم المحكمة وليست الصفة من عندي. حاولتم فيها جذب التعاطف مع هذا المرتد. يا أخي هل وصل بنا الأمر لنهون من حكم محكمة وندافع عن واحد حكم على نفسه بهذا الحكم؟

مقدم البرنامج: وإذا المحكمة طلعته براءة بعد كده؟ موقفك هيكون إيه؟!

المشاهد (فيصل المرزوقي): أي محكمة تطلعه براءة؟ نحن نتكلم عن حكم صدر وانتهى.

مقدم البرنامج: لأ لم ينتهِ، هناك عرض آخر على القضاء.

المشاهد (فيصل المرزوقي): نحن نتكلم عن ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): يعني حضرتك تريد محاكمته شرعيًّا ولا قانونيًّا.

المشاهد (فيصل المرزوقي): يا أخي نحن لو حاكمناه شرعيًّا فأنت تعرف مصير أمثال هؤلاء، لكن نحن نتكلم عن القوانين الوضعية التي تلجئون لها أنتم، هي التي حكمت عليه بالكفر ... إذا لجأ الناس للمحكمة اعتبرتموهم متآمرين، وإذا لجئوا للقوة اعتبرتموهم متطرفين.

وكمان الأخ الذي بجوارك هذا من شوية يخلط الأوراق بين ما فعله صدام وما فعله نصر أبو زيد الذي تلاعب بنصوص قرآنية، وأعتقد أنه لا مجال للمقارنة بين الاثنين؛ لأن الأول تلاعب بمصائر الناس. أما الثاني الخطر فقد تلاعب بنصوص قرآنية ومحاولة تأويل على حسب ما تهوى نفسه.

مقدم البرنامج (مقاطعًا): حضرتك قرأت كتبه؟

المشاهد (فيصل المرزوقي): أنا لم أقرأ كتبه، أنا لا أحتاج لقراءة كتبه لأنه طرح أفكاره في ندوة أمس، وهو من خلال كلامه لا يدل على تمكنه مما يقول. وهناك نقطة أخرى حول من أخرج الموضوع من ترقية إلى خارج أسوار الجامعة، في الحقيقة هو بنفسه الذي أخرج الموضوع عن الجامعة، عندما رفضت الجامعة ترقيته.
وهناك نقطة أخيرة: السؤال الذي يطرح نفسه وأطرحه أنا على المالكين للأوربت: في برنامج بانوراما في الـ «بي بي سي» العربية والذي تطرق للسعودية، استفز هذا البرنامج فيكم غيرتكم على الوطن السعودي، وتم إلغاء التعاقد معهم وتحملتم مشاكل كثيرة نتيجة لهذا الموقف. أما استقبال من أساء إلى كتاب الله وشكك في عدالة الرحمن ومحاولة إضفاء التعاطف مع هذا المرتد، ألا يثير هذا فيكم غيرتكم على دينكم وعلى قرآنكم، أم أن الوطن أهم من الدين لديكم؟

مقدم البرنامج: حضرتك بتقرأ من ورقة؟

المشاهد (فيصل المرزوقي): بغض النظر يعني تريدني أقرأ منين؟ وموقفك يا أستاذ عماد من حديث الـ «بي بي سي» عن السعودية كان واضحًا ووطنيًّا، لكن موقفك مع نصر أبو زيد ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): يعني حضرتك شايف إن الموقفين متماثلان؟ والموضوعين واحد، يعني حضرتك شايف أنك لما تناقش أحدًا في كتابه يعتبر فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقي): أنا لما أناقش أي أحد في كتابه يكون معقولًا، أنا لو أناقش يهوديًّا فأنا أتقبل هذا؛ لأني أعرف أنه عدو لنا، ونعرف أفكاره وأهدافه، لكن أن تستقبل في برنامجك من حاول تأويل القرآن بما تهوى نفسه ...

مقدم البرنامج: يعني شايف حضرتك إنه مافيش مشكلة لو تناقش واحد يهودي، لكن مناقشة مسلم كتب عن الإسلام وأخطأ ويقول لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهذا فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقي): لاحظ أنك أنت تدافع عنه الآن وتقول أخطأ، هو للآن لم يعترف بالخطأ، هو يصر على كلامه وحلقة الأمس لم تكن مواجهة، بالأمس كنت أنت وضيفك صلاح منتصر مع المرتد. بدليل أنكم لم تعطوا فرصة للإخوان المشاهدين لمناقشته والرد عليه.

مقدم البرنامج: لأ ده فيه ناس تكلموا وطالبوا بأحكام أكثر قسوة كالقتل، واتهمه آخر أنه لا

يذكر اسم الله، واتهمه آخر أنه علمه ضعيف، والشريط موجود حضرتك، وميزة برامج التليفزيون أنها مسجلة.

المشاهد (المرزوقي): الجامعة هي التي أظهرت ضعفه وضعف كتاباته.

مقدم البرنامج: ما هو يا أخي الحوار مع الناس هو ما يثبت القوة أو الضعف، يا سيدي أنت ليه عايز نشنق الناس قبل ما نتكلم معاهم، نعطيهم الفرصة يتكلموا وبعدين نقول قوي أو ضعيف.

المشاهد (المرزوقي): لما يتكلم في أي فكرة أناقشه فيها، لكن عندما يتكلم عن القرآن فلا اجتهاد مع نص يا أخي.

مقدم البرنامج: نترك للدكتور عبد الصبور يعقب، وهل صحيح أنه حينما نجيب د. نصر نناقشه هنا فيه إساءة للإسلام؟ يا دكتور عبد الصبور هل مناقشتنا للدكتور نصر فيها إساءة للإسلام؟ يعني هل هذه المحطة التليفزيونية تعتبر محطة ضد الإسلام أو قناة غير إسلامية إذا ناقشت أحدًا في أفكاره؟

د. عبد الصبور مرزوق: أنا لم أحضر حلقة أمس ولم أقرأ كتب الدكتور نصر.

مقدم البرنامج: أنا باتكلم عن المبدأ.

د. عبد الصبور مرزوق: من حيث المبدأ لأ، من حيث المبدأ نناقش أي إنسان فيما يقول وهذا بالعكس؛ فالمناقشة والاجتهاد قسمة حضارية من قسمات الإسلام، والقرآن ناقش الكفار، والآيات تقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) ... وفي الآخر قالت لهم: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) فمناقشة أي إنسان لا اعتراض عليها، لكن موضوع الدكتور نصر بدأ ببحوث مقدمة للجامعة لنيل الترقية وأنا لم أقرأ التقارير.

مقدم البرنامج: يعني ليس ضد الإسلام في شيء أن تناقش أفكار من اجتهد وأصاب أو أخطأ.

د. عبد الصبور: إطلاقًا، الكفرة كنا بنناقشهم، والقرآن كان بيناقشهم.

مقدم البرنامج: إذا أحد أعلن أنه كافر صراحة هل ممكن تناقشه ولا لأ؟ وما الموقف ممن يناقش تحت مظلة الإيمان ويقول أنا مسلم ولا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأومن بالكتاب والسنة والأنبياء؟

د. عبد الصبور: علينا أن نقرأ كلامه أولًا ثم نرى هل كلامه يتفق مع ما يقوله ويعلنه أم غير ذلك، إذا اتفق كلامه مع ما يقوله ويعلنه لا مشكلة، لكن إذا كان الكلام المكتوب مناقضًا لإعلانه وفيه مخاطر على الدين، فهنا نتخذ منه موقفًا آخر.

مقدم البرنامج: وإذا خرج أحد عن الدين؟

د. عبد الصبور: إن قضية الردة في الإسلام فيها كلام كثير بين الفقهاء، لكنهم يجمعون أنه لا يُحكَم عليه حتى يُستتاب.

مقدم البرنامج: قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة كتب تقريرًا عن الأبحاث التي كتبها الدكتور نصر حامد أبو زيد.

د. عبد الصبور: أنا لم أقرأ لا التقرير الأول ولا التقرير الثاني؛ ومن هنا لا أستطيع الحكم.

مقدم البرنامج: معنا الآن على الخط المفكر الإسلامي الكبير أحمد كمال أبو المجد، فلنسمع رأيه في هذه القضية:
تفضل يا دكتور كمال.
أنا عايز أعرف أولًا، هل شفت حلقة إمبارح؟

د. كمال أبو المجد: شفت حلقة إمبارح وباتابع حلقة النهارده.

مقدم البرنامج: يعني مبدأ الحوار في حد ذاته مقبول أم مرفوض؟ وما هي ملاحظاتك عليه؟

د. كمال أبو المجد: بسم الله الرحمن الرحيم، الحقيقة يا أستاذ عماد أنا لي ملاحظات؛ لأن إحنا أحيانًا نتكلم فيما هو مقطوع به ولا يحتاج إلى حديث، وهذا يفوِّت علينا مناقشة مقطع النزاع، ليس مطروحًا للبحث من جديد أن الإسلام يحترم حرية التفكير وأن الاجتهاد فريضة إسلامية لمن يقدر عليها وتتوافر عنده شروطها، هذه مسألة حسمها التاريخ وحسمها تاريخ أمة مليئة بآلاف العلماء والكتابات الموثقة، ونأتي ونطرحها اليوم كما لو كانت قضية جديدة! في رأيي أنا كارثة، لكن ما هو الاجتهاد؟ لأنه أنا بقدر ما يزعجني ويزعج كل عاقل الحجر على الفكر باسم أي شيء ولو كان الدين، فيزعجني أيضًا انتشار مدرسة اسمح لي أن أسميها مدرسة الاستحلال العلمي؛ بمعنى أنها تحت راية الاجتهاد تخبط خبطًا عشوائيًّا وتقول كلامًا لا يليق بالعقلاء، ثم تقدَّم على أنها مدرسة، فيقال: التقليديون في مواجهة كذا، كما لو كان هؤلاء الذين يخبطون يمثلون مدرسة توضَع على قدم المساواة مع تراث الأمة بعلمائها وفقهائها وعقلائها ومتَّقيها وخبرائها، هذا في رأيي خطر عظيم، وأنا الحقيقة مما تعلمناه في مناهج العلوم كلها أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، أنا لا أستطع ولا أعطي نفسي حق مناقشة الدكتور سيد اليوم في كتاب لم أقرأه، لكني أعطي نفسي حق التعقيب على بعض ما قال، ونفس الشيء بالنسبة للدكتور نصر أبو زيد، لديَّ ملاحظتان: واحدة على ما قاله أمس الدكتور نصر وأخريات على ما قاله ويقوله اليوم الدكتور سيد. يعني لما نيجي للدكتور نصر أبو زيد عافاه الله وسامحه وعفا عنه ويقول لي إن الآية التي تتحدث أن للذكر مثل حظ الأنثيَين بمنهج بلاغي لا يستقيم أبدًا، تتحدث عن الذكور فقط، طيب يا دكتور نصر يا عالم يا جليل

يا لغوي يا أريب يا أديب، ألا تذكر أن أول الآية: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)؟ إذن القضية بالعقل والبداهة والمنطق وفي أصول التفسير المعتمدة عند العقلاء في الشرق والغرب وفي الإسلام والكفر، أن الآية خاصة بالأولاد، بتتكلم عن الأولاد الذين قد يكونون ذكورًا وقد يكونون إناثًا، بقى أنا أراجع ميراث أمة وإجماع علماء محققين وأقول والله لقد فُتح عليَّ فتح مبين، وأنا أول من قال هذا ثم أتواضع وأقول؛ يعني؟ لأ يا سيدي، إحنا عندنا قاعدة وليسمعها كل واحد: لا يوصف الرأي بأنه رأي ولا الكلام بأنه مدرسة إلا إذا كان له حد أدنى عند أصحاب العقول، وقديمًا قيل: وليس كل كلام جاء معتبرًا، إلا كلام له حظ من النظر. إذن لو لم يكن له أي حظ أعتبره ظلمًا وخلطًا للأوراق.

والقضية الثانية: قضية أسباب النزول. لا ينبغي لأحد أن يخوض فيها الآن. وأنا باقول الاستحلال العلمي لأني لا أستطيع أن أخوض في مسألة إلا إذا أحكمت منهجها وصناعتها العلمية. علم الكلام غير علم التشريع وأصول الفقه، ونيجي لقضية العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأنا أرجو أن المشاهدين يكونون معنا في هذا الأمر. إن الآيات القرآنية أحيانًا تتنزل بمناسبة معينة. أيهما أكثر جمودًا وتقييدًا: إني أنا أحصر الأمر في هذه المناسبة وأحجره وأجمده فيها، أم أطبقه تطبيقًا عامًّا؟ إذن المسألة هي في التطبيق العام بشرط أن أملك أدوات وآلات حسب فهم النص كمعرفة سبب النزول، كما لدينا في القانون، وأنا رجل قانون، نرجع لما يسمى الأعمال التحضيرية علسان نرى هذا النص ونرجع إليه وعالج إيه دون أن نقيده بالمناسبة اللي وضع بسببها، يعني إحنا عندنا نص: انهارت عمارة في مصر الجديدة فصدر أمر عسكري يقيد، أقول إن هذا الأمر يطبق فقط على عمارة مصر الجديدة التي بمناسبتها ظهر القانون؟ هذا كلام لا يقول به عاقل.

ولعل الجزء الصواب في حديث الأخ الدكتور سيد أن معرفة أسباب النزول يُقتدى بها في فهم النص، وهذا من أدوات الاجتهاد التي قال بها علماؤنا قديمًا وحديثًا، وليس هناك جديد في هذا أبدًا.

مقدم البرنامج: الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك.

د. أبو المجد (مقاطعًا): أما إني أنا أنكر القاعدة، فأنا لست مع الدكتور سيد في هذا.

مقدم البرنامج: حضرتك خليك معانا ... و...

د. أبو المجد (مقاطعًا): أنا عندي كلام كتير لكن مش عايز أحتكر البرنامج.

مقدم البرنامج: يشرفنا أن حضرتك تكون معانا بإذن الله حول هذا الموضوع، وبلاش تسافر لأن القضية أهم من السفر.

د. أبو المجد: إن شاء الله.

مقدم البرنامج: الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك في دقيقتين.

سيد القمني: الأستاذ الدكتور أبو المجد، أهلا بك، تحياتي.

د. أبو المجد: مرحبًا.

سيد القمني: يا سيدي الكريم أن يبحث مسلم عما يطمئن له فؤاده فيما يتعلق بالنصوص المقدسة، ما دامت لديه القدرة على البحث ويملك منهجًا علميًّا في التفكير، ويوجد آخر يمكن أن يقوم أو يرد أو يناقش، لا أتصور أن هذا لون من الخبط وخبط العشواء، والدكتور نصر حامد أبو زيد في نقاشه لمسألة نصيب الذكر والأنثى في المواريث، سأغض الآن النظر عن اجتهاده هو، فأنت أثرت هذه القضية الآن، اسمح لي أن أقول إني رجل أعيش هذا الزمن، وأعتقد أن المرأة تكدُّ مثلي وتتعب مثلي وتشقى مثلي وتصبح مهندسة ومحامية وطبيبة، وأظن فيما قرأت أن الأساس في توريث المرأة نصف حظ الذكر، أنه يقوم عليها، ويدفع مهرها ويرعاها ويرعى أطفاله ومسئول تمامًا عنها، فماذا يحدث اليوم ولدينا اليوم المرأة في كل ميدان وكل مجال، وأصبحت ظروف حياتنا الاقتصادية تستدعي بالضرورة أن تعمل ... و...؟

مقدم البرنامج: د. سيد، د. عبد الصبور، د. كمال حضرتك خليك معانا على الخط، بعد الاستراحة سنواصل هذا الحوار، لو سمحتم جميعًا كونوا معنا بعد الاستراحة لمناقشة هذا الموضوع الذي يزداد التهابًا وتفجرًا ثانية بعد الأخرى، وفي انتظار مشاركة المشاهدين، وأهلًا بكم.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج: نعود لمناقشة حدود الاجتهاد في الإسلام وفي النص القرآني، معنا في الاستوديو د. سيد القمني ود. عبد الصبور مرزوق، ومعنا على الخط المفكر الإسلامي د. أحمد كمال أبو المجد. كان الدكتور سيد يرد على كلام الدكتور كمال أبو المجد، والدكتور كمال منتظر.

د. كمال: أنا عندي تعقيب.

مقدم البرنامج: الدكتور سيد لم يكمل كلامه.

د. كمال: أنا أحترم حقه حتى في المخالفة.

مقدم البرنامج: اتفضل يا دكتور سيد.

سيد القمني: أهلا بيك يا أستاذ. نحن نعلم مما قرأناه في كتاب الله الكريم وما لحقه من علوم نستطيع أن نستعين بها في هذه القراءة؛ حتى يكون فهمنا فهمًا سليمًا، أما مسألة المواريث فقد تغيرت حسب المتغيرات زمن الدعوة. زمن وجود وحياة الرسول ثلاث مرات: المرة الأولى

«الإرث لذوي الأرحام» دون تحديد كما تعلمون سيادتكم، ثم نُسخت بآية الوصية، ثم نسخت بـ (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ). ونعلم أن ابن الخطاب كان من المجتهدين والذين اجتهدوا مع وجود نصوص صريحة واضحة لا تقل في قطعيتها عن هذا الذي بين أيدينا الآن، ومع ذلك إطلاقًا لم يحاكَم الرجل، إنما اجتهد وأضاف رصيدًا لنا وللإسلام وللفكر الإسلامي، فهلَّا إذا حاولنا أن نفهم أو نتساءل أو يتساءل الدكتور نصر أبو زيد ... يا أخي لنرد عليه، لنناقشه، لنفتح كل النوافذ لكن لا نرجمه ونتهمه بالكفر.

مقدم البرنامج: د. أحمد كمال، اتفضل.

د. كمال أبو المجد: أنا يعني، أنا، أنا أتوسل، أنا أتوسل للدكتور سيد أن يحافظ على الدقة المنهجية وألا يُدخل القضايا بعضها في بعض. ليه، لماذا؟ لأن هناك أمورًا أنا متفق معه فيها وأنا لم أقل أبدًا إننا نحجر على الدكتور نصر في أن يجتهد وأن يخطئ، والأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق قال هذا، ويقوله كل العلماء، ونحن نعرف حاجة الأمة الإسلامية إلى فتح النوافذ وإلى تعدد الآراء وإلى الاجتهاد وإلى الخطأ المصاحب للاجتهاد. هذا أمر لا نناقشه إنما القضايا الفقهية أدق من أن يدلى فيها بالرأي العابر، وفرق هائل بين ما فعله عمر بن الخطاب وبين أن آتي إلى نص قطعي ... ويمكن يا دكتور سيد إنك ما أخدتش بالك من كلام جيد قاله الدكتور نصر في مفهوم كلمة النص.

سيد القمني: أي نعم.

د. أبو المجد: كلمة النص دي كلمة تكنيكية.

سيد القمني: أي نعم.

د. أبو المجد: عند علماء الأصول.

سيد القمني: مفهوم يا أستاذ.

د. أبو المجد: هي نوع من دلالات الألفاظ على المعاني.

سيد القمني: أي نعم.

د. أبو المجد: وأنا أخشى أن إدخال المستمعين عمومًا في جدل فقهي يكون هو القضية، بينما القضية التي بين أيدينا هي حدود الاجتهاد، والأصل هو الاجتهاد وفتح نوافذه، ولكننا لا نحارب هذا أبدًا، حاشا لله! وإذا حاربناه حجرنا على الأمة وقطعنا عليها طريق المستقبل. إنما الذي نحاول أن نمنعه هو أنه تحت شعار الاجتهاد، وهي كلمة محببة، وتحت كلمة الحرية، وهي كلمة مقدسة، أن تختلط الأوراق وأن تدخل الأهواء.

وحضرتك تفضلت في أول الحديث وقلت كلامًا أدهشني لأنه ما دخل قضية المنتفعين والانتهازيين، وهم على الموائد كلها وفي الساحات كلها وفي المدارس كلها، بقضية حدود الاجتهاد. كأن حديثك يُفهم منه أن كل من حاول وضع حد على الانطلاق في الاجتهاد يكون إما منتفعًا أو انتهازيًّا. لأ يا أخي، والحق معك، وسآخذك بكلامك وبكلام الدكتور نصر. نعم قلت أنت قولة حق وأنا معك فيها مائة في المائة، لكن فرق بين أني أنا أحاكم أو أناقش فكر الدكتور نصر أو فكر الدكتور سيد أو فكر الدكتور عبد الصبور، فهو كلام بشر يؤخذ بكلامه ويُترك، وبين أني أتعامل مع نص مقدس، إلا أنه لا يكفي أني أقول بهذه التفرقة، ثم أتجاهلها في العمل. يعني إذا كنت أقف بين يدي كلام الله وأومن إيمانًا صادقًا بأنه وحي يوحى، فيجب أن ألتزم مزيدًا من الحذر المنهجي، وأنا أتعامل مع هذه النصوص، و(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) فلا بد من الحذر المنهجي.

سيد القمني: هذا ما قلته أنا منذ برهة.

د. أبو المجد: وأنا معك في فتح النوافذ لكن الحرية لها حدود وإلا وقعنا في نقيضها.

سيد القمني: سيدي الدكتور الآن حضرتك تحدثت عن نصر أبو زيد وعن بعض أفكاره وأخطائه وقلت رأيك واضحًا الآن، وأيضا المحكمة قالت كلمتها في حق نصر أبو زيد، ولكن وأنا أتابع ما تكتب حضرتك لأن حضرتك أستاذ كبير.

د. أبو المجد: أنا لم أكفر نصر ولا غيره، حاشا لله!

سيد القمني: هذا الموقف الآن وما قلت حضرتك بشأن نصر حامد أبو زيد لنعتبر معنى كلامك أن هناك نوعًا من الاجتراء؛ لأن الخبط قد يكون اجتراء وعدم فهم أو ... إلى آخره.

د. أبو المجد: في رأيي ليس أكثر.

سيد القمني: في رأيك، ولكن ألم تخبط المحكمة في حيثياتها يا دكتور، وتستحق منك ردًّا على نفس الدرجة من الأصولية ومن الدفاع عن الحق؟ في نصوص حيثيات المحكمة تقول: يعتبر كافرًا من استخف بالقرآن الكريم، ونحن معها في ذلك — أو السنة النبوية — باستهزاء بهما أو جحدهما أو كذبهما أو أثبت أو نفى ... إلخ» حتى يصل إلى «أو تشكك في شيء من ذلك» ونحن نعلم أن الشك ...

د. أبو المجد (مقاطعًا): الشك هذا من الإيمان.

سيد القمني: أي نعم، فلماذا لم ترد؟

د. أبو المجد: لأ، أنا رديت وكتبت في المصور.

سيد القمني: وهناك أيضًا في الحيثيات «ومن ادعى أنه مسلم» يا أخي والله أنا أقول إني مسلم وليس لأحد على الإطلاق أن يسألني هذا السؤال: هل أنت مسلم أم لا؟ لأن الذي يملك هذا السؤال واحد أحد لا شريك له، هو الذي يسألني عن عقيدتي ... و...

د. أبو المجد (مقاطعًا): أنا معك يا دكتور علشان برضه إحنا مما تعلمناه في علوم أمتنا علم يسمى أدب المناظرة، وهو لا يكتفي بالآداب الأخلاقية واللياقة، إنما يضع قواعد منهجية، وفي مقدمة هذه القواعد المنهجية التي أعرف بمقدار علمك أنك تعرفها ما يسمى تحرير الخلاف؛ بمعنى أن نحدد المساحة التي نريد أن نتحاور حولها؛ فقد نكون متفقين في مساحة أخرى نوفر على المشاهدين والسامعين الحديث حولها، أما حين يتعلق الحكم بالقضاء فقد تجنبت الخوض؛ لأن أنا رجل قانون، والمسألة بها مسائل فنية يطول الحديث فيها، ومحكمة النقض التي أُجِلُّها وأحترمها وأوقرها، إنما كانت تنظر في أوجه الطعن في صحيفة الطعن التي أخذت مآخذ معينة على حكم محكمة الاستئناف، ولم تكن تحاكم نصر أبو زيد ولا تصدر حكمًا في موضوع الدعوى؛ لأن النقض ليس درجة من درجات التقاضي في الموضوع؛ لذلك أنا لا أريد أن أشغل المشاهدين ...

مقدم البرنامج (مقاطعًا): يا دكتور كمال نحن نناقش حدود الاجتهاد، وهي أجدر من ...

د. أبو المجد: من محكمة النقض، وقضية الاجتهاد واضحة جدًّا، الأصل هو الاجتهاد، لكن الاجتهاد ممن يملك آلته، ومن آلات الاجتهاد معرفة اللغة العربية معرفة تامة ومعرفة كتاب الله — دي علوم موثقة ما أقدرش أخوض فيها بغير علم — ومعرفة السنة روايةً ودراية، ومعرفة الفقه فروعًا وأصولًا، معرفه شيء من العقائد وما جاء فيها كتابة وردًّا، وبغير إحكام هذه الآلة لا يمكن أن يكون الرأي اجتهادًا بالمعنى العلمي.

مقدم البرنامج: يا دكتور كمال سؤال أخير: هل أُغلق باب الاجتهاد؟

د. أبو المجد: سيدي هذه قضية نظرية أرجو أن نمسك عن القول فيها؛ لأنه لم يقل أحد بإغلاقه، وهو لم يغلق، بل إني أضيف من عنديات إذا جاز هذا التعبير: إننا لم نكن أحوج إلى الاجتهاد منا في هذا العصر، وعلماؤنا في كتبهم باب يسمى «باب في اختلاف الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال»؛ لأن الحكم الشرعي هو معرفة الحق ومعرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر. فإذا اختلفت الواقعة الاجتماعية اختلفت النتيجة النهائية؛ شرط أن يتم كل هذا بنية حسنة والتزام منهجي صارم وأدب عفٍّ وإيمان بالحرية.

مقدم البرنامج: شكرًا وأرجو أن نراك قريبًا لمتابعة المناقشة في هذه القضية ... مين معانا على الخط؟ الأستاذ أوزجان بشار ... اتفضل.

المشاهد (أوزجان): بالنسبة لقضية الدكتور نصر أبو زيد، لا أعرف ما هو سبب تكفيره ولم

أقرأ له أو أعرفه، ولم أعلم بالأمر حتى الأمس عندما شاهدت الحوار مع الدكتور نصر، وأنا كأي إنسان مسلم أرى أن الرجل خلال حديثه سألته: هل هناك مسألة شخصية بينه وبين أحد الأشخاص، وأن هذا الشخص هو الذي أخرج القضية من إطار بحث علمي وترقية إلى ساحات المحاكم؟ والمحكمة لها قوانينها الوضعية، وهي التي حكمت بتطليق الدكتور أبو زيد، ولها قوانينها الوضعية وليست محكمة شرعية مائة بالمائة، ولنكن متفقين على هذه النقطة. ما أردت أن أسأله عنه هل توجد هيئة من كبار المفكرين، هيئة تمييز، لكي تميز بين الاجتهاد والإلحاد؟ هل تم استدعاء الدكتور أبو زيد لمناقشة آرائه؟

مقدم البرنامج: لا لم يتم، دي مش وجهة نظر ده الواقع. لم تتم مناقشته واستتابته.

المشاهد (أوزجان): إذن من الممكن أن تقام هيئة من كبار العلماء والمفكرين لمناقشة الدكتور حامد أبو زيد.

مقدم البرنامج: الدكتور عبد الصبور، هل هذا ممكن؟

د. عبد الصبور مرزوق: لِم لا؟

المشاهد (أحمد): سلام عليكم، فيه نقطة أحب أستوضحها، في مصر هناك ثلاث مؤسسات كبيرة، وهي جامعة الأزهر الشريف ودار الإفتاء والمؤسسة القبطية، والمؤسسة القبطية تختار مرشدها أو البابا أو كما يسمونه، أليس من العار أن الأزهر الشريف ودار الإفتاء ينتظران رئيس الجمهورية كي يعين المفتي أو شيخ الأزهر، وكأن هذه المؤسسات لا تستطيع أن تختار شيخها أو مفتيها؟

مقدم البرنامج: أنا سأقول ما أعرفه وبعد ذلك حضراتكم تجيبون بما تعرفون، ما أعرفه أن رئيس الجمهورية يمارس هذا الحق كولي أمر وفق الدستور والقانون العام، والقيمة ليست فيمن يختار شيخ الأزهر ولكن القيمة بما يضيفه هذا الشيخ أو علماؤه الأجلاء، وقد سبق وحظينا بشيوخ أفاضل نكنُّ لهم كل احترام، منذ الشيخ مخلوف للشيخ عبد الحليم محمود، للشيخ جاد الحق، لشيخ الأزهر الحالي الدكتور سيد طنطاوي.

د. عبد الصبور مرزوق: في فترات سابقة كانت هيئة كبار العلماء تختار أو تنتخب شيخ الأزهر، وسؤال الأخ دعوة نادى بها الكثيرون، ولكن يحل محل هيئة كبار العلماء الآن البحوث الإسلامية، وعندما خلا مقعد شيخ الأزهر السابق رحمة الله عليه، عُرضت أسماء كثيرة على رئاسة الجمهورية واختار منها، وهو اختيار في تقديري موفق لشيخ الأزهر الحالي.

مقدم البرنامج: نحن أجبنا رغم أن السؤال خارج موضوع هذه الحلقة؛ حتى لا يظن المشاهد أننا نتهرب من الإجابة عن أي سؤال، ومعانا على الخط الآن الأستاذ مهنى فودة ... اتفضل.

المشاهد (مهنى): مساء الخير يا أستاذ عماد، الحاجة الوحيدة اللي أنا عايز أسأل عنها سؤال: من له حق الاجتهاد؟ إحنا بنقول اللي اجتهد وأصاب له حسنتان، واللي لم يصب فله حسنة. من له حق الاجتهاد؟ هل يجيني واحد دارس تاريخ وغزوات وأخليه يفتي في الميراث زي الحلقة بتاعة إمبارح أو الأستاذ بتاع النهارده؟ وإلا هانفتح كده الباب النهارده لكل من هب ودب علشان يفتي في مسائل بهذا الشكل، الإفتاء مثلًا أُثير حول إفتاء الدكتور سيد طنطاوي بخصوص الفوائد وحسم الخلاف؛ لأنه صادر من عالم يعمل بهذا المجال، وبعدين النهارده فيه مجال فقهي في الميراث، مجال فقهي في الجواز، مجال فقهي في الاقتصاد، لكن إن أنا أجيب واحد كوافير ولا أي واحد يفتي في الميراث ولا يطلع كتاب. يعني من له حق الاجتهاد هنا؟ دي حاجة، لكن فيه حاجة خارج هذا البرنامج. أعيب على قناة أوربت الثانية في لقاء مع إحدى الراقصات بلبنان، أنا باتفرج على الرقص وباشوف الرقص في التليفزيون، إنما كون إن أحد الصحفيين في مجلات ينسب الرقص لأنه يرجع للدين، فهذا ما لا يقبله أحد، وشكرًا يا أستاذ عماد.

مقدم البرنامج: قضية الرقص ليس لدينا أي معلومات عنها، وهي أبعد ما تكون عن هذا البرنامج وعن موضوعنا الآن، لكن النقطة المهمة التي أثارها المشاهد هي: هل أي كوافير يقدر يكتب عن الإسلام؟ هل حضرتك يا دكتور سيد مؤهل كي تكتب عن الإسلام؟

د. عبد الصبور: لأ ... عفوًا السائل قال يفتي، وأظن أن هناك كلامًا في الحتة دي.

مقدم البرنامج: أنا طالب الإجابة من الدكتور سيد لأنه ناله من الحظ جانب من تعقيب المشاهد الكريم.

سيد القمني: سيدي الكريم، مسألة الفتوى في أمر يتعلق بالدين من داخله في قضية تتناول التفاصيل، مثل متى يؤخر الصلاة أو يقدمها أو ما هي مبطلات الوضوء أو الصوم ... إلخ. هذه أمور لها متخصصون، ولها أرباب يقومون على هذا الأمر يفتون فيه، وأنا لست بداعية ولست بمُفتٍ. فقط أنا رجل يشغله مصير هذا الوطن، فدرست وتعلمت المنهج العلمي، وأن أقرأ بتدقيق وأن أصل إلى نتائج أعرضها على الناس، فمن شاء وافق، ومن شاء ناقش، ومن شاء رفض، لا أفرض رأيي أبدًا على الآخر، وفي المقابل أيضًا أتمنى من الآخر ألا يفعل ذلك معي.

المشاهدة (إلهام الدجاني) (وتتحدث بانفعال شديد): السلام عليكم. أنا لي رأي في موضوع حلقة إمبارح وحلقة اليوم كمان، المفروض أننا لما نناقش الدكتور أبو زيد بالأمس أو الأستاذ اليوم لازم نجيب بعض النصوص من كتبهم ونقول له في فقرة كذا إنت قلت كده، علشان إمبارح أنت لما قلت للدكتور أبو زيد إن أنت تشكك في قداسة النصوص، قالك لأ أنا قصدي أقول في قداسة المفسرين للنصوص، فأرجو يا أستاذ عماد أنك أنت لما تناقش مثل هؤلاء وحتى لا يغيروا بالكلام؛

لأن شبابنا بعد سبع سنين وعشر سنين أولادنا وأحفادنا سيقرءون هذه الكتب، وهاتصير هناك فيه بلبلة في تفكيرهم، ومش هايشوفوا الأوربت وإنه كان قصده كده وكده، هايقروا الكتاب وياخدوه أمر مسلَّم بيه، فأرجوك لما تناقش هذه الكتب يكون فيه خط تحت المكتوب وتقول له إنت قلت في صفحة كذا هذا الكلام، ولازم يجاوب عليه بحيث لا يجد فرصة ويغير الكلام.

مقدم البرنامج: أنا متشكر طبعًا لنصيحة حضرتك، لكن أنا عندي إشكالية في هذا البرنامج، إن هو حوار مباشر، وهناك لدينا برامج متخصصة في الكتب أو المناظرات الفكرية، وممكن في برنامجنا نعمل مناظرة فنلجأ لهذا الأسلوب، والغرض كان من حلقة أمس هو استيضاح الموقف بالنسبة لحالة تهم الرأي العام، وعلى اتفاق على أن تتم مواصلتها، وحلقة اليوم جزء منها، وهناك حلقات أخرى سنستمر فيها وأرجو من السادة المشاهدين أنهم يحكمون في نهاية الحلقات علينا، وحضرتك بعد سلسلة الحوارات تقدري تجيبي علينا، هل الموضوع أشفى غليلك وغطى كل النقاط؛ لأننا هانرجع تاني للدكتور نصر بإذن الله في هذه المناقشات، وهو وافق على فكرة المناظرة؛ لأنك لا تستطيعين أن تفرضي على أحد مناظرته في أفكاره إن لم يوافق على ذلك.

المشاهدة (إلهام): يا أستاذ أنت قدامك الآن واحد من الجماعة اللي بيمشوا في نفس التيار وذات الاتجاه. أنت قلت له إنه قال عن سيدنا محمد كذا كذا كذا، قالك لأ ... أنتم فسرتوها بكلام غير ما أقصده، وهو موجود أمامك الآن وكتابه موجود، افتح الصفحة وقول له أنت قلت كذا كذا، لأنه جاوب بطريقة غير المفروض أن يجاوب بها، وبرر موقفه بأنه مش قصده، يا أستاذ عماد إحنا لما شبابنا يقرءوا شيئًا يكون فيه الكلام مش قصده أو قصده!

مقدم البرنامج: هذه قضية تستغرق وقتًا طويلًا، وإحنا هاناخد حلقة تانية مع الدكتور سيد والدكتور عبد الصبور مرزوق، وهما وافقا من حيث المبدأ، لأن الموضوع محتاج تمسكي فقرة من هذا الكتاب وتقرئيها، فيرد ويقول لك أنا قلت في صفحة ١٠٢ كذا كذا، تقولي له في صفحة ١٩ كذا يقولك توضيحها في صفحة ٨٢، وهذا هو المنهج اللي هانلجأ له في الحلقات المقبلة، حضرتك كوني معانا وتحكمي علينا في نهاية الحلقات، واعتبري حلقة أمس واليوم فاتحة لملف القضية، وهو ما لا يمكن تغطيته في حلقة أو حلقتين أو ثلاث؛ لأن الموضوع أعقد كثيرًا، وشاكر لنصيحة حضرتك.

المشاهد (شريف ديلاور): مساء الخير يا أستاذ عماد. الموضوع زي ما أنت قلت معقد وشائك جدًّا، وبالتالي فإن الفكر لا حدود له، وبالتالي يقف الإيمان — لا شك — حائلًا أمام حرية الفكر يعني لازم نعرف إن فيه إيمان لا يمكن التحدث معه بمنطق أو بفكر، وديكارت قال أنا أفكر إذن أنا موجود، ولا حدود للفكر الإنساني حتى لو في حالة أن يعترض على الدين نفسه أو على الرسالة نفسها؛ لأن حرية الفكر مطلقة، فلما تيجي تتكلم في الدين يبقى بنتوقف عند حدود معينة لا فكر فيها

ولا اجتهاد؛ لأن هناك إيمانًا نقف عنده.

مقدم البرنامج: أنت تتحدث إذن عن الخطوط الحمراء.

المشاهد (شريف): فيه خطوط حمراء. الخطوط الحمراء دي هي حدود الاجتهاد النهارده لا نتكلم في هذا، إحنا بنحاول نحط حرية فكر مطلق مع الدين، وده لا يمكن، ومحاولة التوفيق دي مستحيلة ولم تقدر عليها أية أديان أو أية أفكار قبل كده، وبالتالي فالمحاولة في حد ذاتها فيها صعوبة كبيرة جدًّا وشائكة وبالغة التعقيد.

مقدم البرنامج: نحن نحاول أن نطرح ملف قضية حدود الاجتهاد ووجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع. نحاول أن ندعو إلى إعمال العقل لكن في نفس الوقت هناك الخطوط الحمراء، والخطوط الحمراء هي سؤالي للدكتور سيد القمني: هل هناك خطوط حمراء، نعم أم لا؟

سيد القمني: نعم.

مقدم البرنامج: هناك خطوط حمراء نتوقف أمامها.

سيد القمني: أنا فهمت الأمر كالتالي: إن هناك خطوطًا حمراء موضوعة سلفًا ممنوع تجاوزها، هذا ما وصلني.

مقدم البرنامج: أنت في عقلك هل هناك نقاط تقف أمامها؟

سيد القمني: أعتقد أن كل أمر قابل للبحث والفهم والمناقشة والبحث العلمي.

مقدم البرنامج: رأيك يا دكتور عبد الصبور؟

د. عبد الصبور مرزوق: إن كل أمر قابل للبحث والمناقشة والبحث العلمي إلا ما يتصل بالثوابت التي يقرها الدين والتي نحن بها مسلمون. يعني أنا ما أقدرش أبتدي النهارده أتكلم إنه فيه غيب أو مافيش غيب، وما أقدرش أتكلم إنه فيه بعث أو مافيش بعث؛ لأن إنكار مثل هذه الثوابت يجعلني أقول لا بد من التوقف هنا وإلا فسنجد أنفسنا، كما تفضل الإخوة المعلقون، أمام تيار مناقض جدًّا للدين من ناحية ومناقض لحقيقة الحرية من ناحية ثانية. نحن في مجتمع اتفق على أننا دولة وحكومة لها دين معين تعتقده، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الكلام عن الحرية وسيلة أو سببًا لتخطي هذه الحواجز.

المشاهد (صالح المهندي): مساء الخير يا أستاذ عماد. هناك نقطتان هاتكلم فيهما بسرعة: النقطة الأولى أعتقد أننا الآن في أمس الحاجة إلى رد المحكمة على قضية الاستتابة، هذا أولًا، الشيء الثاني والمهم جدًّا، ولحد الآن للأسف ما أحد تطرق له ولا أحد تكلم فيه، هو طبقات

المجتهدين، وهو شيء معروف في كتب أصول الفقه وموجود فيها جميعًا. الاجتهاد يا أستاذ عماد ينقسم إلى خمس طبقات، وفيه بعض العلماء يقسمونه إلى ثلاث طبقات. هذه الطبقات تحصر وظيفة كل مجتهد حسب إمكانياته العلمية. أضرب لك أمثلة سريعة من المذاهب الأربعة، مذهب الإمام أبو حنيفة عنده تلامذة كبار لو وزنتهم اليوم يزنون كل العلماء. مثال أبو يوسف على رغم جلالة قدره لا يستطيع أن يخرج عن أصول مذهب أبي حنيفة، وفي المذهب المالكي ابن القاسم رغم جلالة قدره لا يستطيع أن يخرج عن أصول مذهب مالك، ولا يستطيع أن يفتي في مذهب ثانٍ. في المذهب الشافعي نجد النووي، وهو مَن هو! النووي معروف، يصنفونه مجتهد فُتيا، أدنى درجات الاجتهاد. يعني يحفظ مسائل المذهب وينقلها للناس فقط. إحنا اليوم مع الأسف الشديد لما نقارن أنفسنا بهؤلاء الأجلاء لا نجد أنفسنا شيئًا أمام هؤلاء، ومع ذلك نتجرأ أكثر جرأة على النصوص. ونتغافل عن كل هذه المسائل العلمية المحسومة، ولا أحد يتكلم عنها وكأنها غير موجودة، رغم أنها تتصدر باب الاجتهاد والذي هو مأساتنا اليوم. اليوم إحنا مع الأسف، والمنهج الجديد اللي جعل الفقه الإسلامي شيئًا تافهًا، نجد علماء أجلاء وكبارًا نراهم في الإعلام لما نقرأ تاريخهم لا نجدهم درسوا الدراسة السليمة التي درسها الإمام مالك ولا اللي درسها الإمام أحمد ولا اللي درسها الإمام الشافعي. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها ونقف عندها. أما إذا كانت هناك مسألة معاصرة شائكة فهناك مجامع فقهية ممكن تفتي فيها برأي جماعي، لكن مسألة مثل العرش والملائكة لا يترتب عليها أثر، يأتي واحد لا نعرف من هو ويتكلم فيها كلامًا لا يقبله رجل الشارع، فهذا شيء مؤسف.

المشاهد (طلال): مساء الخير يا أستاذ عماد. اللي قاله الأستاذ أبو زيد عن التشريع والدخول في كتاب الله وحظ الذكر والأنثى، أول حاجة هذا كتاب قدسي لا يمكن أن يصل إليه أحد أبدًا، ويجيلي واحد يقول أنا بافكر، طيب ما هو الفرق بين المفكر والعالم؟! طالما المفكر بيفتي وبيدَّخل في الإرث وبيدَّخل في كذا، إيش فايدة العالم؟ العالم إيش يعمل؟ جيب لنا مناظرة بين العالم والمفكر.

مقدم البرنامج: ده حايحصل.

المشاهد (طلال): كي نعرف الفرق بينهما؛ لأن القرآن لو كل واحد بدأ يفتي فيه، هذه تبقى مشعلة للعالم الثالث كله، أنت إذا دخلت الحرم انهرت روحيًّا لقدسية الحرم، فما بالك بكتاب الله لا يأتيه الباطل أبدًا! واحد يقولك والله الذكر، والله ما أدري إيش!

مقدم البرنامج: شكرًا يا سيدي. مين معانا على الخط؟

مشاهد (نهاد أبو رفاعة): أيوه يا أستاذ عماد، لو سمحت أبغي أسأل الدكتور سيد لأن هوه توَّه بيقول إني أنا مسلم ولا أحد يسألني عن الإسلام لأنه بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وهذا كلام صحيح وهو معاه حق في هذا الموضوع. لكن أنا باسأله إذا أنا شخص حرفت لفظًا من القرآن أو

غيَّرت في حديث نبوي أعتقد أنه من حق أي مسلم أن يسأله.

سيد القمني: طبعا بالتأكيد.

المشاهد (نهاد): بالنسبة للدكتور نصر والدكتور اللي بيقول هذا الكلام، لما هو يغير شيئًا في كتاب الله أو يدعي إنه بيقول كلام وإحنا فهمناه غلط، هو غيَّر في كتاب الله، ويصبح من حق أي محكمة بل أي مسلم أن يسأله عن الكلام هذا.

مقدم البرنامج: طيب ممكن يجاوب حضرتك!

سيد القمني: يا سيدي الكريم، مسألة إن نصر أبو زيد أو أنا أو أيًّا من كتب، غيَّر أو بدَّل في كتاب الله، فهذا أمر لا يحدث إطلاقًا؛ لأنك لو قرأت ما جاء بحيثيات محاكمة نصر أبو زيد والحكم عليه، ستجد أنه وقف مع بسائط وفسيفساء صغيرة، حاول الرجل أن يقدم فيها فهمًا، هو لم يقل أنا أُغير أو إني أُقرر أو أُصدر بذلك فرمانًا، هو يحاول أن يطرح فهمًا جديدًا للمسألة، إما أن نقبله، أو نقول له أخطأت يا هذا، وأدلتنا على خطئك هي كذا وكذا وكذا. ويا أخي هذا الإسلام هو ديني كما هو دينك ولي حق التعاطي معه كما لك حق التعاطي معه، وليس في الإسلام كهنوت، وبالمناسبة — تعقيبًا على ما قيل منذ قليل — ليس في الإسلام أزهر، الإسلام حقك في العلاقة بالله، وأن تقول، فإن أخطأت، ردك من هو أعلم منك، وهذا أمر بسيط متفق عليه إسلاميًّا وإنسانيًّا.

مقدم البرنامج: تعقيبك يا دكتور عبد الصبور.

د. عبد الصبور مرزوق: أنا عايز أتكلم في نقطتين، الأولى فيما تكلم فيه الدكتور سيد أنه لا كهانة في الإسلام، وهذا صحيح، لكن ليس في الإسلام أزهر؟ وأنا لا أدافع عن الأزهر، وإنما أتحدث عن وجود مؤسسة دينية تكون مهمتها جمع أهل الذكر الذين يلجأ إليهم أي مفكر في هذا المقام. وقضية للذكر مثل حظ الأنثيين هي قضية محسومة نهائيًّا في القرآن الكريم، وفي ختام هذه الآية: (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ)؛ [٢] فالقرآن جعلها قضية محسومة.

مقدم البرنامج: نعدكم أننا هانخصص حلقة أخرى بموافقتكم طبعًا لمناقشة هذا الأمر ... فنحن مستمرون في فتح ملف الاجتهاد في الإسلام ... ودائمًا نناقش بكل حرية ودون رقابة.

(انتهى وقت البرنامج.)

---

[١] مناظرة تمت على شبكة تليفزيون الأوربت الفضائية بين سيد القمني ود. عبد الصبور مرزوق بتاريخ ١٩٩٦/١١/٣م. والبرنامج

تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يُقدَّم على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونيًّا.

[٢] نود التنبيه إلى أن الآية المذكورة ليست في سورة النساء، وإنما في سورة الطلاق، ولكن أُبقِيَ عليها كما وردت في النقاش وفقًا لتسجيل المؤلف. (الناشر)

الفصل الثالث عشر

حدود الاجتهاد (مناظرة تليفزيونية ٢)[١]

مقدم البرنامج: هناك العديد من الحلقات التي طلب السادة المشاهدون مشاهدتها، ونجيب على العديد من التساؤلات ... وهناك قضايا عديدة قاربت على الاستكمال ... طبعًا لا توجد قضية استُكملت من جميع جوانبها، بل إن كل قضية بها نوع من الديمومة فتستمر دائمًا في حالة تفاعل، لكن على الأقل نحاول أننا نقترب من بعض وسائل العرض التي تكون شاملة أو تشفي غليل بعض السادة المشاهدين ... كان عندنا يوم الأربعاء حلقة تدور حول قضية الاجتهاد في النص القرآني، أو مع النص مثلما يحب البعض أن يناقشها ... وبعض الناس، أمثال أحد ضيوفنا اليوم، يعتقد أن القضية لا ينبغي أن نطرحها بمفهوم هل أغلق باب الاجتهاد أم لا ... لكن ما زالت القضية مطروحة ما زالت تفاعلاتها موجودة، واليوم هو استمرار لمناقشتها ... كنا قد عرضنا كما طلبت إحدى المشاهدات الكريمات، قمنا بعرض أجزاء من بعض الكتب التي أثارت ضجة في الآونة الأخيرة، وتفضل الدكتور محمد عمارة صاحب كتاب حول هذا الموضوع خاص بالدكتور نصر حامد أبو زيد، وكان الكتاب كله مخصصًا للرد على أفكاره، وكان موجودًا في نفس الندوة الأستاذ فهمي هويدي المفكر المعروف ... وقام الاثنان بمناقشة هذه القضية ... اليوم ما زال النقاش مستمرًّا حول هذا الموضوع ...

حلقة اليوم بها ضيفان ممتازان؛ ضيفنا الأول أستاذي أنا شخصيًّا أستاذنا د. كمال أبو المجد، وزير الإعلام المصري الأسبق، وأستاذ القانون بجامعة القاهرة، وعضو مجمع البحوث الإسلامية، ورجل دائمًا يتصدى للعديد من القضايا التي تهم العصر فيما يختص بمدى ملاءمتها للفكر والعقيدة ... أيضًا معنا في الاستوديو د. سيد القمني، باحث في تاريخ الأديان وصاحب مجموعة من الكتب أكثرها إثارةً الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، وقد قام بعشرة أعمال، طبعًا هناك كتاب آخر هو الأسطورة والتراث، أعتقد أنه كتاب هام جدًّا. وأعتقد أن العشرة كتب هي نوع من التعليق والرؤية والتحليل للعديد من الثوابت التي قد يعتقد البعض أنها غير قابلة للنقاش. اليوم توجد بالاستوديو مدرستان — إذا جاز التعبير — من التفكير، نرجو أننا من خلال طرح القضية من خلال وجهات النظر المتعددة، أن نستطيع أن نقترب إلى تصور حول طبيعة القضية.

أستاذنا الأستاذ كمال أبو المجد. أهلًا بك وأهلًا بالدكتور سيد. ود. كمال إذا سمحت حضرتك أذكر في الحلقة التي كنت بها مشكورًا تتحدث معنا على الهاتف، حينما ذكرت عبارة «هل باب الاجتهاد أُغلِق» وجدت في صوتك نبرة من الحماس ممزوجة بالغضب، وتقول: «يا سيدي (بطريقتك هذه)

يا سيدي هذه القضية أصلًا لا يجب أن تطرح بهذه الشاكلة.»

د. كمال أبو المجد: سأعرض كلمات موجزة ولكن أرجو أن تكون واضحة ... وأنا قادم إلى هذا اللقاء سألت نفسي: ماذا نفعل؟ لماذا نحن هنا؟ ومن نخاطب؟ وماذا نريد؟ هناك شيء لا بد أن يكون وشيء لا ينبغي أن يكون. أصحاب القضايا في أمور متخصصة فيها خلافات رأي بين المتخصصين قد لا يكون هذا أنسب المجالات لطرح القضايا المتخصصة؛ لأنها قد يُساء فهمها وقد لا يُفهم مرماها وقد يسيء طرحها إلينا، إنما القضية التي لا ينبغي أن تغيب أبدًا أننا ننتمي إلى أمة، فإذا كنا نتحدث عن الاجتهاد في الإسلام، فالقضية ليست الإسلام. القضية هنا أن الأمة في عثرة وأن الأمة تحتاج إلينا، فنحن نبحث هموم أمة على أول طريق النهضة، وبالتالي قضية الاجتهاد لا بد أن توضع في هذا الموضع: هل يمكن لهذه الأمة أن تنهض وهي تعيش تمامًا على التقليد والسلف؟ لذلك لا بد من اجتهاد، وما هو نوع هذا الاجتهاد؟ ما هو موضوعه؟ ما هي مساحته؟ ما هي أدواته؟ ما هي شروطه؟ ما هي آفاقه؟ ثم نضع حدودًا، فالذي أتصوره أن الأمة إذا لم تجتهد في الأمور العملية والتشريعية، وفي المنطق العقلي بصفة عامة، يصبح ليس من حقها أن تتفاعل وليس من حقها أن تتوقع نصر الله؛ لأن الله تعالى يقول: (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ)، ونصر الله في أمور كثيرة ليس في أمور الأدعية فقط، وهي أمور جليلة، إنما الأخذ بالأسباب لأن الله ليس بينه وبين أحد حجاب، من أخذ بالأسباب وصل، ولم يمنعه شيء، ومن لم يأخذ بالأسباب لن يصل. فالأمة الآن، وقد عطل أمرها وجمد حالها، تريد أن تنطلق، لا بد لهذا الانطلاق من شروط، من هذه الشروط: أن نتجاوب مع الواقع وأن نتعامل معه، وأن تجد الأمة نفسها، وأن تغير أمرها، وكيف يتأتى هذا بغير اجتهاد؟! لقد نعى القرآن الكريم بعبارات واضحة تعطيل العقل: (قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، فهذا موقف منكور بالإدانة في القرآن الكريم، ثم من قال إن باب الاجتهاد أغلق؟ هذه مقولة جرت بها أقلام دون تحقيق. حتى في العصور التي قيل فيها بهذا امتلأت الساحة، ولا تزال، بمجتهدين في المذاهب، بمجتهدين مطلقين، بمجتهدين في التفسير، بمجتهدين في الأحاديث، بمجتهدين في الفقه، وأنا أريد القول إن الذي نحتاج إليه ليس خلاف العلماء المتخصصين في مسألة تاريخية النص أو عدم تاريخية النص أو طريقة فهمه، هذه خلافات علمية وطرحها على العامة قد يضر. إن ما لا بد أن يعرفه الجميع أن لكل عصر فقهه وأن الاجتهاد ... واستفراغ الجهل هذا له معنًى وهذا له معنًى، والدكتور سيد يعلم هذا جيدًا للوصول إلى حكم عملي، وإلا فما كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع. الأمة الآن عينها على الواقع وعلى نفسها، تعرف أن هناك أساسًا ينبغي ... فلا نريد أن نبتعد بها عن هذا الطريق، العالم متواصل، العالم تتسارع خطاه، هذه الأمة إذا اشتغلت عما ينفع بما لا ينفع أظن أن أمرها يصير فرطًا.

مقدم البرنامج: د. سيد حضرتك ذكرت في الحلقة الماضية أن هناك نوعًا من الكوابح، أو أن

هناك أمورًا تمنع الاجتهاد، ودللت على ذلك بعدة أمثلة بسيطة، ولكنك لم تشرح بالضبط وجهة نظرك كاملة.

د. سيد القمني: أي نعم ... الدكتور أبو المجد أوضح الآن أن الأمة في عثرة، وأنها في حاجة إلى نهضة وفي حاجة إلى الاجتهاد المستمر الدائم، وأن نأخذ بالأسباب، ولكن ما أود أن أوضحه قبل الإجابة عن سؤالك بالتحديد، هو لون من ألوان الالتباس. ربما أنا وصلني الأمر ملتبسًا بعض الشيء، وأستعين هنا ببعض ما تكلم به الدكتور أبو المجد معنا في حلقة ٣ نوفمبر الأحد السالف. والملاحظ عمومًا في الخطاب الإسلامي على درجاته، سواء المتشدد أو المعتدل أو ما يوصَف بأنه مستنير، فيه لون من التعالي الشديد الذي يستند بالضرورة إلى ما يدعم هذا التعالي، وأظنه وأتصوره امتلاك الحقيقة المطلقة في نصوص دينية لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا خلفها، ولكن أنا حتى أفهم، وحتى نستطيع أن نجد مساحات مشتركة للتفاهم، كما قال الأستاذ أبو المجد المرةَ الماضية، نسأل كيف يتفق امتلاك الحقيقة المطلقة، هذه التي لا يدخلها الباطل إطلاقًا، وبين القول بالتفكير العلمي الذي لا يعرف شيئًا اسمه الحقيقة المطلقة، ثم نقول إننا نأخذ بقواعد التفكير العلمي؟! وأنا الحقيقة مسجل عندي بعض الكلمات الطيبة والجميلة من الأستاذ الدكتور أبو المجد، كقوله على الهاتف بالحلقة الماضية: «يزعجني ويزعج كل عاقل الحجر على حرية الفكر باسم أي شيء، ولو كان الدين.» هذا كلام جميل ورائع جدًّا، لكن هذا كلام التفكير العلمي والمنهج العلمي في التفكير، لكن في المقابل، فإن سيادته قد أشار إلى أنه منزعج أيضًا جدًّا، ووصف هذا البرنامج بأنه كارثة، وأن فتح الحديث عن الاجتهاد أو السؤال هل باب الاجتهاد مفتوح أم لا، هذا كارثة أيضًا. الحقيقة أنا في تصوري أننا في كارثة حقيقية كبرى، وفي نفس الوقت قال د. أبو المجد يزعجني انتشار مدرسة أسميتها مدرسة الاستحلال العلمي، وأن هذه المدرسة تحت راية الاجتهاد وتحت راية الحرية تخبط خبطَ عشواء، وتقول كلامًا لا يليق بالعقلاء، كيف أستطيع أن أوفِّق بين المعنى الأول والمعنى الثاني في كلام د. أبو المجد؟ المعنى الأول نحن مع الحريات وفتح باب الاجتهاد، لكن في نفس الوقت نجد الخطاب الإسلامي يقدم نموذجًا، كما في الكلام الذي قاله د. أبو المجد في الحلقة الماضية بشأن نصر حامد أبو زيد، كان فيه إنكار لما يقول وتخطئة، بل أنا كنت معه في مسألة خبط العشواء، كيف يتفق هذا مع ذاك؟! هل نفتح باب الاجتهاد؟ هل باب الاجتهاد مفتوح ونحن نؤمن بالحريات فعلًا؟ أم أن باب الاجتهاد مغلق ونحن بحاجة إلى اجتهاد؟ هل يعني هذا الكلام مخالفة «أبسط القوانين العقلية؛ قانون الهوية وعدم التناقض»؟ كيف أكون ضد محاولة نصر في طرح ما يريد أن يوصله للناس — محاولة لا أقول اجتهاد بالمعنى الفقهي؛ لأن أنا شخصيًّا لا أجتهد بالمعنى الفقهي — لكن محاولة فهم طرح أسئلة صعبة فرضها الواقع والمستجدات، هل أقبل هذا التناقض الذي يتعارض مع القوانين العقلية؟ وهذا التناقض رأيته أيضًا في كتاب أهداه لي الأستاذ الدكتور أبو المجد «رؤية إسلامية معاصرة» مليء بالبنود الهائلة عن

الحرية والديمقراطية، لكني أجد بندًا في الكتاب ص٥٧ المادة ١٢ في طبعته الثانية ...

مقدم البرنامج: ممكن قراءة اسم الكتاب مرة أخرى.

سيد القمني: رؤية إسلامية معاصرة، إعلان مبادئ.
في الترتيب ثانيًا «حق تقرير الأمور للأغلبية وتظل حقوق الأقلية مصانة ومحفوظة»، وبناءً على هذا يتم تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية وفق هذا التقديم ... طيب في مجتمع مثل المجتمع المصري أو اللبناني، المجتمع الذي يشمل أكثر من طائفة دينية، كيف يمكن التحدث عن أغلبية وأقلية في جانب وعن ديمقراطية في جانب آخر؟ أي ديمقراطية التي قبل أن تبدأ نقول إن فيها أغلبية وفيها أقلية؟ ثم هذه الأغلبية الطائفية كيف نحددها؟ ومن سيحددها؟ أنا مسلم والدكتور مسلم ولكني أخالفه الرأي، فأنا ... هل سأقف عنصرًا منفردًا لا مع الأقلية ولا الأغلبية؟! إن مفهوم الأغلبية سياسيًّا له شرطان: أن الأغلبية قابلة للتغير، ممكن أن تكون أقلية، وهذا لا ينطبق على الظرف والتكوين الطائفي.

مقدم البرنامج: حضرتك بتفتح العديد من المواضيع.

سيد القمني: أنا لا زلت في مسألة أني أريد أن أفهم هذا التناقض ما بين الديمقراطية و...

مقدم البرنامج: نسمح للدكتور كمال بالرد على ما قلت ثم تستكمل ما قلت.

سيد القمني: أنا لم أجب عن السؤال الأول على أية حال، أنا كل ما في الأمر كنت أقوم بمحاولة الفهم: كيف يمكننا أن نفهم، يعني واحد طالب في كلية الحقوق مسيحي حصل على تقدير امتياز لا يعيَّن وكيل نيابة؟! وأي وكيل نيابة سيكون قاضيًا!

مقدم البرنامج: حضرتك فجرت حزمة من الموضوعات.

سيد القمني: كلها حول مسألة التناقض ...

مقدم البرنامج: بعد أن يرد عليك الأستاذ أبو المجد حضرتك تعود مرة أخرى.

د. كمال أبو المجد: أنا لا أرى أي تناقض. دعني أكون أكثر صراحة. هناك في الحوار الدائم في مجتمعنا المصري والمجتمع العربي والإسلامي مخاوف متبادلة، بعضها مشروع وبعضها غير مشروع، المشروع منها في رأيي هو أن يخاف أحد الفرقاء أن يغيب احترام حرية التعبير عند الفريق الآخر، وبالتعبير القانوني مع ما يترتب على ذلك من آثار التضييق والمصادرة والامتهان والحجر والإبعاد والإدانة. وأنا ما قلت يومًا ما شفاهةً أو كتابة إني أبيح الحجر، أو أن يصادَر رأي؛ كائنةً ما كانت المخالفة، لكن هذا لا يمنعني من التخطئة في مقام الحوار، وأنا أعترف أحيانًا بالخطأ، من حسن الحوار أن يكون هناك استعداد لتغيير الرأي والاقتناع والإقناع. أنا لا أرى أي

تناقض في أن أخطِّئ منهجًا معينًا، إن الأمة تعيش حربًا أهلية يرتادها ويقودها مثقفوها، وهي حرب أهلية وليست حوارًا، والطاقة المستهلكة في هذه الحرب ينبغي أن توفَّر وأن تُدخر، بأن نقوم بما أشرت إليه في الحديث الهاتفي؛ نحرر الخلاف، أنا أرى أننا مختلفون حول قضية واحدة لكنها أساسية، وهي من القضايا التي لا أحب أن أشغل بها المشاهدين، لكنها في الواقع تتعلق بمعنى تاريخية النص، لأن أنا اليوم حتى أخاطب الأمة وأكسب ثقتها وأدعوها إلى النهضة، وأن تستجيب، لا بد إن أنا وهي في أرضية مفترضة وإن كانت لي خلافات؛ لأنني أعتز بها وأواظب عليها، الأرضية هذه عند الأمة هي الإيمان، والإيمان عند الأمة شيء بسيط جدًّا، ويسعها بعد ذلك أن تقبل كل أنواع الخلاف. د. سيد يعرف وأنا أعرف وأنت تعرف المنازعات بين الأشاعرة والمعتزلة، وأنه قد نشب خلاف بين أصحاب المذاهب، وأنا أشرت في إحدى مقالاتي إلى خلاف حاد بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإمام مصر الليث بن سعد، وتبادلا الخطابات روعة في وضوح الخلاف وأدب الحوار. أنا لا أتهم أنا أكلمك بكل صراحة (يرفع كتب سيد القمني مشيرًا إليها)، أنا استمتعت بهذه القراءة وخرجت متعلمًا منها.

مقدم البرنامج: استراحة ثلاث دقائق. بعد الاستراحة نستكمل.

مقدم البرنامج: نتابع مناقشة قضية الاجتهاد. الأستاذ كمال كان يتحدث قبل الاستراحة، تفضل يا دكتور.

د. كمال أبو المجد: أنا في كلمات واضحة جدًّا أقول إن نقطة الخلاف، ولست متأكدًا أنه خلاف، بيني وبين د. سيد القمني، إنما أتحدث عن منهجية لأني وجدت في كتاباته ما يشككني في وجود هذا الخلاف ... كيف؟ المنهج الأول منهج إيماني، يرى أن النص القرآني، نص الوحي، منزل؛ أي إنه داخل على السياق، لكن كونه داخلًا في السياق ليس معناه أنه يلغي تاريخ الإنسانية، إنما القضية أنه ليس من صنع الواقع، إنما المسلم أو المؤمن، كتابه يهودي مسيحي أو مسلم، يؤمن أن الله يوحي إلى نبيه وهو نزل ...

مقدم البرنامج: أي ليس صناعة بشرية.

د. كمال: بالتالي قضية الوحي قضية محورية ولكن ليس معنى القول إن الوحى ليس نصًّا تاريخيًّا أنه يلغي تاريخ الإنسانية، أنا حين أقرأ للدكتور سيد القمني عن الأسطورة استمتعت، وأنا قارئ من قبل في تاريخ الأمم البائدة حصل تسلسل تاريخي، لكن في لحظة تاريخية معينة جاء الوحي ...

مقدم البرنامج: وحضرتك هل ترى خطأ عند د. سيد أو تختلف معه؟

د. كمال: إن بعض عباراته تلتبس عليَّ؛ لأنها قد توحي أن النص ليس مفارقًا إنما هو جزء

من واقع الأحداث، يعني في كلامه عن الأساطير كل ما ذكره صحيح وموثق، وهو عالم محقق ومدقق، واعتمد الآثار من الكتب المعتمدة عند أهل الملة وأهل الأمة: ابن الأثير وابن كثير والطبري والمسعودي وغيرهم، كذلك في العرب البائدة وفي الأساطير، كل هذا صحيح، إنما يبقى أنه لا أستطيع القول بأن النص امتداد لهذه الأساطير. الأسطورة تعبير عقلي وفيض وجداني عن أمور وهموم وتطلعات وأشواق تعبر عن واقع، ليس لها سند معلوم وليس لها مصدر معلوم، وهو يعلم ذلك أكثر مني. فحين يأتي الإسلام ويقول إن بعض هذه الأساطير حقائق كقصة الكعبة وزمزم وإبراهيم وقصة الصفا والمروة، عليَّ أن أوقن. معنى هذا أن بعض الأساطير القديمة لم يكن لها أثر، وإنما صنع خيال، ولكن ليس هناك تاريخيٌّ ما ينفي أن لها أصلًا وأُضيفت إليه أشياء حين يأتي النص القرآني المنزل، ويقول: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)، ثم يتكلم عن إبراهيم وإسماعيل والذبح، أنا كمسلم أصدق؛ لأن هذا هو الفيصل بين الإيمان واللاإيمان.

مقدم البرنامج (متوجهًا إلى سيد القمني): هل أنت مصدق أم غير مصدق؟

د. كمال: كيف أناقشه في هذا؟ أنا أجاوبك عنه، هوه مصدق.

سيد القمني: سيدي الكريم، على أية حال، هذه المنطقة أحاول دائمًا أن أنأى بأصدقائي أن يسألوني فيها. هذا أمر قلبي وعلاقة جوَّانية بالمقدس ... إلخ.

مقدم البرنامج: قلت إنك تعتقد أنه ليس صناعة بشرية؟

سيد القمني: أنا حين أتحدث أحاول ألا أكون مجتهدًا بالمعنى الفقهي؛ لأن هذا له أربابه وله أهله، وأنا قلت ذلك المرة السابقة، أما مساحة اجتهادي في الجانب الإنساني؛ لهذا أتحدث في الجوانب الإنسانية في المجتمع في الاقتصاد في السياسة، صياغة الفكرة في فرز المجتمع وهو يخرج ويفرز بنية علوية و...

مقدم البرنامج: في بدء كلامك في هذه الحلقة كنت تتكلم عن بعض سلبيات الخطاب الإسلامي، هنا أريد أن أسألك سؤالًا: إذا كان الآخر يمثل الخطاب الإسلامي، فأي خطاب تمثل أنت؟

سيد القمني: يا سيدي الكريم، أنا أمثل خطابًا علميًّا بمعنى أن قواعد العلم يجب أن تشمل كل موضوعات المعرفة، والدين أيضًا بنصوصه معرفة نتعامل معها وفي قراءتها بالمنهج العلمي.

مقدم البرنامج: هل تقصد وضع العلم في مواجهة الدين؟

سيد القمني: لا، إطلاقًا.

عماد: لكن تحت مظلة الدين يمكن تتكلم.

سيد القمني: هناك قضايا يجب الحديث فيها على نفس الأرض، وهناك قضايا، كقضية الحريات، يجب أن يحدث التماس فيها من الخارج وليس من على نفس الأرض؛ فقضية الحريات أضيف إليها رصيد كبير جدًّا منذ زمن الوحي، كل ما في الأمر أننا نطرح السؤال ونترك لأرباب الاجتهاد أن يقدموا فيه إجابة، أن نفتح النوافذ، أن نسأل، أن نثير الدهشة، يعني في المسألة التي تحدث فيها د. كمال عن قراءتي للأساطير، وأن الوحي قد يبدو مع التباس بعض العبارات امتدادًا لهذه الأساطير. بالإمكان القول، وهو ما قلته في كتاب الأسطورة والتراث؛ أن الوحي الإسلامي لم يأتِ دفعة واحدة، إنما أتى متدرجًا في ثلاثة وعشرين عامًا هي عمر الوحي وتواصل السماء مع الأرض، هنا تفاعل مع الواقع ومع المأثور ومع الأسطورة ومع قصص الحضارات، ثم شكل لها امتدادًا، هنا الحكم مسألة الإيمان من الدرس الموضوعات التي تتعلق بمسائل الغيب والإله، هذه محل إيمان وليست محل درس، إما أن تؤمن بها أو لا تؤمن بها، لكن هناك أمورًا نتعرض لها هي محل الدرس، وهي ما يتعلق بمعاشنا وبمصالحنا وبوطننا ومستقبلنا.

مقدم البرنامج: السؤال موجَّه إلى حضراتكم: ما الفارق بين إعمال العقل وبين التجرؤ على النص؟

د. كمال: الحقيقة أنا أرى أن نوضح الأمر توضيحًا ليس بعده توضيح.
القضية أن الذي يؤمن بالوحي يؤمن أن النص كما جاء هو كما جاء وأنه حي، لكن النصوص مع ذلك ليست سواء في دلالاتها على معناها، وأنا هنا أتكلم عن الأحكام العملية؛ لأنه ليس هناك تدرج في الأحكام العقائدية منذ بدء أول آية: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خلق الإنسان من علقٍ)، التوحيد واضح والألوهية واضحة، هذا لا يحتاج إلى تدريج، الذي يحتاج إلى تدريج في الواقع التاريخي والمجتمعي والاقتصادي هو الأحكام العملية؛ لأنك تأخذ الناس على شيء وتنتزعهم من شيء، ومن هنا احتاج الأمر إلى تدرج في التشريع، والذي يتطور هو تطور التشريع لملاقاة حاجات الناس المتجددة ... أما الحقائق فلا تدرج فيها، والإسلام في عقيدته واضح، كان فيه الشعراء والأنبياء وجاء القرآن الكريم أقر العقائد الصحيحة وأنكر العقائد التي اعتبرها فاسدة، فهنا لا يوجد اجتهاد. الاجتهاد الذي نتحدث عنه ينبغي أن يكون في الأمور العملية، وأنا أتفق مع كل المجتهدين في أن النص قد يكون حمَّال أوجه، ونحن لدينا رسالة جليلة لابن تيمية الحنبلي «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» وأبو حنيفة يقول: «علمنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه.» بل في فهم النصوص في أمور أخرى مما نقول: القرآن القديم قديم أم محدث؟ تكلم فيها العلماء، الرمز والحقيقة تكلم فيها خاصة المتكلمين. إنما أنا أريد اليوم أن نشغل أنفسنا بالاجتهاد الذي يتعلق بحرية الناس، في أن تتعدد آراؤهم في المسائل الاجتماعية والسياسية والعملية والاقتصادية؛ لأن الناس تنتقل من التوحيد في قضايا العقيدة إلى الإصرار على الوحدة في قضايا المجتمعات، وهذا مستحيل، وبالتالي أقول جوابًا لا غموض فيه: إن الذي يؤمن بالوحي ينبغي أن يفرق بين نص

الوحي وأي نص آخر، ويمكن كلام الدكتور سيد عن الخطاب الإسلامي كأنه يريد أن يقول خطاب الناس في فهم النص.

مقدم البرنامج: ننقل الموضوع على الأرضية ... نجد أبحاثًا واختلافًا كبيرًا حول اختمار اللبن وإن اختمر هل يسكر أم لا؟

د. كمال: كلام على العين والرأس.

مقدم البرنامج: على الرأس لكن أتكلم عن اختمار اللبن ولا أتكلم عن فساد الأنظمة السياسية؟

د. كمال: هذا أمر لا أشغل نفسي به؛ لأنه سقم في الفكر وعِوج في الرأي، وكم من الناس يزعجهم أن الواحد لا يرسل لحيته ولا يزعجهم أن تغيب الشورى ويضيع العدل ويتأخر المسلمون ويتبعوا المشرق والمغرب والشمال والجنوب! هذا خلل في الرؤية. إن الأمة تريد أمرين: تريد أن تعيش هذه الدنيا، وأن يكون لها شأن بين الأمم.

مقدم البرنامج: تفضل يا دكتور سيد.

سيد القمني: الأمة الإسلامية جاء عليها زمن كانت إمبراطورية قوية، هذه القوة جعلت القائمين على هذه الأمة لا يخشون على النظام ولا على الفكر ولا على عقيدة الأمة، وفتحت كل الأبواب على كل الثقافات. فترجمت العلوم الهندية والفلسفة اليونانية، بل انفتحت على ديانات مغايرة للإسلام تعد ديانات وثنية، بل وكتب فلاسفتنا الكبار الذين نعتز بهم اليوم كتابات مزجت بين تلك النظريات القديمة التي تُعَد وثنية وبين الإسلام، مثل الفارابي وابن سينا في نظرية الفيض مثلًا، ولم يتورعوا عن مناقشة أكثر الأمور حساسية حتى وصلوا إلى ذات الله وناقشوها وجعلوها موضوعًا للمناقشة والمعرفة، وتساءلوا عن علاقة ذات الله بصفاته، وهل صفاته حقيقية أم مجازية. وانقسموا في ذلك مدارس، هذا كان في عصر القوة زمن الثقة، عندما أنجبت الأمة كوكبة من العلماء نفخر بهم ساهموا في تأسيس العلم البشري الموجود اليوم. لكن في ذات الوقت قبِلت الأمة ضريبة أخرى هي حرية الفكر، فقبِلت أن يكون من رجالاتها الطبيب الرازي، هذا الطبيب كان رجلًا متميزًا كعالم طبيب وملحد. ابن الراوندي الذي عاش حوالي مائة سنة وخمسة لم يُرمَ عليه حجر، وكتب حوالي أكثر من ٩٣ مصنفًا أو أكثر من ٨٣ بأسماء الجواهر والأحجار الكريمة الزمردة والياقوتة والمرجانة، كلها فيما يقول مخاريق الأنبياء، أي دحض الرسالات. ومع ذلك لم يتعرض له أحد، الأمة قوية والإسلام لا يخشى على نفسه، ومؤسسات الدولة لا تخشى على نفسها. وحين أُغلقت كل الأبواب بمجيء الخليفة المتوكل بعد المعتصم، وهذا ما نعرفه تاريخيًّا، بدأ عصر الانحلال ووُضعت الشروط على الاجتهاد، رغم أن هذه الشروط لم تكن موجودة زمن المعتزلة الذين أعلوا من شأن العقل؛ بحيث إنه لو اختلف مع نص قرآني، نأخذ بما قاله العقل. هذا ما قاله المعتزلة في

زمنهم. أما مسألة ما الذي يكبح الحريات الآن، هذه الكوابح التي سألت عنها في البداية سيدي الكريم، الدين في حد ذاته ليس مع تقدم أو تخلف، هو كيف نتعامل مع نص الدين؛ أما أن نجعله مُعينًا للتقدم أو نجعله كابحًا له مساعدًا على التخلف، حسب قراءة كلٍّ منا لهذه النصوص الدينية، ولا أقول إني أجتهد بالمعنى الفقهي، أكرر، أنا أحاول أن أفهم وأطرح أسئلة قد تبدو حرجة وقد تبدو حدية بعض الشيء، ولماذا تطرحها الآن؟ لأن الكارثة التي نعيشها أكبر من الصمت على أسئلة محرجة.

مقدم البرنامج: نبدأ في أخذ الأسئلة ... ونرجو من المشاهدين تلخيص الأسئلة في ٣ دقائق.
أول اتصال «د. إلهام الدجاني».

المشاهدة «إلهام الدجاني»: ... السلام عليكم
جزاك الله خيرًا عن المجهود العلمي الذي بذلته الأسبوع الماضي، فكانت فاصلة قاطعة على كل ما قد يعتقده أي شاب من الشباب أو قارئ في كتابَي أبو زيد والعشماوي، كما حكم عليهم محمد عمارة ولست أنا ... بالنسبة للدكتور أبو المجد يقول إنه عجبه بعض الأشياء في كتاب د. سيد وهناك ما لم يعجبه. ممكن يوضحه حتى نعرف؛ لأننا في المستقبل إذا قرأنا الكتاب فالأستاذ عالم ودكتور نستفيد منه. عجبني أبو المجد حين فرق في التدرج في التشريع وبين التطاول على الأحكام، ورأيي أن هناك فرقًا بين الاجتهاد وبين حرية الفكر التي تكون اجتماعية سياسية اقتصادية ثقافية، أما الاجتهاد فيكون في أمور الفقه ونتركها للمتخصصين للدخول في أشياء مستجدة علينا في القرن الـ ٢١، مثل قضية زراعة الأعضاء هذه مشتبه فيها. د. سيد يقول إن الإسلام انفتح على الحضارات السابقة، طبعًا شيء طبيعي ولكن فيما يتفق مع الكتاب والسنة، وليس مع ما يختلف مع تعاليم ديننا، وحرية الفكر ليست في الكتاب ولا شخصية سيدنا محمد وما ورد في سيرة ابن هشام كذلك الخلفاء الراشدون، هذه أشياء تُترك للمتخصصين في علم التاريخ، ويجب أن يكون عندهم حاسة إسلامية، إنه يبحث في التاريخ الإسلامي، فإن لم تكن لديه الحاسة الإسلامية أنه يبحث في التاريخ الإسلامي صعب أن يقرأ فيها.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج: ما زال فتح القضية مستمرًّا.
الدكتور إلهام الدجاني أثارت عدة نقاط هامة، د. كمال، ما هي ملاحظاتك السلبية على كتب د. سيد؟

د. كمال: د. سيد أشار في كلامه معاتبًا بموضوع الاستحلال العلمي ... إننا نطرح قضايا

للأمة، ولا بد أن نصطلح على منهج. المنهج الإسلامي في المعرفة يقوم على ساقين: ساق عقل وساق نقل ... فلا أتصور أن يكون المنهج العلمي في الإسلام إلا قائمًا على هاتين الساقين ... ولا أقول إنه منهج عقلي خالص؛ فأطوِّع الوحي وأهوِّن أمر الوحي، وأنا حين أقرأ كتاب د. سيد أنا لا خطر عليَّ منها حين يتدرج في الأسطورة في الذبح والقرابين عند اليهود والبابليين والآشوريين والفراعنة واليهود والمسيحيين، كأني وأنا في القربان والحجر الأسود والحج الذي هو حج في اللغة، كأني أنتقل من أسطورة إلى أسطورة، وكأن الوحي في السياق التاريخي إحدى المراحل العابرة. أنا أعتقد أن القارئ غير المتخصص قد يصيبه هذا الضرر. النقطة الثانية: مسألة تاريخية النص أيضًا والإصرار عليها يكاد ... لولا أني متخصص، والعبارة أكبر من الدلالة بالإشارة، فقد جاء الدكتور سيد في آخر كتابه «الأسطورة والتراث» وقال عن القرآن الكريم: «فالكتاب متكامل بذاته مستغنٍ عن الدفاع عنه بنفسه؛ فقد وصل الإسلام تكامله واستقراره في حياة صاحب الدعوة ﷺ وهو الأمر الذي لا يخشى معه عرض مسألة ... إلخ» هذا كلام متخصصين ونحن لسنا مضطرين أن نوقِع القارئ في مثل هذا الشك وهذه الشبهة، ونحن ندافع عن قضية هامة. وغير صحيح ما قاله الدكتور سيد وآسف أن أقول ذلك ... أن الإسلام انفتح على الحضارات ولكنه لم يذُبْ فيها، وأنا قارئ للتراث الإسلامي وأعرف المتكلمين أين تأثروا بالفرس والهند وكذلك الصوفية من الحسن البصري حتى هذا الزمان، أعرفهم كما أعرف كف يدي، لكن كل مذهب وله هوية ... هل أنا يمكن أن أقول إن الماركسية هي أي شيء وأغيِّر وأقول ليست هناك دكتاتورية بروليتاريا، مفيش تفسير اقتصادي للتاريخ، مفيش مادية جدلية ولكنها مع ذلك تعد ماركسية؟! إن الإسلام يظل له كيان رئيسي، أمور لا وجود للخلاف فيها، وأمور كثيرة لا بد من الخلاف فيها، الذي أريد قوله أن الإسلام انفتح على الحضارات؛ لأنه بعد أن يصل الإسلام إلى الناس هم بشر يتعامل بعضهم مع بعض، يأخذون وينتفعون، وحتى في الأعراف الموجودة في الهند غير هنا. تبقى جزئية خطيرة جدًّا هي المسيحيون في المشرق، موقفي أنا وإخوة آخرون واضح. إن الإسلام اتخذ موقفًا واضحًا من النصارى المسيحيين بشكل جاد، وأن حريتهم في عباداتهم أمر أساسي، والأمر الثاني أنهم يتمتعون بكل ما لنا ويؤدون كل ما علينا، وكلمة الذمي: إن الذمة من العهد، ونقول أهل الذمة؛ أي أهل العهد. وكانت تعبيرًا عن الأداة القانونية التي التزمت من خلالها الدولة المسلمة بحماية وإعطاء الحقوق لغير المسلمين، لكن مضمون هذا العرض هو الحرية الكاملة والمساواة الكاملة، وقد حل مكانه الدستور، فحين يقول د. سيد: وكيل نيابة مسيحي على عيني ورأسي، ولو تقدم لوظيفة يستحقها وحُرم منها، أنا كمحامٍ ممارس أرفع له قضية، أما حرية الأغلبية في أي قضية من القضايا إذا تكونت أغلبية، خاصةً في قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، رغم دقتها وعدم تحديد مفهومها وضمانات القائمين عليها ... إذا اتخذت أغلبية الناس مسيحيون وبعض المسلمين أو مسلمون وبعض المسيحيين بتطبيق الشريعة الإسلامية، فهل آخذ برأي الأقلية؟

... أين المنطق في هذا؟ المهم أن الحقوق والحريات تخرج مطلقة وأن الشعائر الدينية تؤدى.

سيد القمني: أنا لم أقل إن الأمة الإسلامية ذابت في علوم الآخرين وحضاراتهم، إنما قلت تحديدًا: انفتحت ولم تخَفْ ولم تخشَ منها وتعاطت معها وتجادلت وأخذت فلسفات من الآخرين، بل وقلت ما نصه: وأخذت عقائد قديمة ومزجتها بعقائد إسلامية؛ فيما يسمى نظرية الفيض عن الفارابي وابن سينا، وهؤلاء نفتخر بهم ونعتبرهم من كواكب سماء التاريخ الإسلامي والعربي أيضًا. أما عن نظرية الأغلبية، أنا أقول إن الأغلبية مفهوم سياسي يعني أن الأغلبية قد تكبر أو تصغر وتصبح أقلية، وهي مفتوحة لمن يخرج ويدخل إليها. أنا أحاول طرح التساؤلات: أنت عندما تفرض شريعة الأغلبية، فإن هذا الفرض ليس فرضًا لشريعة، بل فرض للأغلبية نفسها؛ لأن هذه هي قوانين الأغلبية، ويقال إننا متسامحون، ولكن هناك سؤالًا: من أعطانا الحق للتسامح أو عدم التسامح مع مواطنين مثلنا؟

د. كمال: أسأل سؤالًا يا دكتور ... هل تستطيع سيادتك في أمريكا الشمالية أن تعدد الزوجات؟ ولماذا؟ لأنه القانون الذي تأخذ به الأغلبية. فإذا جاءت الأغلبية هنا ورأت أن مصدرها في التشريع الإسلامي ننزعج؟ هل تستطيع أن تعيب على الأنجلوسكسون أنهم لا يأخذون بتشريع نابليون؟ كل أمة تختار شريعتها وهي جزء من تراثها، أنا مندهش أين الغرابة في ذلك؟ ولا تنسَ يا سيدي وأنت تعرف التاريخ أن الشريعة كانت مطبقة حتى جاء الأجانب وقالوا نطبق أحكامًا قنصلية، ثم اشترطوا للدخول إليها تغيير الشريعة. ثم إن القوانين الموجودة ٩٠٪ منها لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية؛ لذلك فقضية الشريعة لا تشغلني، ولكن يشغلني أن يقال إذا رأت الأغلبية صلاحها في الشريعة أقول لها لأ ... لماذا لا أقول للأغلبية الأمريكية: لا تطبقوا القانون الأمريكي وأريد تطبيق شريعتي الإسلامية، مع العلم بأن إحنا هنا نحترم عقائد الآخرين في الأحوال الشخصية!

سيد القمني: الأمثلة التي ضربتها يا د. أبو المجد حول الشعوب الأخرى ونظمها وقوانينها، هذه في النهاية قوانين إنسانية، أي إن الذي يحكم باسمها لا يقول إن كلامي مطلق وحكمي نهائي وإنه لا يدخلها الباطل، هنا أستطيع أن أدحض ما قاله وأضع صوتي بالرفض أو التأييد في صندوق الانتخابات وأغير ... إلخ، أما في حالة الشرائع الدينية ومن ستكون مهمته القيام على تنفيذ تلك الشرائع؟ وهل هو وحده الذي يلتقي تفسيره ورأيه مع المقصد الإلهي؟ أم أنه سيعطي فهمه هو لنصوص الشريعة؟ وهنا سأختلف معه وإذا خالفته كفرني، ونعود إلى مشكلة الحكم بالحق الإلهي.

د. كمال: ليس في الإسلام السني على الأقل رجال دين ينطقون باسم الحق المطلق. يا د. سيد، أنت تتكلم عن مشاكل حقيقية ومشروعة، ولا يوجد متحدث واحد باسم الحقيقة، وليس هناك اجتهاد فردي بل اجتهاد جماعي.

المشاهد (محمد شريف): أطرح السؤال للسادة الأفاضل عن ثلاث عبارات وردت في كتابات

نصر حامد أبو زيد، إذا ردوا عليها أوضحوا لنا حدود الاجتهاد، وهي:
(١) أن إعجاز القرآن ليس إلا في تغلبه على الشعر وسجع الكهان، ولكنه ليس معجزًا في ذاته.
(٢) إن القرآن منذ نزل على سيدنا محمد أصبح وجودًا بشريًّا منفصلًا عن الوجود الإلهي.
(٣) التصورات الأسطورية المرتبطة بوجود أزلي قديم للنص القرآن في اللوح المحفوظ في اللغة العربية، ما زال في ثقافتنا.
السؤال هو رأي كلٍّ منكم؟ وهل هذا الكلام يدخل في إطار الاجتهاد أم لا؟

د. كمال: الإجابة عن السؤال الأول: أنا أخالف ذلك؛ فإعجاز القرآن ليس فقط في أنه تفوق على الشعر وسجع الكهان. ومن أحسن ما قيل: إن كلام العرب ثلاث: شعر ونثر وقرآن. إنما ليس هنا قضية الإعجاز سيدي هي قضية قرآن نزل في ٢٣ سنة يعالج مسائل الحرب والسلام والزواج والطلاق والأسرة والبيع، ويجمع هذا كله لا يكذب. ومن أحسن ما قرأت أكثر أشياء إعجازًا في القرآن شريعة القرآن. محمد ﷺ حل مشكلته أنه كان يوحى إليه، إنما هذا القرآن إن كان من عنده لكانت المشكلة أكبر ولعبده الناس. السؤال الثاني: إن النص إذا وصل إلى الناس انفصل عن مصدره! لا يا سيدي؛ لأن مصدره إلهي، إنما متى يصبح إنسانيًّا بمعنيين: معنًى بعيد ومعنًى قريب، هو إنساني بمعنَى أنه يخاطب الإنسانية، ويصير إنسانيًّا بمعنَى أن خطاب الناس المتعلق به يصير إنسانيًّا، وقال أبو حنيفة علمنا هذا رأي. وسئل: هل هذا الرأي هو الصواب الذي لا شك فيه؟ قال بل لعله الخطأ الذي لا شك فيه. واليوم حين أقرأ شعر شوقي يظل شعر شوقي هو شعر شوقي، ومن عنده مذاق الشعر يشعر ويحس فيقول: لا يقول ذلك، هذا الكلام ليس كلام طه حسين، العبارة هذه ليست عبارة المتنبي. أنا أعترض على ذلك.

مقدم البرنامج: استراحة ٣ دقائق.

د. كمال: فيما يتعلق بالجزئية الثالثة، أخالفه أيضًا لما قيل: (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)، وأريد أن أقول كلمة أخوية للدكتور نصر، ود. سيد: نحن شركاء في القضية، فتعالوا لا نفسد ذلك، وأن نركز المناقشة على حرية التعبير والحريات السياسية والمدنية، ولا ندخل في القضايا الشائكة، وأقول عن ذلك إنه أساطير فأشككهم في دينهم ...

المشاهد (أوزجان يشار): أنا أريد أسأل د. كمال عن كتابات د. نصر أبو زيد، أليس إعجاز القرآن في نصه؟ لكل دين ولكل نبي كانت هناك معجزة، فمثلًا سيدنا عيسى استطاع أن يحيي الموتى، موسى كان هناك سحرة فكانت عصاه أقوى وأبلغ، كذلك الرسول كان في مكة شعراء فطاحلة، فكان يجب أن يأتي هذا القرآن معجزًا بنصه ... هناك مناظرة حدثت بين الشافعي وابن حنبل في قضية تارك الصلاة، فقال الشافعي: يا أحمد أتقول إنه يكفر؟ فقال: نعم، فقال الشافعي: فبماذا يسلم؟ قال: يقول أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال الشافعي: الرجل مستجيب لهذا

القول لم يتركه، فقال ابن حنبل: يسلم بأن يصلي. فقال الشافعي: صلاة الكافر لا تصح؟ فسكت الإمام أحمد. واليوم نأتي لنكفر د. نصر حامد أبو زيد ونحن لا نعرف من كفر الرجل؟ وكيف اجتهد؟ ومن الذي وضع تلك المحاكمة له؟ وهل تُركت له سبل الاستتابة؟ نحن لا نفهم ماذا حدث ...

نريد من د. كمال، لأننا نثق به وبعلمه، أن يعقب على هاتين النقطتين.

د. كمال: لأمانة العلم أقول إني قرأت كتب د. سيد محمود القمني ولم أقرأ سوى كتاب واحد للدكتور نصر أبو زيد، وأنا ما كفرته، بل يجب الإفساح للناس ليقولوا ونخطِّئ هؤلاء ونرد عليهم، كما أعلم أن د. عمارة رد، ولا أقول لمن يقول: «أنا مسلم»: أنت لست مسلمًا، على أضعف الإيمان نمنحه فرصة كافية ليدافع عن نفسه ويعرض رأيه. إنما أنا سأرد على عبارة أوردها الأستاذ عمارة آخذًا من كتابه، أنا لا أوافقه على العبارة وليس لي شأن بالدكتور نصر أكثر من ذلك.

فالإعجاز القرآني كان طبيعيًّا بعد بلوغ البشرية نضجها، فكانت مشكلة عقلية فيما جاء فيه وفيما لفت إليه من آثار، أما السنة الكونية فهي دليل على قدرة الله في كل لحظة؛ لذلك تذكير القرآن بالسنن الكونية أكثر من تذكيره بالمعجزات، وحين سألوا الرسول ﷺ أنه يعمل كذا وكذا قال: سبحان الله! ما كنت إلا بشرًا، فبشريته ونبوته حاضرتان، ودعوته عقلية ومنهجه ليس غيبيًّا. وحين سلك الناس مسلكًا غيبيًّا وقالوا: الشمس خسفت بموت إبراهيم ابنه، قال: يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان بموت أحد أو حياة أحد. المنهج عقلي في إطار الإيمان بالوحي المنزل.

سيد القمني: مطلوب مني التعقيب على محمد شريف في ثلاث عبارات للدكتور نصر: بالنسبة العبارة الأولى، لا أتصورها قالها كما وردت الآن عند المشاهد الكريم، والكتاب ليس أمامي للتأكد، لكن إعجاز القرآن الكريم من وجهة نظري في تفاعله مع الواقع وأخذه وعطائه معه واستجاباته لمتغيرات الواقع خلال عمر الوحي الذي وصل إلى ٢٣ عامًا، ولم ينزل دفعة واحدة كتلة واحدة. وهو بذلك يعطي درسًا للمؤمنين به أنه مع تغير الأحوال ... أنتم خلافة الله في الأرض، والنبي المصطفى صاحب الدعوة هو آخر النبوات وختامها، وإنه لن يكون هناك تدخل بشكل مباشر بأنبياء أخر مرة أخرى؛ فقد بدأ عصر العقل، عصر الإنسان؛ حتى تستحق البشرية الخلافة وتبدأ في الاجتهاد.

د. كمال: أنا أوافق على هذا الكلام الذي قاله الآن د. سيد ...

سيد القمني: الأمر الثاني مسألة أن النص القرآني أصبح له وجود بشري بمجرد ما تمثل في الواقع، حقيقة أنا فهمت عند الأستاذ نصر حامد وأنا أقرأ له ذلك، وربما أكون مصيبًا أو مخطئًا،

لكن هذا فهمي أن هذا الخطاب القرآني قد نُطق فسيولوجيًّا بآلة إنسانية، بمعنى أن هذه الآلة التي هي اللسان، وهي السمع وهي الأحبال الصوتية وهي الحنجرة. هذه أجهزة إنسانية بشرية، نقل نص اللفظ القرآني القدس على لسان المصطفى صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام إلى المسلمين بلسانه ثانيًا، ثم إنه تفاعل بلغة بشرية مع واقع أيضًا كان بشريًّا، مثل تفاعله مع الحضارات مع الفرعون مع جالوت مع طالوت مع النبي صالح، هذه كلها أحداث أرضية. أظن أن الدكتور نصر أبو زيد يقصد هذا المعنى، أنه قد تأَنْسن أي أصبح نصًّا إنسانيًّا يمكننا التعامل معه باحترام لكن بلا رهبة لا تجعلنا في موقع التعامل العلمي الصادق معه.

النقطة الثالثة، وسأترك د. كمال يعقب، التصورات عن اللوح المحفوظ أو التصورات أن القرآن الكريم في لوح أزلي ... أظن د. نصر وضع يده على مسألة محورية لسبب بسيط كيف يمكن الجمع، وهذا التناقض التأسيسي الذي أشير إليه طول الوقت، كيف يمكن الجمع ما بين القول إن هذا القرآن الكريم كان كتابًا في اللوح المحفوظ من الأزل هكذا، وبين أنه جاء مفرقًا ومنجمًا ليُقرأ على الناس على مهل وعلى مُكثٍ حسبما تتطلب حالات المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الواقع؟ أو كيف أفهم أنه كان في اللوح المحفوظ وهناك خطاب يقول: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) هذا حدث آني، حدث زمن صاحب الدعوة، فكيف يكون أزليًّا؟

د. كمال: الإلهيات الخوض فيها في ندوة أنا غير مستريح إليها، ولكن يا سيدي أنت تعلم أن مقتضى كمال العلم أن يحيط الله بالأمر والزمان الوجودي الحاضر والماضي والمستقبل. هذا حد من حدود المعرفة الإنسانية، أما في كمال الله، فالحاضر والماضي والمستقبل على خط أفقي، ومقتضى كمال العلم، وإلا لوصلنا إلى قوله تعالى: (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) يعني أنه لم يكن عالمًا بهذا الضعف من قبل؟! هذه أمور يُبديها ولا يبتديها، إنما كمال العلم أنه كامل كله في العلم الإلهي.

مقدم البرنامج: تعتقد أن هناك خطأ في أن يتعامل المفكر أو الباحث مع النص على أن واضع هذا النص هو مفكر مثله بنفس قدراته العقلية؟

د. كمال: لم أقصد أن الدكتور سيد يقول هذا، إنما هو يتحدث عن قدسية النص، وهو فيصل بين الإيمان ومتروكه، إن هذا القرآن كلام الله.

مقدم البرنامج: أريد أن أسألكم سؤالًا بسيطًا.

إذا لم تكن قضية التفريق قد حدثت لدكتور نصر يمكن لم يكن أحد عرف شيئًا عن كتب د. نصر، السؤال: هل هذه قضية شارع إسلامي أو شارع عربي؟

د. كمال: جزء منها قضية شارع إسلامي أشار إليه د. سيد.

وكما قلت في أول حديثي، الأمة هي القضية وليس مثقفيها ... النقطة التي عرض لها د. سيد ونريد مناقشتها بهدوء، وهي مسألة: لا اجتهاد مع نص، فإنه فعلًا بعض الناس فهم النص على أنه الدليل الجزئي، هذا الجانب العملي، فلو أخذنا المقولة هذه على إطلاقها ... التفسير الغي، التأويلي الغي، الفقه الغي. وكي يكون المشاهدون معنا، نابليون بونابرت سنة ١٨٠٤ وضع القانون، نابليون فيما لا يزيد على هذا الكتاب (يشير إلى كتاب صغير) ولم تمضِ سنوات إلا وكبار الفقهاء للقانون الفرنسي ألفوا كتبًا بالعشرين والخمسة وعشرين جزءًا. إخواننا المالكية في العالم الإسلامي يعلمون أن متن خليل لا يزيد على هذا (يشير إلى نفس الكتاب)، ولكن لنرَ شرح الدرديري على متن خليل وحجمه، لنرَ المهذب للشيرازي على المجموع للنووي. إذًا العلم واسع ... وأنا أقول استحلال علمي، لماذا؟ أنا لا أمارس الطب أو القانون إلا إذا كانت معي شهادة تقر ذلك ... اليوم كي أجتهد في الفقه لا بد من معرفة أصول الفقه ... كلمة النص عند الأصوليين تشير إلى النص الذي له عبارات لا تحتمل التأويل، الواضح الدلالة بشكل قطعي ... هذا هو الذي لا اجتهاد معه، والمساحة كبرى بعد ذلك للاجتهاد. نحن نعيش في ظل دستور ولكن الدستور هو ما نقرر نحن أنه كذلك، ونفسر كبشر أصنافًا من عصره ومن فقهه وأضاف من مزاجه ومن ضيق صدره أو اتساعه، إنما أنت بعد النص وليس معه.

مقدم البرنامج: من الذي على الخط؟ الدكتور عمر الفاروق من قطر ... اتفضل.

المشاهد (عمر الفاروق): اسمح لي أن أقول نقاطًا سريعة وأذيلها بسؤال:

(١) قضية الاجتهاد لا أعتقد أنها عويصة إلى هذا الحد بقدر ما هي واضحة ومحددة ومقدورة من قِبَل الله سبحانه وتعالى، إن الله حدد الحدود التي لا ينبغي أن نتعداها، ثم أطلق حرية الاجتهاد المحسوبة في غير ذلك؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ونعطي لك مثالًا على الاجتهاد المشروع في أول آيات القرآن الكريم ... بسم الله الرحمن الرحيم (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) وأنا لديَّ كتاب في هذا الشأن ... يقول «الم» أيها الإنسان أنت مقدور الفكر؛ لأنك لا تستطيع أن تفسر هذه الحروف الثلاثة، إذن إياك أن تشك في كل القادم. يعني: الإنسان على إطلاقه يا أستاذ عماد لا يصل إلى القناعة إلا إذا جرب الشيء، فربنا أطلق تجريب الأشياء إلا القرآن الكريم إلا في حدود ما أباح الله.

(٢) إن بعض الذين بلغوا درجات علمية عالية ظنوا أنهم كبار وبدءوا يتشككون في بعض قضايا الدين.

(٣) يوجد البعض ممن يعتبِرون التدين تخلفًا في العصر الحالي.

(٤) من أهم شروط المجتهد موجبية الاتجاه، والقدرة على التفكر، ولا أقول التفكير؛ لأن الكل يفكر والله سبحانه وتعالى خص أولي الألباب بهذا التفكر في القرآن الكريم.

(٥) لا يصح أن نجعل من بعض الخارجين على حدود الله مدرسة فكرية مناهضة أو مقابلة للإرث الفكري كله، وأعتقد أني أتفق في ذلك مع د. كمال أبو المجد.
(٦) لو كان الإسلام قد منع الاجتهاد، فكيف كان أبرز العلماء هم الفقهاء في نفس الوقت؟
(٧) كيف نسي الخارجون على حدود الله أنهم أنفسهم محدودو القدرة وكيف يجترئون على من منحهم نعمة العقل؟!
(٨) صلاحية القرآن لكل عصر وزمان ليس معناها توظيف النص القرآني كما نهوى، ولكن معناها أن خصائص البشر العامة هي هي على مر العصور، والمثل الروماني يقول: «لا جديد تحت الشمس» بهذا المعنى.
(٩) قد يكون هناك خلط بين الاجتهاد في النص والرغبة في الأخذ بأسباب العلم بهدف التطاول لدى البعض، واسمح لي أقول تنظيرًا بسيطًا لهؤلاء، يجب النظر إلى العلم والدين في أمور ثلاثة: الكهنة والتوجه... و...
سؤالي إلى الدكتور أبو المجد والدكتور سيد هو:
هل يجب أن نناقش الخارجين من وجهة نظرنا على حدود الله تحت ما يسمى بحرية إطلاق الفكر؟
نشكركم ونتمنى التوفيق لكم جميعًا.

مقدم البرنامج: هو هنا بس فكرة الخارجين على حدود الله هنا حكم مسبق، لكن حتى حكم الشرع فيما يخرج عن حدود الله؟
أريد سؤالك هذا السؤال حتى إذا وصلنا إلى السقف الذي وصل إليه الأستاذ عمر الفاروق.

د. كمال: نحن أمامنا في العالم الإسلامي خطران؛ خطر الجمود وخطر الانفلات، وأنا لا يشغلني الانفلات بقدر ما يشغلني الجمود؛ فالجمود يقتل حتى فرصة التصحيح.

سيد القمني: الحقيقة أن الكلام الذي يقوله الأستاذ أبو المجد هو أمر عظيم؛ أن نجد اليوم، في ظل ما يسمى مدرسة تقليدية، هذا النزوع إلى الحريات؛ لأن أزمتنا بالفعل أزمة الحريات؛ لأن العلم والتقدم لا يتزعزع ولا ينمو إلا في بيئة حرة تمامًا، وهذا ما جرنا إلى موضوع الاجتهاد لأنه بدون وجود اجتهاد حقيقي مستمر فهذا يؤثر على حريتنا.
وكنت أتحدث فيما قال الأستاذ عمر الفاروق، هل يجب أن نناقش الخارجين على حدود الله؟ وأنا لا أناقش ذلك لسبب بسيط أنه من سيحدد من هم الخارجون على حدود الله؟ ومن سيقول كلمته في هذا الأمر؟ هذا أمر لا يناقَش، أنا عندي استعداد أناقش الجميع، لكن فقط ما توقفت معه أنه يقول إن المناهضين، لا يصح وضعهم تحت مسمى مدرسة، هم ليسوا مناهضين، أنا رجل أطرح تساؤلات وأحاول أن أصل إلى إجابة شافية ترضي ضميري الإيماني وتريح علاقتي بالواقع المتحرك المتغير، وكيف يمكن أن أؤدي دوري فيه بنجاح، بالتالي هذه دعوة تذكرنا بقول الجاهلين: (حَسْبُنَا

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) وطالما هناك ناس، والأمة كلها قالت، فمن أنت؟ ونحن سمعنا بهذا المعنى مكالمات تليفونية في الحلقة الماضية يوم ٣ وكان فيه ناس محتجة فقط عليَّ «أنت من؟» أنت ما هي مؤهلاتك؟ ... مؤهلاته أنه مسلم وأنه يريد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، وأن يطرح أسئلة بدون تحرج، فمادام في الأمة رجال ... و...

مقدم البرنامج: أريد من حضرتك الإجابة عن سؤالي: «إذا اجتهد وأخطأ في اجتهاده؟»

سيد القمني: فليجتهد وليخطئ.

مقدم البرنامج: ما هو الرد على هذا الخطأ؟ ... هل هناك عقاب له؟ يا دكتور أبو المجد كيفية التعامل مع من يجتهد ويخطئ؟

د. كمال: الأمة في حيرة والقضايا كثيرة وأريد المناقشة في القضايا العملية، والاجتهاد حين يكون إيجابيًّا يكون علميًّا، ولا بد أداته تتجمع، كيف يكون الاجتهاد دون توفر آلة الاجتهاد في خصوصية معرفة الواقع؟ وبالتالي نحتاج إلى اجتهاد، إنما حين نتعرض إلى قضية نقل الأعضاء لا يستطيع فقيه لوحده الإفتاء فيها، إنما يحتاج الأمر إلى مجامع علمية حين ذاك يؤخذ رأيها مأخذ الجد. الإمام الشافعي كان له مذهب في العراق وحين جاء مصر غيَّر في مذهبه، مع أن أصوله لم تتغير، وأدوات الاجتهاد هي ثلاث وصفها ابن القيم الجوزي بأنها معرفة الحق، ويعرف تفسيرها والناسخ والمنسوخ والواقع، وكي تتم هذه العملية نريد اجتهادًا جماعيًّا لتطمئن الأمة، ويجب على المجتهد العلم بأوضاع المسلمين وأوضاع الطبقات الاجتماعية وحاجات الناس.

مقدم البرنامج: كي أكون صريحًا معك ... الأسبوع الذي تلا مذبحة الأقصى الأخيرة ودخول القوات الإسرائيلية داخل الأقصى، كانت خطبة في مسجد ما منقولة بالأقمار الصناعية رآها العالم كله، كانت عن المرأة الحائض والحيض، أتريد القول لي حضرتك إن هذا هو متابعة العصر؟

د. كمال: هذا سخف في الاختيار وخلل في التفكير وانصراف عما يشغل الأمة ويسيء إلى وجه الإسلام، ويؤكد أنه لا فقه بغير فقهاء، ولا فقهاء بغير مؤسسات، ولا مؤسسات بغير برامج تعليمية متقدمة؛ لأن العلماء يا سيدي يحتاجون إلى علم، لا بد من أن نأخذ الأمر مأخذ الجد. هذا الذي يجري نوع من الهزل.

مقدم البرنامج: معنا مشاهد من القاهرة، يتفضل.

المشاهد: أنا متابع للبرنامج لكن لا أعتقد أن أحدًا لا يقف أمام حرية الاجتهاد أو حرية الرأي إلا في شيء محرم نهائيًّا الجدل فيه، وهي الرسالة والأشياء الثابتة، والجدل في الأمور الدنيوية، ولا أعتقد أن المشكلة هي تطليق زوجة د. نصر منه، هذه ليست المشكلة، المشكلة في التعدي، كما

قال الأساتذة. مشكلة التعدي على كتاب الله. الرسالة لا جدال بها والله قال في كتابه: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا).

د. كمال: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ).

المشاهد: الاجتهاد فيما هو دنيوي، وأعتقد أن كثيرين تكلموا وأنا آخذ على الدكتور سيد تبسطه الشديد، وهو أعلم مني في هذه الأمور.

د. كمال: لا تعقيب ... هي القضية ليست قضية نصر، بل قضية حدود الاجتهاد، وأنا معك في أن كتاب الله ينبغي أن يكون لنا منه موقف مختلف، دون أن يعني ذلك ألا نخوض في التفسير. من أحسن ما سمعته من «إن مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعرفون تفسيره؛ كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلًا فتداخلتهم روعة وهم لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.» فتفسير العلماء مبني على أسباب النزول وقواعد اللغة بغض النظر عن عموم اللفظ، والناسخ والمنسوخ والفقه ... إلخ، من أدوات الاجتهاد، وتلقي أضواء كثيرة دون أن يمس بالقرآن الكريم، إنما يضيف إلى قدسيته قدسية، وكان ابن تيمية يبحث عن التفسير حين مات مسجون في قلعة دمشق كان في هذه الفترة مشتغلًا في التفسير، وكان يتقلب على جنبَيه ويقول: يا معلم إبراهيم علِّمني.

سيد القمني: أريد التعقيب على نقطة صغيرة؛ هي الحرام والحلال، هذه قضية بينها نترجرج كالزئبق طول الوقت، لا أحد يمكنه الإمساك بنا ولا نحن نستطيع الإمساك بحقيقة، أتصور أن نقل الأمر إلى مستوى الصواب والخطأ العقلي والعملي فيما يتعلق بمصالح البلاد والعباد؛ يكون هو الأجدى؛ وبذلك ننتقل من حالة الخلاف في الرأي الديني الفقهي عندما نحول مادة المقدس للدرس، ليس بمنطق الحلال والحرام بل الصواب والخطأ، ممكن أن ينقلنا هذا إلى مستوى العلم، والعلم لا يُختلف حوله، إنما الرأي هو ما يُختلف بشأنه.

مقدم البرنامج: دكتور كمال أشكرك على علمك وعلى وقتك، ود. سيد أشكرك على جهدك ووقتك.

(انتهى وقت البرنامج.)

---

[1] مناظرة تمت بتاريخ ١٩٩٦/١١/١٦م على شبكة تليفزيون أوربت بين سيد القمني وبين د. أحمد كمال أبو المجد، والبرنامج تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يقدم على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونيًّا.

الفصل الرابع عشر

أسطورية الدم: قراءة للوضع المجتمعي للمرأة في عقائد الشرق الأوسط

قصة الخلق نموذجًا[1]★

توطئة

لأن تطور المجتمع البشري لم يصل بعدُ إلى الوضع الإنساني المرجو، اللائق بكرامة الإنسان بحسبانه الكائن الأرقى في الكون جميعًا، فإن الظرف الاجتماعي لم يزل حتى الآن يسوِّغ القسمة العنصرية بين الناس، وأبرز نماذج تلك القسمة التي تشكل وصمة عار كبرى في جبين الإنسانية، ذلك الذي حدث عندما استولى الذكور على مقدرات المجتمع، وتمت إزاحة الأنثى من البؤرة إلى الهامش. وتأسس المجتمع الذكوري الأمثل الذي أسس لأبشع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجسد الواحد، فقسمته نوعين؛ رجلًا وامرأة، وفرقت بين طرفَي حياة لا تكتمل دون التقائهما إنسانيًّا قبل التقائهما جسديًّا.

وفي مجتمعات الشرق الأوسط حيث نشأت ثقافات وتطورت أخرى وتلاقحت ثالثة، حتى وقفت عند الثقافة الإسلامية، تتعزى المرأة كل يوم بالصبر والسلوان الفقهي، وتبلسم جراحها بخطب منبرية تؤكد لها أنها في مكان الصدارة والتكريم بين نساء العالمين. تتعزى صبرًا في عالم الأرض وصبرًا في عالم السماء، في الدنيا الفانية وفي الآخرة الباقية.

وإن أحسنت المرأة المسلمة إيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت سيدها الذكر وأطاعته، دخلت يوم الدينونة إلى عالم الخلد خالدة أبدًا، لكن في خدمة السيد الذكر مرة أخرى ومن أجل متعته، وضمن حريمه في جنة رضوان اللائي يصل عددهن إلى المئات وربما الألوف في أحاديث منسوبة لنبي الإسلام.

وإن تلك المنحة الخالدة لا تتم إلا بإيمان، رأسه وقمته طاعة الرجل الكاملة والخضوع له والتسليم لسيادته في الدنيا الفانية؛ لتضمن لنفسها بذلك مكانًا بين حريم الجنة في الآخرة الباقية.

وحتى نصل إلى هذه المرحلة علينا العودة نحو المبتدأ، إلى المجتمع البشري وهو يصوغ أولى تشكيلاته الابتدائية، نحاول أن نمارس قراءة معدولة لثقافة مقلوبة، قراءة غير معتادة لأوضاع معتادة، بل ومقدسة وثابتة لا تقبل تبديلًا فيما يرى سدنتها المنتفعون ببقائها.

(١) التجمعات الصحراوية والتجمعات النهرية

في فنون العصر الحجري القديم يمكنك أن تلاحظ أن تماثيل النساء وبقية النقوش التي تحمل دلالات أنثوية أكثر بما لا يقاس بالنسبة إلى الفنون التي تحمل دلالات ذكرية، أما قبل ذلك، وفي فجر حقب البلايستوسين الأول، فلن تجد مهما بحثت سوى تماثيل للإناث، ولا وجود تقريبًا لأية فنون ذات دلالة ذكورية.

وحول تلك الحقبة الزمنية نقرأ الأنثروبولوجية الأمريكية «جيكيتاهوكس»، وهي تؤكد أن أقدم التماثيل التي شكلها الإنسان للتعبد أمامها، تلك التي تمثل إناثًا من البشر ضُخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيًّا، كالأثداء والأرداف والفروج، وأطلقت «هوكس» على تلك التماثيل اصطلاح «فينوس الوَلَّادة»، أي «التي تلد»، وصفتها الأولى هي «الولادة». وترى «هوكس» أنه قد تلا هذا العصر مرحلة متوسطة قصيرة الأمد بدأت تظهر فيها رسوم تتسم بالذكورة في تناثر لم يخلَّ بالانتشار الهائل للتماثيل الأنثوية. وبعد تلك المرحلة المتوسطة تمت العودة الكاسحة مرة أخرى إلى تفرد تماثيل الربات الوَلَّادات بالمساحة كلها، وهو الزمن الذي ترافق مع اكتشاف الزراعة في العصر الحجري الحديث، هذا مع العلم أن أقدم تماثيل الإلهات الوَلَّادات التي عثرنا عليها يعود إلى ما قبل خمسة عشر ألف عام من الآن. وتم افتراض أنها أول تمثيل تخيلي للألوهة بحسبان الدلالات التي كانت تحيط بتلك التماثيل، كالزهور والثمار اليابسة والمحروقة أحيانًا التي تشير إلى قرابين نباتية كانت تُقدم لتلك الإلهات على مَحاريبها.[٢]

وعلينا أن نلاحظ أن زمن أقدم تلك التماثيل (خمسة عشر ألف عام) قد جاء بعد تراجع عصر الجليد بعشرة آلاف عام أخرى، وخلال تلك الخمسة وعشرين ألف عام حدثت تحولات كبرى في البيئة الطبيعية ألقت بظلال متغيراتها على المجتمع الإنساني وهو يتشكل، وهي المرحلة التي تحتاج إلى وقفة قصيرة نلاحظ خلالها نتائج الجدل الذي حدث بين متغيرات الطبيعة والإنسان، وأثر ذلك في تشكيل نماذجه الاجتماعية الأولى وتطورها مع تلك المتغيرات.

والمعلوم أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير تقاسمت الأرضَ حالتان طبيعيتان: الأولى يمكن تمييزها في تجمُّع شرايين الماء في أنهار بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية، والثانية وضحت في تصحُّر مطرد في مناطق أخرى أدى إلى خفوت صوت الحياة ونبضها تدريجيًّا، مع تناثر بقايا

تلك الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة. ومع التصحر المتزايد وجدت الجماعة المشاعية الأولى — ذات النظام الأمومي — نفسها بإزاء متغير طبيعي قاسٍ شحيح بمطالب الحياة. وهو الأمر الذي أدى بالضرورة إلى تفكيك بنية ذلك المشاع تبعًا للتفكيك الحادث في الطبيعة، وهو ما أدى بالتجمعات البشرية إلى وحدات اجتماعية أصغر وأكثر قدرةً على الاستمرار والديمومة؛ لأن التجمع الكبير كان يعني الهلاك جوعًا، أو الهلاك قتلًا؛ بافتراض أنه لا بد قد صاحب شحَّ الطبيعة صراعٌ عظيم على بقاياها الهزيلة، وهو الصراع الذي أكمل إغلاق الدائرة بمزيد من التفكيك والانتشار المتباعد للتجمعات البشرية في أشكال قبَلية أولى.

وإعمالًا لهذه الرؤية التأملية وجد الإنسان نفسه في بيئته المتصحرة أمام أحد خيارين: إما الموت جوعًا، أو تدجين الحيوانات التي عاشت بدورها بجواره، بجوار الماء. ومن هنا حتمت البيئة على البدوي اعتمادًا شبه كامل على الحيوان ومنتجاته لمعاشه، فكان يأكل لحمه ويتغذى بلبنه ويلبس صوفه، ومن ذات الصوف يحيك خيامه وعليه يحمل أسفاره عند الانتقال من موضع ناضب إلى موضع أكثر فيئًا.

وتتابعت سلسلة النتائج المترتبة على المقدمات، حين وجدت الجماعة المتبدية نفسها وهي تتحرك بحاجة إلى ما يحفظ لها تماسكها وقوتها وقدرتها على الاستمرار، فارتبطت بروابط الدم وبالحيوان المدجن المعتمد لحياتها، وبدأت الطواطم تعبر عن تلك الرابطة كحاجة ضرورية لتنظيم يضمن للقبيلة الأمان من الشرود أو النفوق أو الموت، وكانت المصلحة مشتركة؛ لأن الحيوان وجد أمانه في الالتحام بالقبيلة لتأمين حياته من الضواري ومن الجوع، وأصبح الحيوان الطوطم رمزًا للعلاقة المتينة بين أعضاء القبيلة، فأصبح أبًا للجميع بمعنى السلف الرمزي، في زمن لم يكن يعرف دور الرجال في عملية الولادة.

وفي مجتمع قاسٍ بليد تكون الحاجة أشد إلى القوة العضلية التي توافرت للرجال، وكان ظرف المرأة والحمل والولادة لا يضعها في موضع الحاجة العضلية والمجهود الشاق الذي قام به الرجال، ومن هنا كان ضروريًّا أن يتحول المجتمع الذي عاش زمنًا حياة المشاع قبل انحسار الجليد، من مجتمع أمومي النظام إلى مجتمع ذكوري، وساعد على هذا التطور الجديد امتلاك الذكور للأساس الاقتصادي المتمثل في ترويض الحيوان أو مصارعته، في مجتمع لا يعرف سوى منطق القوة الغشوم، وهي مفتاح ومفصل المسافة بين الحياة والموت. كما أن الصراع الذي نشب لا شك بين القبائل البشرية حول مواطن الحياة في الصحاري، قد ساعد على تثبيت مركز الذكور السيادي بما يملكونه من مهارات عضلية. وانهار وضع المرأة الابتدائي وفقدت قيمتها الاجتماعية في مجتمع الندرة الصحراوي، واقتصرت وظيفتها على إنجاب المزيد من الذكور، وأصبح إنجاب الإناث عبئًا يضاف لكاهل الجماعة؛ فهي تحتاج للحماية والطعام، وحدثنا التاريخ القريب عن حل هذه المشكلة

عشية الإسلام بوأد البنات أحياء.

وتدنَّت في المجتمع البدوي مستويات الإنتاج إلى حد كاد فيه المجتمع البدوي يعتمد اعتمادًا شبه كامل على الطبيعة، بالسعي الدائب وراء الكلأ وآبار المياه والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى، أو تطفله الدائم على منتوج العمل عند الطرف الآخر في المناطق الخصيبة النهرية، التي اتخذت خط تطور آخر وأشكالًا اجتماعية أخرى.

وعلى مستوى العقائد فإن الطبيعة المتصحرة الشحيحة الضنينة بأشكال الحياة، جعلت البدوي أحادي النظرة وأحادي الاعتقاد والنظام؛ فقبيلته كلٌّ في واحد يتماهى مع الطوطم الأب السلف الأول، وعادة ما تمثل الطوطم في الحيوانات النافعة؛ لذلك غالبًا ما قدس البدوي مختلف أنواع الشياه والسوائم ذات القرون؛ لذلك كان السلف المقدس ذا قرنين دومًا، وهو رب القبيلة الأوحد، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن لأنه مع الانتقال الرعوي لا يوجد وطن؛ لذلك يتحدث البدوي عن الحمى وليس عن الوطن، ذلك السور الوهمي الاعتقادي الذي يحيط بالقبيلة ويتحرك معها أينما تحركت أو حلت أو ارتحلت.

ومن هنا لم تسمح الظروف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة، فظلت على شتاتها وتشرذمها، مع تعبُّد كل قبيلة لإله خاص هو الوطن وهو النسب وهو الجد البعيد وهو الحمى، وهو واحد فقط وليس أكثر ولا يمكن أن يتعدد؛ لأنه الضامن الوحيد لتماسك القبيلة اللزج ومصدر أمنها بانصهارها فيه، وكان طبيعيًّا أن يكون هذا السيد الرب ذكرًا؛ لتعبر الفكرة عن قمة سيادة ذكورية أحادية، لكن الناظر من بعيد سيرى عددًا هائلًا من الأرباب تتعدد بتعدد أسلاف وطواطم مختلف القبائل.

هذا بينما على الطرف الآخر مع انزياح عصر الجليد الأخير، في مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار في مجاريها بشكل نهائي قد استغرق زمنًا غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحالِ ما قبل انحسار الجليد، فامتد الشكل المجتمعي القديم، (من النظام الأمومي) مدة أطول في المجتمعات النهرية؛ فقد استمر انتشار الأحراش والبِرك والمستنقعات والغابات؛ مما أطال عمر المشاع الأول عن رفيقه على الجانب الصحراوي. وكان استمرار الأوضاع الطبيعية دون تغيير كبير؛ ضمانًا لاستمرار موازٍ لوضع المرأة المتميز الذي أكدته تماثيل الإلهات الولَّادة، حيث من الصعب تصور جماعة بشرية كل آلهتها نساء، وسادة الجماعة فيها من الذكور، ويرتبط بما نقول هنا السؤال الذي طرحه «داروين» أيهما كان أولًا: النظام الذكوري أم النظام الأمومي؟ وأجاب داروين عبر المقارنة مع عالم الحيوان، فقال إن السيادة المطلقة كانت للذكر منذ البدء ... وأكمل «أتكسون» الإجابة فقال إنه قد حدثت ثورة من الأبناء على الأب القاسي المتوحش المتسلط، فقتلوا الأب وافترسوه سويًّا. ويتابع «روبرتسون سميث» رسم سيناريو الأحداث؛ لإضاءة المشهد

التاريخي، فيؤكد أن النظام الأمومي ظهر إبان تلك الحقبة تحديدًا. لينهي «فرويد» استكمال المشهد بناء على ما سبق، فيقول: وعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه أولًا، وساد الذكر مرة أخرى.[٣] هذا بينما كان هناك اقتراح آخر قوي الأسانيد يرى أن النظام الاجتماعي الأول كان أموميًّا بلا أدنى شك، كما نرى مثلا عند «إنجلس».[٤]

وكان موقف كاتب هذه الورقة هو رفض السؤال نفسه: «أيهما كان أولًا النظام الأمومي أم الأبوي؟» بحسبان الخطأ في السؤال نفسه، ومن هنا كانت التوطئة بالحديث عن شكلَي المجتمع الذي تركته انسحابات عصر الجليد الأخير: شكل بدوي وشكل خصبي، فانتهى الحدث الطبيعي إلى تمييز بيئتين، وبالتالي تمييز شكلين للتجمع البشري عن بعضهما رغم تزامنهما في الظاهر كناتج انحسار الجليد، أي إن الاختلاف كان مكانيًّا وليس زمانيًا، وهو الزعم الذي يحتاج إلى تأييده بقرائن، ستأتي على متن شرح موضوع الورقة المعلن في عنوانها.

(٢) الزمن الأمومي الأول[٥]

إذن انتهى عصر الجليد ليترك مجتمعًا بدويًّا يسرع بالانتقال من العصر الأمومي الأول إلى الأبوي الذكري، بينما استمر وضع شبيه بالوضع المشاعي في وديان الأنهار الخصيبة.

وعندما لم تكن هناك قوانين مكتوبة أو حتى متفق عليها، كان المجتمع الابتدائي الأول يعيش بساطة الطبيعية، يتناغم معها ويضبط إيقاعه مع حركاتها، فعاش حالة المشاع الأولى إبان مرحلة جمع الثمار والصيد، دون حاجة إلى تنظيم اجتماعي صارم، وانحصرت حاجاته في تأمين القوت والأمان من غوائل الطبيعة وضواريها.

وكان الرجال بحكم التكوين الفسيولوجي هم في الأغلب القادرين على ممارسة مخاطر الحصول على الطعام البروتيني زمن الصيد، بمطاردة الحيوانات الملائمة واصطيادها، إضافة إلى جمع الثمار، بينما كانت المرأة التي تنجب مبكرًا جدًّا مضطرة إلى الاستقرار بجوار أطفالها تحميهم وترعاهم، وعندما يعود الرجال من الصيد يكون كل الرجال لكل النساء.

ومن هنا، وبقوانين البساطة الطبيعية، أمكن للمرأة أن تحقق وضعًا اجتماعيًّا متفوقًا لأسباب معلومة. وقد أهَّلها لهذا الامتياز قدرتها على الولادة والإنجاب، ومنح حياة جديدة. تلك الظاهرة التي لا شك أبهرت الرجل وجعلته يشعر أن هذا الكائن الذي يبدو أضعف منه بدنيًّا، يملك إمكانات سحرية عالية. لقد كانت ظاهرة الحمل والولادة مع التناغم الكامل للبشر مع الطبيعة مدعاة لفكرة أولى بسيطة، وهي أن المرأة جزء من ظاهرة الخصب الكونية الولَّادة، كالأرض التي تنبت

المحاصيل والثمار والأنهار، بل إنها الظاهرة الأكثر وضوحًا وقوةً لحظة دفع الوليد من البطن إلى الدنيا.

وهكذا تأسست علاقة المرأة بالقوى الطبيعية الخارقة المعطاءة، فحازت أول فروض التقديس والرهبة والاحترام، وحققت وضعًا اجتماعيًّا أكثر تميزًا من الرجل، أهَّلها له تناغم تكوينها وظروفها البيولوجية مع الحاجات الطبيعية للبشر آنذاك، الذين كانوا بحاجة إلى تكاثر أعلى لتحقيق كثرة مجتمعية قادرة على مواجهة غوائل الطبيعة المفاجئة ووحوشها الضارية وفوضاها الدائمة.

وبالتدريج تمكنت المرأة من دعم هذا الوضع المتميز وتنميته، حيث كان بإمكانها، وهي مستقرة مع أطفالها، أن تلاحظ سقوط الثمار على الأرض ثم عودتها للصحو والإنبات والإثمار مرة أخرى، فأعادت المرأة التجربة فنجحت في اكتشاف الزراعة، تلك الخطوة الأولى التأسيسية نحو قيام مجتمعات إنسانية حقيقية مستقرة.

وعندما عاد الرجال من غيبتهم في صيد الطرائد فاجأتهم المرأة بهذه القدرة الجديدة، وبذلك لم تعد فقط جزءًا من الخصب الكوني القدسي، بل يبدو أنها قادرة على ترويض الطبيعة وجعلها تلد بإرادتها كما تلد هي. ومن هنا أخذت تتحول إلى إلهة كبرى ليست ككل الإلهات والآلهة؛ لأنها أصبحت ربة الخير والخصب والعطاء والولادة والنور.

وفي ذلك الزمان لم يكن بإمكان الذكر إدراك دور في عملية الحمل والميلاد، فتصور تلك قدرة أنثوية بحتة، فما كان لعينه، وهو على مدارج بدائيته يحبو، أن يربط بين الفعل الجنسي وبين فعل الولادة؛ لأنه أولًا كان الجميع يمارسون الجنس مع الجميع، وهو ما يجعل المرأة يتناوبها أكثر من رجل، وبالتالي ما كان بالإمكان لأحدهم أن يدرك علاقته بالمولود، هذا إضافة إلى المدة الطويلة التي يستغرقها الحمل ما بين فعل الجنس وفعل الولادة، التي لا ريب ساهمت في عدم إدراك الذكر لدوره. كما كان الأطفال يمارسون في تلك الحقب الفعل الجنسي بشكل اعتيادي، ولم يكن ينتج عنه حمل ولا ولادة. وهي جميعًا الأمور التي أدت بالذكور إلى اليقين أن فعل الولادة اختصاص أنثوي بحت ليس للذكر دور فيه.

وقد عزز هذا الرصيد للأنثى ملاحظة الإنسان لدم الحيض وهو ينزل شهريًّا في مواقيت محددة، ثم يختفي مع الحمل ولا يعود إلا مع الولادة، فوضع تصورًا أوليًّا، وهو أن الدم هو مادة الحياة الأولى، وأنه يختفي داخل البطن؛ لأن منه يتشكل الوليد الآتي، بفعل خاص من المرأة وحدها. ودعم الفكرة ملاحظته أن الجروح النازفة عادة ما تؤدي إلى الموت في بيئة كان فيها الجرح هو ذلك المتكرر الدائم، وكان الموت بالنزف يعني لديه خروج سائل الحياة (الدم) من الجسد؛ مما يؤدي إلى خموده وفنائه.

وأدت محاولات حفظ الطعام بالمرأة إلى تطوير الأشياء من حولها، وتأملها والتدخل فيها؛ لتؤدي وظائف جديدة في عمليات تطويع وخلق ... أليست إلهة؟ كانت بداية الحفظ في وسائل الطبيعة الجاهزة مثل شق ثمرة جوز الهند لتصبح وعاءين، لكن أولى أواني عثر عليها الباحثون تأخذ شكل الاختراع، كانت تتسم بالطابع الأنثوي الواضح؛ لأنها جميعًا كانت متكورة كالثدي أو البطن. ومعنى ذلك أن المرأة كانت أول مخترع، بعمل الأواني الفخارية. وعندما تعرض الطعام المحفوظ للتخمر (وعادة كانت حنطة)، وعاد الرجال من ارتحالات صيدهم ليتناولوا حنطة مخمرة تدور بها الرءوس، لتنحني إجلالًا لهذا السحر الذي أدى للتأثير المباشر في الأجساد بمزيد من النشوة الأنثوية.

وإذا كانت «ميد Mead» قد استنتجت ذات الاستنتاجات وانتهت إلى أن مسألة الولادة تحديدًا قد أدت إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة، فإنها وضعت يدها على اللحظة المفصلية لبدء انحدار وضع المرأة المجتمعي وصعود الرجل، وهي لحظة اكتشاف الزراعة، التي أدت إلى استقرار الذكور بجوار النساء انتظارًا لنضوج المحصول، ومع هذا الاستقرار كانت بداية الانزلاق السريع لوضع المرأة.[٦]

كان الانتظار والاستقرار ظرف المرأة الملازم لها انتظارًا للحمل حتى نهايته، ومع اكتشاف الزرع واستقرار الذكر ينتظر بدوره، أدى إلى تدريب الذكر على الملاحظة. وقد لاحظت «هوكس» أن سيادة الذكور النهائية قد اقترنت بقيام القرى الأولى المستقرة، منذ حوالي خمسة آلاف عام من الآن.

وهكذا استبطن الأساس الاقتصادي لوضع المرأة المتميز اجتماعيًّا بذور سقوطها عن عرش سيادتها، ومتضمنًا في بذور اكتشافها لدورة بذور النبات. فكان استقرار الذكور الذي تواكب مع قطع الغابات والتحقيل، وما احتاجه ذلك العمل الجبار من قوًى عضلية طورت الكشف التأملي للمرأة، كذلك ما احتاجته الأعمال الجديدة من تدجين لأنواع قوية من حيوانات يمكنها جر الأشجار المقطوعة وحراثة مساحات واسعة وحمل المحصول إلى مخازنه، وهو جميعه ما احتاج دومًا للعضلات، فصعد نجم الذكر؛ الأمر الذي انتهى بتبادل المواضع السيادية. وقد عجل بهذا التبادل هبوط الموجات البدوية المهاجرة المعروفة بالهجرات السامية على الهلال الخصيب، في ذات الزمن الذي حددته «هوكس» لقيام القرى المستقرة الكبيرة، فقد بدأت تلك الهجرات قبل حوالي ثلاثة آلاف عام من الميلاد.

(٣) فلسفة الدم (وضع المرأة في المجتمع الذكوري الأول)

الملحوظة الجديرة بالاهتمام بصدد الهجرات السامية، أنه بعد هبوطها على الهلال الخصيب (وهو نموذجنا هنا) يلي ذلك توحيد المدن الدول في أقاليم كبرى ثم في دولة مركزية واحدة، كان أول مؤسسيها «سرجون الأول الأكادي»، دولة ذكورية كاملة ونموذجية، استمرت الإلهات الإناث في عالم العقائد بكثافة، لكن بعد دخول عالم الآلهة آلهة ذكور أهمها إله الدولة الحاكمة.

والنقوش التي تركتها لنا فنون الهلال الخصيب تصور الإلهة الأنثى عادةً تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف في حقل حنطة، أو تصور الحنطة كنقش على ثوبها. ولنلحظ أن الحنطة هي أول نبات تم تدجينه وافتُتح به عصر الزراعة؛ مما يفسر لنا تاك النقوش، فالمرأة كانت أول من دجن الحنطة، وأحيانًا كان يتم استبدال الحنطة بعرجون البلح والنخلة. ونظن أن كلمة تمر (ثمار النخلة) بدورها تشكل أحفورة لغوية تشير للبدايات الأولى، فالكلمة (تمر) فيما نظن كانت الأصل اللغوي الذي تم تعميمه على جميع الثمار من بعد.

وحتى اليوم يعد البلح من الثمار المباركة التي تعالج كثيرًا من الأوجاع في تقارير منظومة المنطقة القدسية، فهذا الثمر كذلك في الإسلام، وفي رؤية الإسلام للمسيحية، فقد أولد الإسلام مريم تحت جذع النخلة: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)، ولا يخفى ما في فعل «الهز» من رمزية واضحة ترتبط بالثمرة الأولى المقدسة.

ومع الاستقرار لاحظ الرجل دوره في عملية الحمل والميلاد، واكتشف دوره الذي لا يقل أهمية عن دور الأنهار أو الأمطار للأرض كي تلد، واكتشف أن منيَّه الذكوري هو ماء الحياة وبدونه لا يمكن الميلاد، فشعر بدوره المتعاظم، وكان لا بد أن يرقى سلم الألوهية بدوره، ومن هناك قام يسلب الإلهات الإناث أدوارهن تدريجيًّا حتى يسود مملكة السماء أيضًا.

والتساؤل عن مزيد من تبرير سر قدسية حبة الحنطة والتمر وارتباطه بالأنثى، نُحيله إلى شكل حبة الحنطة ونواة التمر، إنها فرج صغير يكاد يطابق فرج الأنثى من حيث الشكل، وإنه كما يُروى فرج المرأة بماء الذكر تُروى حبة الحنطة ونواة التمر بالماء فتنفلق عن حياة جديدة.

إذن لاحظ الذكر وهو يتأمل أهمية الدم الحيضي حتى اعتبره المادة الخام للحياة وسرها، فتعبَّد إلى أفروديت الولادة وتعبَّد إلى تماثيل في هيئة قضبان ذكرية وقروح أنثوية، عُثر عليها أيضًا في تلك الحقب، كذلك كان لا بد أن يقدس ويعظم ويبجل مادة الحياة الأولى والأكثر طهارة من كل المواد؛ «دم الحيض» تحديدًا.

ونتذكر أن أول قصة خلق كانت بسيطة بساطةَ البدايات الأولى، لقد ولدت الإلهة الأم الكبرى كل الكائنات الحية جميعًا كما تلد الأنثى البشرية مواليدها. وقد بقي عن تلك القصة ذكريات تمثلها أسطورة «الشعير والنعجة» السومرية، وتقول الأسطورة: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة

الأرض كما يخرج الزرع والدود وبقية صنوف الحياة (ولا تفوت عين مدققة دلالات عنوان الأسطورة، فالنعجة هي رمز أنثى الإنسان الأشهر، مثلًا قصة داود والتسع وتسعين نعجة، أما الشعير فهو حنطة الأنثى واكتشافها الأول).

لكن بعد الهجرات السامية الكبرى، وقيام دول ذات حكومات، تسارعت خطى التحول نحو سيادة الذكر نهائيًّا في عالم السماء كما في عالم الأرض، ونموذجًا لذلك أسطورة من بلاد الرافدين تمت صياغتها مرتين، المرة الأولى زمن الحضارة السومرية القريبة من أيام سيادة الأنثى؛ لذلك اتسمت بملامح سيادية نسوية واضحة، أما الصياغة الثانية لذات الأسطورة، فقد تمت مع قيام أول مملكة كبرى في الرافدين السامي هي مملكة الأكاديين، ومع الصياغة الجديدة اختفى دور المرأة من عملية الخلق تمامًا.

تقول الأسطورة في صياغتها السومرية إن الإلهة «إينانا» (واسمها يعني «E» أي بيت + AN لفظ سيادة = سيدة البيت) كانت تهبط إلى عالم الموتى في باطن الأرض بشكل دوري كل عام، بتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفي، حيث يبدأ فصل الجدب بغيابها، وهي في الأسطورة الإلهة الأم الولَّادة مانحة الحياة، ثم تعود الإلهة إلى سطح الأرض مع الاعتدال الربيعي «فيعود الخروف إلى شاته والثور إلى بقرته والزوج الغاضب إلى بيته»، فعودتها كانت عودة الخصب وتفتُّح الأزاهير، عودة عملية الإخصاب والتوليد والخلق.

ومع دخول البدو الأكاديين وقيام دولة كبرى، تم إدخال تعديلات جوهرية على الأسطورة، فاستُبدل اسم «إينانا» باسم «عشتار» من العشرة والمعاشرة والتعشير (أي الجماع). لكنها لا تصبح السيدة المسئولة عن الخصب حيث يظهر سيد جديد ذكَر كان في الأسطورة السومرية مجرد ذكر خامل الذكر ضمن عديد من عشاق «إينانا» تذكرة بالزمن الأمومي الأول، وتعلو مكانة هذا الذكر «تموز»، ويصبح هو المسئول عن الخصب والحياة، ويحوز لقب «تموز راعي الخراف الطيب»، ويصبح هو رمز النبات الذي يموت في فصل الجدب ويهبط إلى عالم الموتى عند المنقلب الخريفي، ويعود حيًّا عند المنقلب الربيعي فتعود بعودته الحياة الأولى للأرض، بل وتبدأ الأنثى تتسم بالشرية؛ لأن الأسطورة الأكدية جعلتها (المرأة أو عشتار) هي التي تسلمه لزبانية الجحيم فيهبطون بالراعي الطيب إلى عالم الأموات. لقد بدأَتْ من هذه اللحظة سلسلة التبخيسات التي لحقت بالمرأة.

لكن المرأة ظلت تتشبث بعالم السماء ولم تتخلَّ عنه بسهولة؛ عملًا بقاعدة استمرار بقاء واستمرار المأثور التقليدي مدة أطول من مدة التغير في الحضارة المادية. بقيت المرأة تتشبث عالم الألوهية حتى زمن «مريم» في المسيحية. لكن الملاحظ دومًا هو تواريها التدريجي خلف البطل الذكري، فأصبح الدور الأول في الأساطير المصرية للإله الذكر «أوزيريس» رب المياه، خاصة

أنه قد أصبح أيضًا ربًّا للزرع والخضرة، وهما اختصاص الإلهة «إيزيس»، التي كانت صاحبة الصدارة في الأصل الأول لأسطورة الزرع المصرية، وفي كنعان أيضا توارت الإلهة «عنات»، وأخذ دورها في الهبوط إلى عالم الموتى والعودة ذكَرها وسيدها «بعل»، الذي أصبح ربًّا للخصب بدلًا من «عنات».[٧]

وضمن ما بقي من تأثيرات الزمن الأمومي ووصلَنا عبر آثار الممالك في المنطقة، طقس توعِز قراءته أنه يعود إلى زمن أمومي خالص، وظل يمارَس حتى زمن قيام الدول الكبرى، كان هذا الطقس احتفالية جنسية عمومية هائلة ينسى فيها الجميع أي قرابات بينهم، في حفل نزوي عظيم يلتقي فيه جميع الرجال بجميع النساء بشكل عشوائي، وكان يمارَس في أيام محددة حول معبد الإلهة عشتار. وكان أشرف الأعمال في سومر القديمة هو التضحية بالبكارة في هيكل الربة الأم الولود المخصبة الشبقة مانحة الحياة؛ تذكرة بتلك الأيام الخوالي، أيام كان كل الرجال لكل النساء في مجتمع أمومي خالص.

وإذا بدا ذلك الحفل العربيد ممجوجًا وفق أذواقنا الأخلاقية اليوم، فإنه لم يكن كذلك في تلك الأزمنة، بل كان واجبًا دينيًّا وفريضة تقدمها المرأة للربة؛ كي يفشو الخير وتأتي السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية في الطبيعة تأسيسًا على مبدأ السحر التشاكلي؛ حيث الشبيه ينتج الشبيه. وليس أدل على جلال هذا الطقس وشرحه من تلك اللوحة التي عُثر عليها في طرالس بليديا، منقوشة على عمود مرمري يعلن أن الشريفة «أورليا آماليا» قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها في تدينها أصيلة، وما فعلته كان شرفًا معلومًا في أسرتها خلفًا عن سلف، فقدمت أمها وجدَّتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك.

ولنلحظ استمرار التواجد الأنثوي في العبادة حتى الآن في العقيدة المسيحية؛ لأن «مريم» تعتبر أم المسيح الإله الابن من الإله الأب رب السماء، وتستوجب احتفالية خاصة بها تقدسها، لذلك اختصت دون الأقانيم الثلاثة بصوم العذراء، الذي يصوم فيه المسيحي عن كل ما هو حيواني ويقتصر في طعامه على النبات وحده، تذكرة لا لبس فيها بالمجتمع الأمومي الأول في البيئة النهرية، عندما كان يستغني عن اللحم معتمدًا على الوفرة النباتية، في منظومة قدسية تسودها أم إلهية مخصبة. ولا ننسى التبادل بين الكلمات نبات وبنات (نبت وبنت/بنى: في العربية، فعل يعني: يمارس الفعل الجنسي).

واللغة عادة تحمل دلالات إحفورية تحمل الخبرة القديمة وما تركته من مفاهيم، فالكلمة قديسة، وتوصف بها السيدة «مريم»، هي في اللغة العبرية «قديشا» وفي الأكادية «قاديشتو»، وكان لقب المرأة العشتارية، التي يتم اصطفاؤها من بين جموع النساء الحاشدة حول معبد «عشتار»، ليلة الحفل النزوي العظيم، لتقوم بدور الإلهة داخل المعبد في هيكل عشتار، ويقوم الكاهن الأكبر،

وعادة ما يكون الملك، بدور الإله الذكر، ويبدأ الحفل النزوي بإشارة هي بدء المضاجعة بين الملك والمرأة المصطفاة.[٨]

أما بعض سعيدات الحظ فكان أهلوهن يقدمهن طائعات للمعبد لممارسة النزو القدسي عند الاحتفال الكبير، فإذا أنجبت نُسب الوليد إلى الإله، وتأخذ هي لقب «بتول» في الاحتفالات الكنعانية، و«بتولتا» في الحفل النزوي الأكادي، و«بتولا» في العبرية وتعني الأنثى غير المتزوجة، لكنها الخصيبة الوَلود في آنٍ معًا.[٩] وغني عن الذكر أن «مريم» كانت من المنذورات للمعبد اليهودي.

ولأن الخلق بالميلاد في النظام الأمومي كان يعتمد مادته الأساسية «دم الحيض»، فإن سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوي لمناطق الخصب وسيادة النظام الأبوي، كان لا بد أن تعيد إنتاج القصة بما يتفق والشكل السيادي الجديد، ولأن مفهوم الدم بات راسخًا، فقد لجأت الأسطورة الذكورية إلى صياغة جديدة وحيلة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة؛ لأن الذكر لا يلد، وأخذت منحًى آخر أعطى الذكر الدور الأساسي؛ فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر احتاجوا إلى مادة الحياة (الدم) فقاموا بذبح إله يُدعى «كنجو»، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان الأول، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية «إينوما إيليش» أو «في العلى عندما».[١٠]

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطًّا آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى «تيامة» إلهة شريرة. أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة «مردوخ» بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد. ثم قام «مردوخ» بشق «تيامة» كما تُشق المدفة إلى قسمين، رفع القسم الأول العلوي وجعله سماء وترك النصف السفلي ليصبح أرضًا.[١١]

(٤) وضع المرأة في قصة الخلق التوراتية

الكتاب المقدس، العهد القديم منه تحديدًا والمصطلح على تسميته باسم التوراة، رغم أن التوراة تطلق فقط على الأسفار الخمسة الأولى معه، كتاب تشكل في ظل نظام ذكوري تمامًا، فهو لا يذكر أو يتعرض للنساء إلا لمامًا، ويستحسن في الغالب عدم ذكرهن، حتى إن التعداد الرسمي لبني إسرائيل في أكثر من موضع كان لا يضع النساء ضمن التعداد، ومع ذلك فقد بقيت في المأثور التوراتي مجموعة إشارات تعود إلى ذكريات عن الأصول الأمومية الأولى.

لاحظنا في التوراة مثلًا أن المعرفة الكشفية ترتبط بالمرأة ارتباطًا وثيقًا؛ مما يؤكد اعتراف

الذكور الابتدائي بالقدرة التأملية والمعرفية الكشفية للمرأة، قياسًا على القدرة العضلية للرجل، والتوراة تربط بين المعرفة وبين الفعل الجنسي مع امرأة، فهذا الفعل يُدعى لغة «معرفة»، فالقول إن فلانًا قد عرف فلانة نعني أنه قد مارس معها الفعل الجنسي الكامل المؤدي إلى الولادة ومجيء حياة جديدة، والمصطلح واضح كما في النصوص:

وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك.

(تكوين، ٤: ١٧)

وعرف آدم امرأته أيضًا فولدت ابنًا ودعت اسمه شيثا.

(تكوين، ٤: ٢٥)

وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين.

(تكوين، ٤: ١)

وكانت معرفة آدم الأولى في الجنة ناتج عصيانه الأمر الإلهي بعدم أكل ثمرة بعينها، لكن الحية أوعزت لحواء بأكل الثمرة المحرمة، وأوعزت حواء بدورها لزوجها آدم، فأكلاها، أو بالنص:

فأخذت من ثرها وأكلت وأعطت رجلها معها
فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاط
أوراق تين وصنعا لأنسهما مآزر

(تكوين، ٣: ٦، ٧)

وهذه الشجرة تسميها التوراة «شجرة المعرفة»، والثمرة رمز المضاجعة التي تثمر بالولادة، وهو الفعل الذي أدى إلى معرفة آدم أنه عريان ولم يكن يعرف كذلك من قبل، فالقصة ترميز

واضح للفعل الجنسي مع حواء، ومعها عرف آدم وتعلم، والحية، كما هو معلوم في الأساطير، ذات قيمة مزدوجة؛ فهي من جهةٍ رمز القضيب الذكري الذي أغوى حواء إبان حالة العري الأولى، وهي من جانب آخر رمز الخلود؛ فقد رآها الإنسان الأول تنسلخ من جلودها كل عام، فتصور أن ذلك موت ثم حياة جديدة، فهي خالدة بمعنى أنها تولد من جديد كل عام. وكانت ملاحظة تشنجات جسد الحية وهي تنسلخ من جلدها القديم تشبه تمامًا تشنجات الفرْج الأنثوي إبان انسلاخ الوليد منه لحظة الولادة؛ لذلك حملت الأنثى بالتشابه، في ظل السيادة الذكرية، تلك القيمة الثنائية، فهي في العبرية حواء، لكن الكلمة (حواء) حملت في مفهومها جذر الحياة، ومن جانب آخر ارتبطت بالحية مصدر الأذى والشر. ولنلحظ الارتباط الجذري بين حواء وحياة وحية و(حيا: أي فرج الأنثى)، لكن ليتم بعد ذلك إعادة تفسير ذلك المأثور لتبخيس المرأة وليس التذكير بوضعها المتميز، فتصبح هي التي أوعزت لآدم بأكل الثمرة المحرمة في عالم الخلد، ففقد الرجال بسببها الخلود، وبحيث تتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

ولنعد إلى نصوص التوراة نقرأ ما حدث.

تحكي التوراة أن الله قد خلق ذكرًا أسماه آدم، ووضعه في الجنة حيث عاش وحيدًا لا يجد أنيسًا يؤنس وحشته. وهنا قرر الرب تسلية آدم والترويح عنه بخلق كائن يقوم بهذه المهمة. الترويح عن الرجل فقط هذا كان سبب وجود المرأة؟! وكان هذا الأنيس هو المرأة التي خلقها الله من أحد أضلاع آدم:

> هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة؛ لأنها من امرئ أُخذت.
>
> (تكوين، ٢: ٢٣)

النص هنا يجعل امرأة تأنيثًا من امرئ وليس العكس، ليظل الرجل أولًا، رغم أن قوانين اللغة السليمة لا تقول كذلك، وتتبع المرأة الرجل في الخلق، فهي جزء من جسده، وفي المسمى اللغوي، لكن بالتوراة نفسها جينات موروثة تشير لأضواء باهتة لزمن قديم، فتعين لتلك المرأة اسمًا آخر تعرف سببه وتفسره فتقول:

> ودعا آدم اسم امرأته حواء؛ لأنها أم كل حي.
>
> (تكوين، ٣: ٢)

وتفسر لنا العبرية تعبير «أم كل حي» بأنه «تلك السيدة التي تحيي.»!

إن قراءة الأساطير القديمة بحثًا عن اسم «امرأة» لا نجدها تابعة لامرئ بل العكس تمامًا، فالميم للأمومة، ولا تجد إلهة قديمة كبرى يخلو لقبها من ميم الأمومة، فأصل الكون البابلي «مي»، والأم الإلهة تحمل أحد الألقاب «ما، أماه، ماما، مامي»، [١٢] وكل إلهات الخصب في حوض المتوسط الشرقي حملن الألقاب «ميرها، ميريا، ميريام، ستيلاماريا، مريم». [١٣] والميرة هي الزاد، كمكتشفة أولى للزراعة؛ لأن الميرة عادةً تطلق على مخزون الحنطة والبلح تحديدًا. أما ميرها فهي شجرة المر المقدسة التي أنجبت الآلهة المذكورة.

أما الكلمتان: أنثى وحواء، فتضيئها لنا قصص الخلق الأولى في الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكي عن مكان كانت تعيش فيه الآلهة خالدة اسمه «ديلمون» ويعادل أوليمب اليونان. وهناك جاء إلى الوجود إله «آن–جي» بداية للبشرية على الأرض، رعيلًا أول يجمع اللاهوت مع الناسوت أو الألوهية مع البشرية، واسمه ملصق من مقطعين يشير إلى أنه أول من سكن الأرض فهو «آن = سيد + جي = الأرض – سيد الأرض».

وتحكي الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى الكونية «ماما هورساج» هي التي ولدته، وأنها حرمت عليه ثمارًا بعينها في ديلمون؛ حرصًا على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفي، فأكل تلك الثمار، فأصيب بمرض شديد في أحد أضلاعه كاد يقضي عليه.

وهنا أسرعت «ماما هورساج» بخلق إلهة أنثى مهمتها تمريض ذلك الضلع والعمل على شفائه، وكان اسم هذه الإلهة هو «آن–تي»، وهو اسم مركب من مقطعين «آن»، وتعني السيدة، و«آن» عندما تأتي بحسبانها اسمًا فهي تعني السيدة، و«تي» عندما تأتي بحسبانها اسمًا فهي تعني الضلع (آن–تي = سيدة الضلع)، لكن «تي» عندما تأتي بحسبانها فعلًا فإنها تعني «أحيا» أي يصبح المعنى «السيدة التي تحيي»، أو كما في التوراة «أم كل حي». [١٤] ثم يلقي الاسم «أُنتى» في الأسطورة الرافدية الضوء على أصل الأسطورة التي حوِّرت فيما نقله المأثور التوراتي عن الأصل الرافدي، لتكون حواء أو «أنتى» مخلوقة من ضلع أدم، أما «أُنتى» فواضح تمامًا أنها أصل المصطلح «أنثى».

(٥) آخر ملاحم التبخيس المقدس للمرأة

عندما ظهر المسيح في وسط يهودي مائة بالمائة لم يزعم أنه قد جاء بجديد، بل أكد أنه ما جاء

لينقض الناموس، بل جاء ليكمل، ومن هنا سلّم بكل التوراة، وضمنها قصة الخلق، ووضع المرأة في منظومتها. لكن مقاطعة الجليل التي ظهر فيها المسيح، دون بقية المقاطعات الفلسطينية، كانت تموج زمن ظهوره بعقائد واردة من مصر وفارس، تتحدث جميعًا عن آلهة فدائية جاءت وعاشت وماتت وقامت من بعد الموت في عيد للقيامة مجيد، آلهة أشهرها بعل وأوزيريس وتموز وأدونيس وميتهرا، كلها تعرضت للموت وقامت كما يقوم الريح، لذلك فإن المسيح قدم نفسه من خلال تلك الصيغة الزراعية لكن على أرضية كاملة البداوة عبرية تمامًا. ومن هنا حاول المسيح من البدء تأسيس مبادئ خصبية، لكن لم يمضِ على اختفائه عدد من العقود حتى تحولت المسيحية لتفترش خلفيتها البدوية الكاملة مرة أخرى.

لقد كانت الأصول الزراعية أساسًا متينًا لوجود مريم على رأس العقيدة المسيحية، مريم الحكيمة البتول التي تُصب منها النعم. نموذجًا واضحًا لبقايا السيادة الأنثوية العارفة المؤلهة. وحتى زمن القديس يوحنا فم الذهب كانت العلامة بالمرأة مصدرًا للمعرفة، وأسطورته تحكي أنه كان طفلًا متخلفًا في دراسته فذهب ووقف يصلي أمام تمثال العذراء لتساعده، فدبت الحياة في التمثال وخاطبته العذراء: «يوحنا تعالَ وقبِّل شفتَي وسوف تحل عليك المعرفة، لا تخف.» وبعدها أصبح يوحنا أحكم أهل زمانه حتى لُقب بفم الذهب. [١٥]

ورغم أن اليهودية كانت قد حظرت على النساء الصلاة داخل المعبد أو المشاركة في أعمال الكهنوت؛ لأنها اقترفت الخطيئة الأولى وأخرجت الذكر من الجنة، ولأنها أصبحت مسئولة عن الشقاء وعن الموت، فإن المسيح قد حرص على إبراز مخالفته لذلك؛ فكان يحرص على الحديث مع النساء باعتبارهن كائنات بشرية كاملة، بل وأشركهن في نشاطه التبشيري «على إثر ذلك كان يسير في كل مدينة وقرية يكرز ويبشر بملكوت الله ومعه الاثنى عشر وبعض النساء ... مريم التي تُدعى المجدلية ... ويوانا امرأة خوزي وكيل هيرودتس وسوسنة، وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن» (لوقا، ٨: ١–٤).

لكن ما كان ممكنًا العودة بعد كل هذا السلطان الذكوري الكامل، فتراجعت فكرة المساواة التي نادى بها الإنجيل، وتحول الأصل في الحريات الجنسية وفق المنظومة الخصيبة إلى نقيضه تمامًا؛ وذلك بفضل «بولس الرسول» الذي شرع تغطية المسيحية لرأسها أثناء الصلاة، مع إعادة تأكيد موقف التوراة في قوله لأهل كورنتوس: «ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل» (كورنتوس، ١١: ٩).

وبالغ بولس في التصويب على سيده المسيح، رغبة في مزيد من تبخيس المرأة قدسيًّا فقام ينادي:

«أيها النساء: تخضعن لرجالكم كما للرب؛ لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك النساء لرجالهن في كل شيء.»

(رسالة بولس إلى أفسس، ٥: ٢٢–٢٤)

أما على مستوى المعرفة، فقد جاء الأمر من رجل أصبح كلامه مقدسًا في قولة شهيرة تعلن أمرًا إلزاميًّا:

«لست آذن للمرأة أن تعلم (؟!)
ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت.»

(رسالة بولس لتيموثاوس، ٢: ١١)

ويأتي القديس ترتوليان ليعقب على موقف بولس من تجهيل المرأة؛ لأنها بعلمها كانت تتسلط على الرجل، ويوجه الخطاب للمرأة المؤمنة في زمنه يناديها مفسرًا أسباب هذا الانقلاب التاريخي:

«لا يجوز لكِ أن تخلعي عن جسمكِ ثياب الحداد، بل عليكِ أن ترتدي الأسمال وتغرقي في الحزن والندم؛ كي تكفري عن خطيئتكِ في دفع الجنس البشري إلى الهلاك ... إنكِ يا امرأة، باب الشيطان، فأنت من لمس شجرة الشيطان ومن انتهك في الأول الناموس الإلهي.»[١٦]

وهكذا، وعلى أصول مغلوطة توراتية، لأصول سومرية أسطورية، صدر الحكم التاريخي ضد المرأة. وتتابع القديسون المصابون برُهاب المرأة أو بالقصور عن التواصل معها، فيبالغ القديس «بيرونيموس» في رفض العلاقة الجنسية إلى حد اعتبار أن الزواج هو عطية الخطيئة، وانتهى زمن المشاع واحتفالات الخصب النزوية إلى نقيض صارخ يمجد العذرية وعدم الزواج؛ باعتبارها ذات المكان الأعلى في الجنة المسيحية. يصدر «جراسيانوس» مرسومًا في ١١٤٠م يقول:

إن صورة الله ماثلة في الرجل الذي خُلق أوحد، وجُعل أصلًا للكائنات البشرية قاطبة. وقد أُعطي من الله السلطة لأن يحكم بوصفه نائبه؛ لأنه صورة الإله الأوحد؛ ولهذا السبب

لم تُخلق المرأة على صورة الرب. [١٧]

ولوجود مشكلة فقهية داخل مؤسسة الفكر الديني المسيحي أدت إلى انقسامه حول طبيعة «مريم»، وهل هي إلهة من الأصل حتى يمكن لبطنها حمل الله اللامحدود، أم هي إنسانة ومجرد وعاء؟ البعض تمذهب ذراعيًّا وألَّه مريم، أما الآخرون فقد خلعوها من على كرسي الألوهية؛ حتى يمكنهم القول لنساء الأرض إن الرجل هو الذي يلعب الدور الكامل وحده في المواليد، أما المرأة فمجرد وعاء أو إناء مؤقت؛ لأن الله كان صاحب الدور الكامل في ميلاد يسوع المسيح، ولا وجود إلا لجنس واحد كامل هو الذكر، أما المرأة فلو حتى كرمناها لقلنا إنها ذكر ناقص، إضافة إلى كونها قد سقطت في امتحان الجنة.

وطوال العصر الوسيط كانت الشروح على مرسوم «جراسيانوس» تستشهد بأفلاطون الذي رفض عقاب المرأة؛ لأنها ليست كائنًا يعقل كالإنسان الذي هو فقط الرجل، بل هي أقرب إلى البهائم. وبالتاريخ الطبيعي لبليني حيث يقول: «الحيض يمنع الانتعاش ويقتل النبات ويُصدئ الحديد ويصيب الكلاب بالسعار.» وتحولت المادة الأطهر إلى أكثر المواد نجاسةً وسببًا في تبخيس المرأة. واقترن تمجيد العذراء بتنجيس جنسها جميعه، حتى إن الكلمة «Femina/امرأة» مركبة من مقطعين «Fele Minus» أي: «إيمان أقل».

وعندما جاء الإسلام كان الموقف من المرأة قد تأسس قدسيًّا، فالذكر هو المخلوق الأول وهي الثاني، وهي قطعة منه خُلقت من أجله، وتمت إعادة حواء إلى زمن الخطيئة الأولى الأسطوري؛ ليمركز الشر كله حولها؛ فهي شيطان غواية؛ لأنها رفيقة إبليس، وهي لا تتحكم بشهواتها، ولا تكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، حتى قصص الأنبياء تخبرنا أن نساءهن قد وقعن في الخطيئة، مثل امرأة لوط وامرأة نوح، وهاروت وماروت أغوتهما امرأة، وكانا ملائكة مكرمين، وولدا آدم تقاتلا على امرأة؛ فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعي أن تخون، فهي أحد أربعة خوانين، في مأثور يقول: «أربعة لا أمان لها: المال ولو كثر، الحاكم ولو قرب منك، الدهر ولو صفا، المرأة ولو طالت عشرتها.» خُلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، «ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» حديث نبوي، و«الكهنة رسل الشيطان، والنساء مصايده» حديث نبوي، هي مجرد جسد ومتاع للمتعة كأي متاع، أصبح غير مطلوب منها أن تفكر؛ فهناك من يفكر بالنيابة عنها، هي مجرد فرج؛ لذلك هي حرمة وحرام، صوتها عورة، ورضا زوجها عنها رضًا من الرب والناس. والمرأة النموذج هي التي لا تعرف عن نفسها سوى كونها عورة وحرمًا لا يجوز لمسه إلا لصاحبه المالك الأوحد، الأب ثم الزوج. وهي ناقصة دين؛ لأنها

نجسة وطبيعتها النجس، والفعل الجنسي معها يؤدي إلى النجس كالموت، فكلاهما يستوجب الاغتسال الكامل مع بعض الدعوات المنجيات والآيات المطهرات، ودم الحيض يغطيها بالدنس، لذلك تُرفع عنها أثناء فترة الحيض أو النفاس بعد الولادة كلُّ التكاليف التعبدية، لا تصلي، لا تصوم. وبينما يحتسب ذلك بسبب نجاسة الدم، نظن من جانبنا أن ذلك إنما هو بقايا زمن قديم كان فيه الدم سر سيادة الأنثى وألوهيتها.

وتبقى أيام الحيض الخمسة الشهرية رصيدًا لذكرى قدسية المرأة وشأنها في التاريخ، كذلك يتقدس رقم خمسة ويصبح مانعًا للسحر والمرض والحسد، ويصبح يوم الخميس اليوم المفضل لجماع أمثل، والخمسة تظل علامة رمزية على الفرج.

وفي عهد الجاهلية الأخير عشية الإسلام، كان الدم الحيضي لم يزل مقدسًا، وكان نسوة العرب يطُفن بالكعبة ويمسسن بدم الحيض حجرها الأسود؛ تقديسًا له وتواصلًا مع الذكر السماوي، لكن كتبنا التراثية تسجل لحظة التبخيس فتقول: «إن الحجر الأسود كان أبيض فاسودَّ من مس الحيض في الجاهلية.» [١٨]

فهكذا كانت في فجر الإنسانية وهكذا كان ضحاها، ولم تزل درجات السلم التطوري نحو رقي حقيقي وراء سجف زمان لم يأتِ بعد.

---

[١] ★ نص ورقة بحثية ومحاضرة.

[٢] Jacquetta Hawkes, PreHistory New York, American Liberty, 1963, pp. 35–357.

[٣] سيجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص١٨٠، ١٨١.

[٤] نقصد «أصل العائلة» كتابه الأشهر.

[٥] إن الجمع على النسبة إلى أم هو أمي وليس أموميًّا، لكنا جرينا على الخطأ الدارج حتى لا تنصرف الدلالة إلى مقصود مخالف.

[٦] Mead, Male and Female, New York, Morrow, 1949, pp. 102-103.

[٧] جيمس فريزر: أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص٣٥.

[٨] فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠م، ط١، ص٢٤٦.

[٩] يعقوب السيد بكر، هوامشه على ترجمته لكتاب موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، القاهرة، ١٩٥٧، ص٢٤٧.

[١٠] أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠٩.

[11] نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١م، ج٦، ص٣٩٤.

[12] جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص١١٠

[13] نفسه، ص٣٨.

[14] صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧١م، ص٢٤٣، ٢٤٤.

[15] ولدرير، الجينوفوبيا أو الخوف من النساء، باريس، ١٩٧٠م، ص٩٤.

[16] ترتوليان، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص٣٤٣.

[17] منشورات ألفريد فرج، المجلد الأول، ص١٢٥٤، ١٢٥٦.

[18] محمد حسني عبد الحميد، أبو الأنبياء، دار سعد، القاهرة، ص٩٢.

الفصل الخامس عشر

معارك فكرية

في صحيفة أخبار الأدب نشرنا فصلًا واحدًا من كتابنا النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة، فكانت معركة فكرية، منها النماذج التالية:

(١) تصحيح للمعلومات الواردة في مقالات الدكتور سيد القمني [*١]

د. عبد المنعم عبد الحليم سيد

أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية

بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

تابعت المقالات المنشورة في أخبار الأدب في الأعداد الصادرة أيام ١٢/١، ١٢/٨، ١٢/١٥، ١٢/٢٢، وأولها بعنوان «رحلة النبي موسى» بلاد بونت ليست الصومال، وثالثها بعنوان «الموقع الصحيح لبلاد بونت» وفي هذه المقالات كثير من الأخطاء التاريخية؛ نتيجة اعتماد الكاتب على التشابه اللفظي وحده بين الأسماء التاريخية والجغرافية، دون أن يرجع إلى الوثائق التاريخية والأثرية.

ورغم أن الكاتب رجع إلى أحد بحوثي في موضوع تحديد موقع بونت (هامش رقم ٩ من عدد يوم ١٢/١) إلا أنه لم ينتبه إلى ما وضحته من اختلاف المدلول الجغرافي لهذه الكلمة (بونت) باختلاف عصور التاريخ الفرعوني، كما أنه لم يطَّلع على أهم ما نشرته في هذا الموضوع، وهو التقرير الخاص بنتائج الحقائق التي أجريتها على ساحل البحر الأحمر خلال عامَي ١٩٧٦م، ١٩١م والتي تمكنت خلالها من الكشف عن موقع الميناء الذي كان المصريون يبحرون منه إلى بلاد

بونت هذه، وقد قامت جامعة الإسكندرية بنشر هذا التقرير (مرفق نسخة). إن الباحث في موضوع تحديد بونت يجب أن يميز بين ثلاثة مسميات أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد؛ وهي:

- (١) مصطلح عام هو «بونت»، وكانوا يطلقونه على المناطق التي يحصلون منها على البخور.
- (٢) مصطلح خاص هو «بيا–بونت» بمعنى منجم بونت، وكانوا يطلقونه على المناطق التي يحصلون منها على الذهب إلى جانب البخور.
- (٣) مصطلح خاص آخر هو «ختيو–عنتيو–نو–بونت» ومعناه «منطقة مدرجات البخور في بونت»، وقد أطلقوه على المنطقة التي حصلوا منها على أشجار البخور لاستزراعها في مصر.

والمصطلح الأول أُطلِق في البداية على المناطق الواقعة على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر الغربية من جنوب مصر، ثم امتد مدلوله على طوال الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، حتى شمل شمال شرق الصومال، وسبب هذا الامتداد يرجع إلى توغل المصريين جنوبًا على طوال الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، للاقتراب قدر الإمكان من مناطق نمو أشجار البخور في شمال الصومال لتقليل الوسطاء؛ وبالتالي ثمن السلعة (كما دلت على ذلك نصوص هيروغليفية من عصر الملكة حتشبسوت).

والمصطلح الثاني «بيا — بونت — أو منجم بونت»، أطلقه المصريون القدماء على الجزء الجنوبي من صحراء العتباي، الممتدة في شرق السودان، حيث توجد مناجم الذهب، وقد أثبت ذلك في تقرير الحفائر التي أجريتها على ساحل البحر الأحمر (ص٥٦–٦٦ من التقرير المرفق).

أما المصطلح الثالث، وهو منطقة مدرجات البخور في بونت، فقد استخدمه المصريون لأول مرة في عصر الملكة حتشبسوت في النقوش التي تسجل بعثتها إلى بونت لجلب أشجار البخور؛ لاستزراعها في حديقة معبد هذه الملكة الدير البحري بقرب الأقصر، وقد أثبت في البحث الذي أشار إليه الدكتور القمني «محاولة لتحديد موقع بونت» أن هذه المنطقة تقع في شمال شرق الصومال، وقد استخدمت في ذلك الوثائق الهيروغليفية والأدلة الجغرافية والنباتية والحيوانية، بالإضافة إلى رواية الكتَّاب اليونان والرومان.

وهكذا امتد المدلول الجغرافي للمصطلح «بونت» على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، من ساحل السودان في عصر الدولتين القديمة والوسطى، حتى ساحل الصومال في عصر الدولة الحديثة، وهذا ما تعارف عليه علماء الآثار المصرية، ودلت عليه الآثار والنقوش التي اكتشفها في

موقع الميناء (التقرير المرفق).

من هذا يتضح أن كل المناطق التي أُطلقت عليها التسمية بونت ومشتقاتها في النصوص المصرية؛ يقع في مناطق أفريقية وليست آسيوية؛ وعلى ذلك فإن ما دفع إليه الدكتور القمني بأن بونت تقع في بلاد الأنباط في شمال خليج العقبة؛ يخالف هذه الوثائق التاريخية الأثرية.

وهناك وثيقة هيروغليفية ذات أهمية كبرى في هذا الموضوع، يبدو أن الدكتور القمني لا يعلم عنها شيئًا، وهي لوحة سُجل عليها ما يفيد أن سقوط المطر على جبال بونت يؤدي إلى حدوث فيضان النيل؛ مما يدل على أن بونت تقع إلى الجنوب من مصر، أي في منطقة أفريقية، وبطبيعة الحال لا يمكن حدوث فيضان النيل إذا سقطت الأمطار على شمال خليج العقبة، التي يحدد الدكتور القمني موقع بونت في نطاقه.

وبالإضافة إلى هذه المخالفة للحقائق التاريخية والأثرية عن موقع بونت، فقد وقع الدكتور القمني في أخطاء أخرى نجملها فيما يلي:

- (١) في عدد يوم ١٢/١٥، العمود الأول، ص٢٩، يقول: إن «البتراء» كان اسم العاصمة زمن الأنباط، وهو غير صحيح؛ لأن الاسم النبطي البتراء هو «قمو»، ومعناها «البتراء»، وقد أطلق الأنباط هذه التسمية على عاصمتهم بسبب تعدد ألوان صخورها، وهو الاسم الذي تحور إلى «الرقيم» الوارد في سورة الكهف، أما كلمة البتراء فهي من التسمية اليونانية petra ومعناها الصخرية أو الحجرية.

- (٢) في عدد يوم ١٢/١ ص٨، العمود الثالث، يقول الدكتور القمني: إن كلمة «بونت» لم ترِد بها العلامة الأجنبية، وهو خطأ أيضًا؛ إذ العكس هو بيا–بونت، ومنطقة مدرجات البخور في بونت كانت تلازمها هذه العلامة التي على شكل ثلاثة جبال (راجع التقرير المرفق شكل ٢٩)

- (٣) في نفس العمود المذكور في (٢) يقول إن الملك البونتي الذي دوِّن اسمه «بارح» في نقوش حتشبسوت يحمل لقب «عظيم عظماء إرم»، وهو غير صحيح؛ لأن هذه العبارة مدونة في رسوم حتشبسوت في الصف الذي يعلو صف عظماء بونت، وتخص شعبًا آخر أطلق عليه المصريون الاسم «إرم».

- (٤) في عدد ٢/١ ص٨، العمود الأول، يقول: إن الفرعون أمنمحات الأول، من ملوك الأسرة ١٢، أرسل ثلاثة آلاف جندي برئاسة القائد «حنو»، وهو غير صحيح أيضًا؛ لأن الفرعون المقصود هو المسمى منتوحب–سعنخ كارع، أحد ملوك الأسرة ١١.

(٥) في نفس العمود المذكور في رقم (٤) يقول: إن لوحة النصر للملك أمنمحات

الثاني، جاء فيها أن الملك قام بتوطيد سلطانه في أرض الإله، وهو خطأ لأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثاني.

(٦) في عدد ١٢/٢ ص٩، العمود الثاني، يقول: إن تقرير مسئول حكومي اسمه «خنوم–حتب» عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية، جاءنا على حجر بلرمو موجزًا يقول: «إنه زار بلوس وبونت»، وهو غير صحيح لأن هذا النص وارد في مقبرة رجل يدعى خوي في أسوان وليس على حجر بلرمو؛ لأن هذا الحجر مدونة رسمية خاصة بالسلوك لا بالأفراد. هذه بعض الأخطاء التي أكتفي بها حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجِّلًا التصحيحاتِ الأخرى إلى الأعداد القادمة.

(٢) بلوغ الأرب[٢*] في أصول اللياقة والأدب[٣]

بعد ما ينوف على العشر سنوات من الجهد المكثف والمضني، مع التفرغ الكامل، أوشكت على الانتهاء من تدبيج كتابي المعنون «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة». وقد اضطرني هذا العمل إلى سفرات شتى سعيت خلالها أدقق وأنقب وراء كل ما يتصل بموضوعي، وكان أشدها قسوة سفري في ظروف صحية صعبة إلى بوادي سيناء، ثم بوادي الشام، ثم أقصى شمالي العراق، ثم الأردن، حتى تمكنت من إنجاز أكثر من ثلاثين فصلًا. نشرنا منها فقط فصلًا واحدًا صغيرًا بأخبار الأدب، استغرق نشره ست حلقات، اشتملت كل حلقة على صفحتين من تلك الصحيفة، وهو فصل من الجزء الثاني لكتاب يتكون من ثلاثة أجزاء، وهكذا يرى قارئي أن تلك الصفحات المنشورة لا تعبر إطلاقًا عن كتاب بهذا الحجم. يضيف كل فصل فيه قرائن وشواهد وأدلة تدعم أركانه التأسيسية.

وبين هذه الأركان جاء فرضًا أن بلاد بونت المذكورة بالوثائق المصرية القديمة تقع على امتداد وادي عربة وجبال سراة سعير، بين خليج العقبة جنوبًا والبحر الميت شمالًا. وعندما وصلنا إلى الفروض التأسيسية لعملنا، وجمعنا لها المادة الوثائقية اللازمة والقرائن والشواهد الهائلة كمًّا وكيفًا، وضمنها فرض بلاد بونت، بدأنا الكتابة ونحن نعلم حجم ردود الفعل التي سيلقاها عملنا هذا، وهو أمر اعتدنا عليه؛ لأننا نخوض دومًا في مناطق ملغومة وخلافية. وقد توقعنا مع عملنا هذا تحديدًا أننا سنتعرض لهجمات شرسة سواء من أصحاب العقائد الثابتة الجامدة، أو من أصحاب الأيديولوجيات عمومًا، ثم من رجال التاريخ التقليديين خصوصًا. هذا ناهيك عن كون أي بحث في فلسفة التاريخ أو في علوم التاريخ الاجتماعي أو التاريخ الديني؛ عادة ما يستفز ثائرة المؤرخ التقليدي الذي يرى هؤلاء — رغم رسوخ أقدامهم — دُخلاء على ميدانه، وهو الأمر الذي تعرض

له في بلادنا أكثر من باحث، مثل كمال الصليبي وفراس السواح ومحمد البهبيتي، أو ما تعرض له في غير بلادنا سيجموند فرويد وجيمس فريزر وفليكوفسكي وغيرهم كثير، لكن لو حاذر هؤلاء مثل تلك المواقف السلفية المتوقعة لَمَا حظينا بالثراء الذي أضافوه إلى ثروتنا المعرفية والمنهجية.

وإن مثل تلك العلوم التي تعمل معتمدة على المادة التاريخية ليست أبدًا تأريخًا بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فالباحث فيها تختلف مهمته ومنهجه اختلافًا بيِّنًا عن المؤرخ، حيث يعتمد على الوثائق التي يقدمها له المؤرخ والمادة العلمية الضرورية، التي يُعمل فيها مناهجه وأدواته للوصول إلى ما يبغيه من إعادة ترتيب تلك المادة أو تحليلها، ثم إعادة تركيبها أو الاستنتاج منها أو الاستفادة بها في كشوف جديدة.

لكن ما إن نشرنا هذا الفصل منزوعًا من سياقه، والذي لا تعبِّر مادته وقرائنه عن مجموع ما حُشِد في فصوله من دلائل وقرائن وبراهين سوى بنسبة واحد إلى ثلاثين أو أقل من ذلك، طالعنا الدكتور عبد المنعم عبد الحليم بالرد على أطروحتنا جميعها وبرمتها عبر هذا الفصل، دون أن يتمهل حتى يقرأ العمل كاملًا، ويبدو أنه لم يلتفت إلى الإشارات المتكررة بالصحيفة إلى أن ما يُنشر نماذج من الكتاب، وجاء ذلك الرد في عدد أخبار الأدب بتاريخ ١٢/١/١٩٩٧م.

ورغم عتابنا الهادئ على تسرع الدكتور، فإنه قد ساق رده بنبرة هادئة ليبلغ أربه بلباقة ورصانة، وهو الأمر الذي يحتاج في التعامل معه إلى قدر من اللياقة والأدب لنبلغ بدورنا الأرب.

والطريف أني توقعت رد الدكتور عبد الحليم بوجه خاص؛ لأني أعلم أني قد خُضت في منطقة عزيزة عليه، وأنه صاحب نظرية فيها قد أعلنت خلافي معها. وأنه قد كرس لها من وقته وعلمه، كما كرسنا وبحثنا؛ فجاء عشقنا واحدًا، ولأني كنت أعلم أن ذلك سيزعجه، فقد توقعت رده كأول رد، وهو ما حدث بالفعل، لكنه حدث مبكرًا ومبكرًا أكثر من اللازم.

نحن نعلم بعد قراءتنا له في بحثه عن بلاد بونت أنه قد سافر كما سافرنا، وكما اجتزنا فيافي وقفارًا ندقق الخط الذي رأيناه صوابًا، سافر هو أيضًا ليدقق خطأً آخر رآه هو الصواب، لكنه وإن أصر على التمسك برأيه كحقيقة نهائية، فإننا من جانبنا نؤكد (للسيد الدكتور ولقارئنا الذي نحترمه ونحترم وقفته لمطالعتنا) أننا قدمنا فروضًا جمعنا لها الوثائق التاريخية التي أنكرها علينا، وقصَر جهدنا عند البحث اللغوي. إننا أبدًا لا نقطع بصدق كل فروضنا المطلق؛ ففي علوم البحث في التاريخ ليس هناك مجال للقطع واليقين، بل إن مثل ذلك القطع يُخرجنا فورًا من دائرة العلم إلى دائرة من يعتقدون أنهم يمتلكون الحقيقة النهائية والمطلقة.

لقد قرأت ما قدمه الدكتور عبد المنعم عبد الحليم بشأن بلاد بونت، كما قرأت ما قدَّم آخرون، حتى كدت أحفظ التعابير والأساليب، وأعرف تفاصيلها كما أعرف كف يدي. وقد اختلف هؤلاء

اختلافًا هائلًا ومتباعدًا بل ومتنافرًا، وكلهم أصحاب أسماء ذات سمت عظيم في علم التاريخ، ولا أظن أحدهم قد قطع في قوله أو ظن أنه قدم الإجابة النهائية. ومن جانبي، لا يصل بي الظن في الدكتور عبد الحليم إلى اعتقاده أنه قد وضع القول النهائي والفصل في هذا الأمر؛ فهو في اعتقادنا رجلُ علم رصينٍ نترفع به عن مثل ذلك، وحاشانا أن نعتقد به ذلك!

وتأكيدًا على أن هناك من لم يأخذ نظريته مأخذ النظرية القانون والنهائية، إنه بالأمس فقط ١٩٩٧/١/١٢م، وصلتني مكالمة تليفونية من صديق مهتم بسلطنة عمان، يلفت نظري إلى أستاذ بجامعة السلطان قابوس، هو الدكتور عاطف عوض، وهو فيما علمنا رجل علم متمكن ورصين، وأنه قد وضع فرضًا مخالفًا تمامًا لكلينا لموضع بلاد بونت؛ حيث افترض أنها بلاد الساحل العماني، حتى إن السلطنة قد رأت في كشفه أمرًا يستحق الاحتفاء به، فتم تحديد زمن افتراضي لوصول سفن الفرعونة حتشبسوت، وأقيم بهذه المناسبة احتفال شعبي كرنفالي تمثيلي يمثل وصول البعثة المصرية إلى بلاد عمان، التي افترض الدكتور عوض أنها بلاد بونت. وهكذا يرى الدكتور عبد الحليم أن المساحة لا زالت، وستظل، مفتوحة لكل من يمكنه أن يدلي فيها بفروضه وأسانيده، بغض النظر عما قدم الدكتور عبد الحليم، أو ما قدم شخصي المتواضع، وأنه سيتكبد مشقة عظيمة إذا قرر أن يقضي عمره في تخطيء كل من يقول بشأن بونت قولًا مخالفًا لنظريته. ومن جانبنا نعود فنؤكد أننا سنخطئ هنا أو هناك وسط هذا الرتل الهائل من المادة العلمية المتناقضة، وعلى يقين أننا سنرتكب زلة صغيرة هنا أو كبيرة هناك، وأنه ما دام دأبنا مناوشة المناطق الصعبة، فسنظل نخطئ، وجلَّ من لا يخطئ يا سيدي الدكتور.

ثم نقف الآن مع الدكتور عبد المنعم عبد الحليم وهو يعدد لنا ما زعم أنه أخطاء تاريخية وقعنا فيها، لنتساءل قبل ذلك: متى يمكن وصف معلومة يسوقها كاتب بأنها خاطئة؟ أظن ذلك يكمن في أحد ثلاث حالات؛ الأولى أن يكون الكاتب قد فهم المعلومة خطأً وقد يكون فهمه — وليس المعلومة — باعتباره الصواب، وهو ما لم يحدث معنا. والثانية أن يكون هذا الخطأ من ابتداعه الشخصي، وهو أيضًا ما لم يحدث معنا، والثالثة أن يكون الكاتب قد افتأت على الحقيقة ولوى عنق المعلومة لصالح رؤيته ولتوافق هواه، وهو أيضًا ما لم يحدث معنا. فماذا حدث معنا؟

إن كل ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم ووصفه بالخطأ؛ موثق لدينا ويعتمد على مصادر أصلية تمت الإشارة إليها في مواضعها، بنصها هو هو كما جاء في مظانه المصدرية، وهي مصادر دُبجت بأقلام علماء أجلاء هم مصادرنا جميعًا التي نتواضع أمامها احترامًا، وفي الفصل المنشور كانت مراجعنا تعود لأسماء جليلة القدر، هي: جاردنر، ماريت، كيتشن، وليم لانجر وفريقه البحثي، كرال كاسيدوفسكي، زيته، طه باقر، جارستانج، هاريس زاليج، سليم حسن، أحمد بدوي ... فإذا لم نلجأ في استقاء المعلومة الصحيحة إلى أصحاب تلك الأسماء، فلمن نلجأ؟ وإذا

كان هؤلاء يقدمون لنا معلومات تاريخية خاطئة، فماذا يبقى لدينا من حقائق في علم التاريخ القديم؟

والآن نقف تفصيلًا مع ما قدمه السيد الدكتور من أخطاء معلوماتية رآها في ذلك الفصل المنشور؛ فهو ينعى علينا عدم الإشارة إلى نص يتعلق ببلاد بونت، يقول إنه عندما تسقط عليها الأمطار تفيض مياه النيل. أولًا: في هذه الحالة لن تكون بونت هي الساحل الصومالي حسب نظريته إذا أخذنا النص بظاهره. وثانيًا: لم يكن المصري القديم على علم بمنابع النيل وكيف يفيض، ووُضعت في ذلك تصورات أسطورية عديدة لا مجال هنا لسردها؛ فهو مرةً دموع أحد الآلهة، ومرة نهر ينبع من جبال السماء أو تحت الأرض، وقد ظلت تلك التصورات الأسطورية حتى عهد قريب في حديث منسوب لنبي الإسلام ﷺ أن أهم أنهار المنطقة، وضمنها النيل، تنبع من السماء من تحت عرش الرحمن. حيث لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد. وإذا كانت تلك حجة تضع بونت جنوبًا، فكيف يفسر السيد الدكتور تكرار المصري القديم أن بونت تقع في الشرق حيث تطلع الشمس؟

ثم يبدأ سيادته بالترقيم تعديدًا للأخطاء المعلوماتية من وجهة نظره، فيقول إننا قلنا إن الاسم النبطي لعاصمة الأنباط هو البتراء، وصحَّحه بأنه «قمو» الذي تحوَّر في العربية إلى «الرقيم»، وورد في سورة الكهف. والصحيح أننا أبدًا لم نقل إن البتراء هو الاسم النبطي، إنما قلنا إنه الاسم الذي عرف به الرومان تلك المدينة زمن الأنباط، بمعنى الصخرة أو الصخرية. ثم إننا نعلم يا سيدي أن اسمها كان «الرقيم»، لكِنا أجَّلناه لموضعه من البحث حيث سيؤدي في مكانه دورًا في تأكيد مذهبنا، ولا بأس إن ذكرنا لك هنا طرفًا منه حتى تعلم أننا نعلم.

نقول في الفصل الثالث والعشرين (حسب الترتيب الحالي) وفي ص٦ من مخطوط الفصل: «ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو الرقيم ظهر قبلهم عند المؤرخ يوسفيوس اليهودي، وقد رجح الباحثون أنه التسمية العربية لمدينة البتراء أو مدينة الحجر أو لكليهما، تقع منطقة الحجر شمال غربي السعودية الآن، وقد أورد إحسان عباس رأيًا يقول:

«إن الرقيم هي المدينة التي وردت في المصادر الصينية باسم «لي–قن» من «ري–قم» ... كذلك ورد اسم الرقيم في رسالة سريانية تحدثت عن زلزال دمر الرقيم، ونحن نعلم أن هناك زلزالًا قد دمر الرقيم، ثم نحن نعلم أن هناك زلزالًا قد دمر البتراء عام ٣٦٣ ميلاديًّا ...» إلى آخره. وهكذا تعلم يا سيدي أن في جعبتنا الكثير الذي عن الرقيم وغير الرقيم مما قام بدوره في مكانه من بحثنا، فقط هي العجالة والتسرع يا أخي الكريم.

ثم يقول الأستاذ الدكتور إن كلمة «بيا–بونت» قد لازمتها العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية، وهو عكس ما قلنا، فما قلناه أن كلمة بونت وليس «بيا–بونت» قد وردت بدون تلك العلامة، ولم نقل منجم بونت حتى لا نربك القارئ وسط رتل المعلومات الهائل.

ثم يقدم الدكتور الخطأ الثالث في قولنا إن الملك ألبونتي كان يحمل لقب عظيم عظماء إرم، وهنا نحيله إلى واحد من مصادرنا بهذا الشأن كمثال واحد، وهو سليم حسن في الجزء الرابع من كتابه الموسوعي مصر القديمة، طبعة هيئة الكتاب، ص٣٣١، حيث يقول:

> «... السياحة إلى الوطن والوصول بسلام:
> إن السياحة إلى طيبة قد قام بها بقلب فرح جنود رب الأرضين ورؤساء هذه الأرض بونت وخلَفهم، وقد أحضروا معهم أشياء لم يحضرها أي ملك من قبلُ. ويلي هذا مشاهدة رئيس أرام ورئيس نميو، وهما قبيلتان غير معروفتين لنا من بلاد بونت، يتبعهما رجالهما. وكلهم ركعوا أمام حتشبسوت مقدمين الهدايا.»

ثم يقول الدكتور عبد الحليم إننا أخطأنا بشأن تزمين حملة القائد «حنو»؛ حيث قلنا إنها حدثت زمن الفرعون أمنمحات الأول، بينما هي قد حدثت زمن الفرعون سعنخ كارع، وقد ورد ذلك سهوًا؛ حيث يأتي ترتيب أمنمحات الأول في قوائم الملوك مباشرة بعد سعنخ كارع، ويمكن للعين أن تقرأ سطرًا أعلى أو أسفل، لكنه على أية حال خطأ يجب استدراكه، لكن ألا يرى السيد الدكتور أن ذلك لا علاقة له على الإطلاق بموضوعنا ولا يشغله، ولا يؤثر فيه ولا على استنتاجاتنا ولا على الأقيسة ولا على المنهج ولا على مادته الفعالة، ولا تترتب عليه أية نتائج إطلاقًا! وهل سعى السيد الدكتور لتصيُّد زلات لا تؤثر من قريب أو من بعيد على الموضوع؛ للتأثير على قارئ غير متخصص؛ تشكيكًا في كاتبه؟

ثم يخطِّئنا للمرة الخامسة في قولنا بلوحة نصر تخص الملك «أمنمس الثاني/ أمنمحات» جاء فيها أنه قام بتوطيد سلطانه في بلاد بونت أرض الإله، ويصحِّحنا بأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثاني، فهلَّا رجع السيد الدكتور إلى العلامة جاردنر في كتابه مصر الفراعنة، الذي ترجمه رجل لا يقل جلالًا هو الدكتور نجيب ميخائيل، وطبعته هيئة الكتاب، ص١٥٨ و١٥٩، ليقرأ معنا جاردنر إذ يقول: «وصلت إلينا لوحة ترجع إلى العام الثامن والعشرين من حكم أمنمس الثاني، تسجل قيام هذه البعثة ... ومعها الكلمات: يوطد آثاره — أي الملك — في أرض الإله.»

ثم يخطِّئنا للمرة السادسة في معلومة مصادرها لا تقل جلالًا؛ فهي تعود إلى العلامة زيته والعلامة برستد حول الموظف المصري الذي سافر إلى بيبلوس وبونت، والمقصود هنا اقتران الموضعين ببعضهما؛ لإثبات أن بونت تقع شرقًا لا جنوبًا، وأن المعلومة يا سيدي سواء كانت من مقبرة خوي أو أي مقبرة أخرى أو حجر بلرمو أو أي حجر كان، لا علاقة لها بالعمل وسياقه وأهدافه. فهل جلس الأستاذ الدكتور يتصيد فقط لمجرد التشكيك؟

نحن يا سيدي حتى الآن لم نخطئ؛ فموضوعنا كما ترى موثق، أما الحقائق والمادة التاريخية فليست من شأننا ولها أربابها، وعنهم ننقل، وبهم نقرأ، وعليهم المعتمَد. ومهمتنا أبدًا ليست تدقيق معلومة يعطيها لنا علماء مثل جاردنر أو زيته أو ماريت أو سليم حسن، مهمتنا هي البحث وإعادة التصنيف ثم المقارنة فالتحليل والتركيب، ثم فرض الفروض واختبارها وجمع الأدلة عليها ثم الاستنتاج، أما المعلومات سواء كانت خطأً أم صوابًا، فهي ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ، وأنت أحدهم يا صديقي.

وختامًا، أقول للسيد الدكتور: إني أحترم وقفته معي لمراجعتي، ولا أظنه قد فعل ذلك تعصبًا لنظريته وتشكيكًا فيما ذهبت أنا إليه، فأنا أربأ به عن ذلك، كما أعلم أن فرضه لبلاد بونت بالصومال عزيز عليه، فهو محل اهتمامه في رسالة الماجستير ومجمل أبحاثه بعد ذلك، لقد قال رأيه ونظريته وأدلته على وقوع بونت على الساحل الصومالي، كذلك قلنا رأينا وأدلتنا على وقوعها عند العقبة، وللقارئ في النهاية موقفه الخاص الذي سيختاره، لكني أعلم أنك قد أضفت إلى قرائي رصيدًا من قرائك الذين سيثرون مساحتي؛ لأنهم، لا شك، قد تعلموا منك المنهج العلمي، وعرفوا منك كيف يختلفون وكيف يتحاورون.

وبعدما ثبت الآن يا أخي خطؤك في تخطيئنا، نقول لك: هذا بعض هادئ من فيض، ورذاذ لطيف من غيث، وقطر كظيم من سيل، فإن عدتم عدنا، وساعتها لا نعدك أبدًا بالإصرار على فضيلة بلوغ الأرب. وتمهل يا أخي؛ فإن في العجلة الندامة، وتأنَّ؛ ففي التأني حفاظ على هيبة المنصب الرفيع، واخفض من صوتك، وتواضع في قولك، وراجع مصادرنا قبل أن تقول، ولا تستفز ثائرتنا يرحمكم الله، فأنت البادي ... اللهم إني قد بلغت اللهم فاشهد.

(٣) د. سيد القمني والذبي موسى

رد على رد

البحث يعتمد الوثائق وليس البلاغة والإنشاء! [٤] ★

د. عبد المنعم عبد الحليم سيد

أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية

بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

في العدد الصادر يوم ١٢/١/١٩٩٧، ص٦، من أخبار الأدب، نشرت الجزء الأول من هذه التصحيحات، وقد نشر الدكتور سيد القمني ردًّا على ما ورد فيه في العدد الصادر يوم ١٩/ /١٩٩٧، ص١٤، ص١٥. وإنني أهنئ الدكتور سيد القمني على أسلوبه الأدبي الإنشائي الرفيع في رده على تصحيحاتي لأخطاء مقالاته عن بونت، ولكن المجال في هذه المعلومات لا يعتمد على البلاغة والإنشاء بقدر ما يعتمد على الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية.

ولكن قبل أن أبدأ في هذا الجزء الثاني من التصحيح، أعتب على الدكتور سيد القمني قوله إنه توقع التعرض لهجمات شرسة من رجال التاريخ التقليديين؛ خصوصًا أن أي بحث في فلسفة التاريخ أو علوم التاريخ الاجتماعي (حسب قوله) عادة ما يستفز ثائرة المؤرخ التقليدي، ويستشهد الدكتور القمني على ذلك بكتاب كمال الصليبي الذي تعرض لهذه الهجمات الشرسة (حسب قوله).

وإنني أقول للدكتور القمني: هناك فرق كبير بين أن يقدم أي باحث مجدد رأيًا جديدًا يعتمد على الوثائق التاريخية والأثرية، فهذا لا شك مما يرحب به كل مؤرخ، سواء كان تقليديًّا أم مجددًا، وبين طالب الشهرة بالزائفة يلجأ إلى تحريف المسميات والمعلومات لتوافق هواه، متجاهلًا الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية، وهذا ما فعله كمال الصليبي عندما حرَّف أسماء كلٍّ من المواقع الفلسطينية المذكورة في العهد القديم والأسماء الحالية للمدن والقبائل والقرى في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية؛ لكي توافق هواه في إثبات أن أرض الميعاد عند بني إسرائيل ليست فلسطين كما هو معروف، بل منطقة عسير في المملكة العربية السعودية، وأصدر في ذلك كتابين باللغتين العربية والإنجليزية، عنوان النسخة العربية هو «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، وقد سبق أن نشرت نقدًا لهذا الكتاب نُشر في إحدى الدوريات العربية، وأعدت نشره في كتابي «البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة» ص٤٨٥ وما بعدها، أوضحت فيه مدى إسراف كمال الصليبي في هذا التحريف إلى درجة قلب المعلومات الثابتة التاريخية والأثرية رأسًا على عقب، وإعطائها مضمونًا يخالف تمامًا ما تتضمنه هذه الوثائق.

أبدأ الآن في الجزء الثاني من التصحيح لمقالات الدكتور سيد القمني بالإشارة إلى الاتجاه العام للدكتور القمني في مقالاته كلها، وهو أنه جعل من منطقة أدوم (التي يسميها «أدم») الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقي من خليج العقبة، والتي قامت فيها دولة الأنباط بعاصمتها البتراء، جعل منها موطنًا لشعوب ودول ثبت بالوثائق التاريخية والأثرية، منذ نشأة علوم الآثار المصرية والعراقية في القرن الماضي، وترجحه آلاف النصوص الهيروغليفية والسماوية، أنها كانت تعيش في مناطق بعيدة كل البعد عن منطقة أدوم هذه، وفيها دولة «ميتاني» التي قامت في شمال سوريا والعراق وشعب الحوريين، الذي كان يسكن شمال العراق أيضًا، فضلًا عن منطقة بونت التي كانت

منطقة أفريقية ...

وهكذا سحب الدكتور القمني هذه الدول والشعوب من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب، ليجمعها كلها في منطقة واحدة؛ هي منطقة أدوم موطن دولة الأقباط.

وفي سبيل إثبات رأيه هذا، لجأ الدكتور القمني إلى وسيلة الاعتماد على التشابه اللفظي بين المسميات الجغرافية والتاريخية، دون أي اعتبار للوثائق التاريخية والأثرية، وأسوق مثالًا صارخًا لذلك، فلكي يثبت الدكتور القمني أن بونت هي منطقة البتراء وما حولها «بلاد أدوم»، اعتبر التسمية «قصر البنت» (التي حورها إلى قصر «بنت»)، والتي يطلقها عرب المنطقة الحاليون على أحد المباني الضخمة في البتراء، اعتبر هذه التسمية بقية من الاسم القديم «بونت» (عدد يوم ١٥/١٢/١٩٩٦م، ص٢٩، عمود ٢)، رغم أن هذه التسمية عربية مائة في المائة؛ لما هو ظاهر، وأصلها «قصر بنت فرعون»، وقد أطلقها عرب المنطقة على هذا البناء الضخم (وهو معبد نبطي؛ خلافًا لما يقوله الدكتور القمني عنه بأنه كان مركزًا للحكم والإدارة)، شأن كل عرب الجزيرة العربية عندما يشاهدون بناءً ضخمًا فينسبونه إلى الفراعنة، ومثال ذلك معبد آخر مجاور لمعبد قصر بنت فرعون هذا، به عمود ضخم قائم أطلق عليه عرب المنطقة «عمود فرعون». وهكذا انزلق الدكتور القمني في غمار حماسه لرأيه إلى الوقوع في المحظور؛ إذ لا علاقة بطبيعة الحال بين الكلمة العربية «بنت» (بمعنى ابنة في عبارة قصر البنت وبين الكلمة المصرية القديمة «بونت»). ومن هذه الأمثلة الصارخة أيضًا أنه حرف التسمية «ميتاني» التي كانت تطلق في النصوص الهيروغليفية والنصوص المسمارية على الدولة التي قامت في شمال سوريا والعراق كما ذكرنا، حرَّفها إلى «مديان» و«مدين» (عدد يوم ٢٩/١٢، ص٢٨، العمود الأول) قائلًا إن بلاد ميتاني هذه تمركزت في بلاد سعير ووادي عربة، وسميت بالصخرة من طبيعتها الصخرية، وإنها بلاد بونت؛ فإن بونت تعني الصخرة (نفس الوضع من نفس العدد من المجلة). أما أن ميتاني هي نفسها «مدين» فرأي فيه الكثير من الشطط؛ لأن ميتاني هذه تردد اسمها في نصوص الملك تحتمس الثالث وخلفائه باسم «متن» في سياق حروبه في شمال الشام، ودخل ملوك الأسرة الثامنة عشرة في مصاهرات مع ملوكها، وورود اسمها كثير في الصور المسمارية بما لا يدع مجالًا للشك بأن موقعها كان في شمال سوريا والعراق.

أما أن اسم بونت يعني «الصخرة»، فلا أعرف من أي مصدر استقى الدكتور القمني هذا التفسير؛ فلا توجد كلمة في اللغة المصرية القديمة بالنطق «بونت» أو ما يشبهه، تعني الصخرة أو الحجر. والحقيقة أن هناك تفسيرين لأصل كلمة «بونت»؛ أولهما: أنها تعني «القاع المحصنة»، وقد أوضحت سبب هذه التسمية في كتابي عن البحر الأحمر. وثانيهما: أن كلمة بونت ليست مصرية بل أفريقية، استعارها المصريون واستخدموها للدلالة على بلاد البخور، وما زالت توجد حتى اليوم

كلمة تشبهها في اللغة السواحلية (لغة سكان سواحل الصومال وتنزانيا) هي كلمة «بواني» Pwani، وتعني السواحل الأفريقية للحصول على البخور. يسمعون هذه الكلمة من سكان هذه السواحل فاستخدموها بعد تحويلها إلى النطق المصري كعلَم على بلاد البخور.

وقد تقلص مدلول هذه الكلمة الأفريقية على مر العصور نتيجة انتشار اللغات الأخرى، كاللغة العربية في المناطق السودانية والإريترية، حتى انحصر في اللغة السواحلية، وما زالت توجد حتى اليوم على ساحل الصومال الشرقي أسماء تشبه كلمة «بواني» هذه، مثل كلمة «بنه» في التسمية «رأس بنه»، التي تقع إلى الجنوب من رأس جرد نوى، وكان الكتَّاب اليونان والرمان يسمونها Panon «بانون».

نأتي إلى تحريف لفظي آخر (غير بونت) للدكتور القمني، هو تحريف كلمة «مجدو»؛ فقد نقل الدكتور القمني موقع هذه المدينة من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم (عدد يوم ١٢/٢٢، ص٢٨، العمود الأول) بنفس طريقته في تركيز المسميات القديمة في هذه المنطقة، والمعروف أن مجدو هو الاسم العبراني للكلمة المصرية القديمة «مكتي»، وكانت هذه المدينة هدفًا لحملة حربية للفرعون تحتمس الثالث، وقد استولى عليها بحيلة حربية بأن سلك أقصر وأضيق الطرق إليها، ففاجأ العدو وانتصر عليه. وقد نقل الدكتور القمني هذا الطريق أيضًا إلى الطريق المسمى «السيق» الذي يؤدي إلى البتراء، واعتبره الطريق الذي سار فيه تحتمس الثالث، ومن المدن التي استولى عليها تحتمس الثالث، والتي كانت تقع في الطريق إلى مجدو، مدينة أطلقت عليها النصوص المصرية الاسم «عارونا»، فاعتبر الدكتور القمني أن «عارونا» هذه هي جبل هارون في محيط البتراء. كل هذا التخريج أقدم عليه الدكتور القمني متجاهلًا تمامًا الوثائق المصرية القديمة التي من عهد الملك تحتمس الثالث وخلفائه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، والتي يشير تسلسل المدن من الجنوب إلى الشمال في سجلات هذا الملك، بما لا يدع مجال للشك، أن مجدو كانت تقع في شمال فلسطين (في مكان مدينة تل المتسلم الحالية)، بل إن موقع هذه المدينة في شمال فلسطين ثابت أيضًا من تسلسل المدن التي دوَّن أسماءها الملك شيشنق الأول (بعد عصر تحتمس الثالث بحوالي خمسمائة سنة) على جدران معبد آمون بالكرنك، ضمن أخبار حملته على فلسطين، والتي درس تسلسلها بالتفصيل علماء الآثار المصرية وآخرهم العالم «كينيث كتشن» Kitchen، الذي نشر الخرائط التوضيحية لها ولغيرها من المدن التي غزاها شيشنق، ومن الواضح أن الدكتور القمني لم يطَّلع على هذا الكتاب ... وهناك دليل حاسم على أن «مجدو» التي كانت مجالًا لنشاط شيشنق الأول الحربي تقع في تل المتسلم بشمال فلسطين، هو العثور فيها على بقايا لوحة من الحجر عليها اسم الملك شيشنق الأول، وبالإضافة إلى نقل موقع مدينة مجدو من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم، فإن اسم هذه المدينة لم يسلم من تحريفه؛ فقد اعتبر الدكتور القمني نطق الكلمة التي أطلق عليها «موقيدة»، والتي وردت في نصوص الملك رمسيس الثالث، ينطبق على نطق كلمة مجدو (عدد يوم ١٢/٢٢، ص٢٩،

العمود الثاني) رغم أن «موقيدة» (وصحة الكلمة مو–قدى) هذه معناها «المياه المعكوسة»، وقد أطلقها المصريون في أول الأمر على نهر الفرات؛ لأنه يجري من الشمال إلى الجنوب عكس اتجاه مياه النيل، ثم أطلقوها على كل مسطح مائي تجري تياراته من الشمال إلى الجنوب، ومن هنا أطلقوه على البحر الأحمر في نصوص الملك رمسيس الثالث التي تسجل عودة إحدى بعثاته من بلاد بونت؛ لأن مياهه تتجه تياراتها من الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب عكس اتجاه مياه النيل. ورغم أن النصوص التي تسجل عودة بعثة الملك رمسيس الثالث من بونت واضح فيها تمامًا أن سفن هذه البعثة رست على ساحل الصحراء الشرقية (التي جاءت بها هذه البعثة) نُقلت بالبر من ساحل البحر الأحمر إلى النيل عند قفط، إلا أن الدكتور القمني يأخذ هذه البعثة أيضًا إلى خليج العقبة ويجعلها ترسو بسفنها على ساحل هذا الخليج، حيث بلاد أدوم التي جعلها مقرًّا لكل المسميات لما ذكرنا.

ومن المؤسف أن الدكتور القمني يستشهد في تحريفه لكلمة «مجدو» إلى «موقيدة» بتحريف كمال الصليبي للاسم «مجدو» إلى «مقدى»، وقد لجأ كمال الصليبي إلى ذلك التحريف لكي ينطبق على اسم بلدة في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية تدعى المقدة، تمشيًا مع اتجاهه في كتابه المسمى «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بالادعاء بأن أرض الميعاد عند اليهود ليست فلسطين، بل منطقة عسير في المملكة السعودية كما سبق أن ذكرنا.

وحتى مصر، لم تسلم من مشروعات الدكتور القمني في نقل الدول والشعوب القديمة إلى منطقة «أدوم»؛ فقد نقل الدكتور القمني حدودها الشرقية إلى هذه المنطقة (والحمد لله أنه لم ينقل مصر كلها)؛ ففي تفسيره لكلمة «موصرى» الأسوزية (عدد يوم ١٢/٢٩، ص٢٩، عمود ٢) يقول: إن كلمة موصرى محورة من الكلمة المصرية، السور العظيم ما هو إلا سلسلة الجبال المتبعة (في منطقة أدوم) قبل إطلاقها على مصر نفسها، فهو خطأ أيضًا؛ لأن هذه التسمية وهي بالضبط «مصرى» وردت بالخط المسماري كاسم هو، كما يسمى خطابات تل العمارنة التي ترجع لعصر الملك أمنحتب الثالث وابنه إخناتون (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، وذلك قبل ورودها في سجلات الملك تجلات بلسر الثالث — وقد ذكره الدكتور القمني خطأ «تجلات بلسر الأول» (عمود ١٢/٢٩، ص٢٩، عمود ٢) — كما يقول الدكتور القمني بحوالي ستمائة عام، وقد كتبها الآشوريون «مصرى» وكتبها البابليون «مصرو»، وانتقلت إلى العرب بالنطق «مصر».

كذلك قلب الدكتور القمني تسلسل المعلومات في تسمية إيجبت وقبط، فالثابت أن كلمة «قبط» العربية حورها العرب من الكلمة اليونانية Aegyptus (التي منها كلمة إيجبت التي كتبها الدكتور القمني) وليس العكس كما يقول الدكتور القمني، وهذا أمر بديهي؛ لأن اليونان أسبق من العرب في الاتصال بمصر، وبالمثل لا علاقة لكلمة «قبط» (كعلم على الشعب القبطي) باسم مدينة «قفط»؛

فهذه الكلمة الأخيرة مصرية الأصل، وردت في النصوص الهيروغليفية بالنطق «جبتو» و«جبت» تحورت في اللغة القبطية إلى Keft «كفت» ثم نطقها العرب «قفط».

وإنني أكتفي بهذا القدر من تصحيح أخطاء الدكتور القمني حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلًا التصحيحات الأخرى للعدد القادم.

الهوامش

(1) Gauthier, H. Dictionnaire des Noms Géographiques Contenus dans les Textes Hiéroglyphiques, (1975), 3 p. 318.

(2) Prichard, J. B., Ancient Near Eastern Texts (1969), p. 3188.

(٣) عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة (١٩٩٣م)، ص١٩.

(4) Perrot, D., Swahili-English Dictionary (1973) 4, p. 62.

(5) Breasted, Ancient Records tl 409 6. Kitchen, K. The Third Intermediate Period in Egypt, (1986), pp. 296–299.

(٦) وانظر أيضًا: عبد المنعم عبد الحليم، البحر الأحمر، ص٥١٠.

(٧) عبد المنعم عبد الحليم، نفس المصدر، شكل ٥، ص٥٠٧.

(٨) نفس المصدر السابق ص٢٢٠.

(٩) المصدر السابق، ص٥٠٩.

(٤) فصل المقال فيما بين العقبة والصومال*

د. سيد القمني

بالأمس ١٩٩٧/١/٢٣م، أحاطتني هيئة تحرير أخبار الأدب تليفونيًّا علمًا بوصول تعقيب جديد من الدكتور عبد المنعم عبد الحليم على الفصل الذي نشرناه من كتابنا «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة»، من بين ستة وثلاثين فصلًا هي مجموع ما تم إنجازه حتى الآن في ثلاثة أجزاء، ولما يكتمل العمل بعد. وقد سبق ونبهنا الدكتور عبد المنعم إلى الخطأ العلمي الذي يرتكبه بإصدار الأحكام على العمل من خلال فصل واحد، لم يرصد سوى قرائن تعادل نسبة واحد إلى ثلاثين أو يزيد من وجهة نظرنا، لكن السيد الدكتور أصر على الاستمرار في هجومه غير الموفق بتهور غير محمود وافتعال معركة لا تليق برجل علم، ومن ثم عاد يزعجنا بطبوله الصومالية ويثير الغبار والضوضاء. ومن هنا رأيتني بغير حاجة إلى الاطلاع على هذا التعقيب الجديد، ورأيت من الأوفق التركيز على مفصل النزاع دون التهويم في التجريحات والطواف حول الفروع دون الأصول.

وقد سبق ونبهت في تعقيبي في ردي الذي نشرته بأخبار الأدب في ١٩٩٧/١/١٩م، إلى خطأ التعامل مع فصل منزوع من سياقه، كما نصحته، وما كان يشغلنا قبل ذلك في كثير أو قليل، بالتريث، ثم ألمحت بصرامة أننا هذه المرة سنقول ما تكتمنا عليه وغضضنا عنه الطرف؛ لأننا نقدر حساسية موقفه أمام طلبته بالذات، وأوعزنا إليه بعدم ركوب مغامرة غير محسوبة، لكن ليشهد قارئي أنه هو الذي دفعنا دفعًا إلى قول ما سنقول ونحن في غاية الأسف لنشره على ملأ. وإعمالًا لذلك، سنركز على الخلاف التأسيسي، حيث ذهب السيد الدكتور إلى أن بلاد بونت المذكورة في الوثائق المصرية القديمة، تقع على الساحل الصومالي، بينما ذهبنا نحن إلى أنها تقع عند رأس خليج العقبة مع امتداده بطول وادي عربة شرقي سيناء.

أصول الأكاديمية

ويبقى بأيدينا عملنا في كتابنا وعمله هو في رسالتيه للماجستير والدكتوراه، لنعمل فيها القول الفصل؛ تحسبًا لهدر مزيد من الوقت بلا طائل، وسنكتفي بقولنا هنا ونترك بعد ذلك الحكم للقارئ، مع وعد بالتوقف عن الرد مرة أخرى مهما قال السيد الدكتور الفاضل. وسنعمد هنا إلى مراجعة مذهب الدكتور في رسالتيه عبر الملخص الذي نشره؛ اختصارًا للوقت وحسمًا للأمر، مع ترقيم الصفحات التي سنستشهد بها من ذلك الملخص.

وأول ما يلفت نظر الباحث المتمرس أن صديقنا قد بدأ عمله وهو يضع نصب عينيه هدفًا يريد إثباته، وهو أن بلاد بونت تقع تحديدًا على الساحل الصومالي. ومعلوم أن ذلك يتجاوز أول شروط البحث العلمي، وهو الموضوعية والحياد والنزاهة، ويتضح ذلك من اعتماده على تفسير محدد

لكلمة «عنتى» التي تشير إلى مواد التبخير التي جاءت بها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت، فأخذ برأي واحد يتيم في تفسير الكلمة ورد عند «لوكاس» عرَضًا في كتاب عمومي لا يتحدث عن بونت تخصيصًا، وعنوانه: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد غنيم، وبالتحديد على إشارة عابرة بأسطر شاردة في صفحة ١٥١، يرجح فيها لوكاس أن يكون هذا العنتى هو البخور الأبيض أو الكندر المعروف باللبان الدكر ... وقد اعتمد الدكتور عبد الحليم هذا الرأي وحده تحديدًا دون غيره؛ لأن اللبان الدكر ... ينمو على ساحل الصومال تحديدًا، وهو بغيته وهدفه.

ولمزيد من الدقة، نسوق كلام الأستاذ الدكتور بنصه؛ إذ يقول في صفحات ٥٠ و٥١ ما نصه: «إن أشجار البخور التي يجب البحث عنها على سواحل البحر الأحمر هي أشجار ذلك البخور الذي كان يُعرف عند المصريين باسم عنتى ...

ويقول لوكاس إنه البخور الأبيض المعروف حاليًّا باسم الكندر، وهو ما يُطلَق عليه في اللغة ... الدارجة اللبان الدكر.»

ومعلوم أن اللجوء إلى استقاء معلومة شديدة التخصيص من كتاب فضفاض شديد التعميم، لا يركز حديثه حول موضوع المادة المنتخبة للإدلاء بالشهادة؛ يوصف في اللغة الأكاديمية بأنه مرجع غير محكم، وعلى هذه العبارة الشاردة في مرجع غير محكم أقام السيد الدكتور عمله برمته، وأسس هرمًا مقلوبًا على رأس إبرة، فقرر بدايةً أن العنتى لا بد أن يكون هو اللبان الدكر، ولأن اللبان الدكر هو الذي يتواجد على ساحل الصومال، فلا بد أن تكون الصومال هي بلاد بونت.

وعلى هذا الأساس الهش أقام الأستاذ الدكتور عمله جميعًا رغم مخالفة ذلك لنتائج وتفاسير أخرى وصل إليها علماء أجلاء ركزوا عملهم على مقطع الأمر نفسه، وانتهوا إلى تعدد القول بشأن العنتى، فهو المُر أو ربما كان هو الميعة أو ربما كان هو الصمغ العربي، فهو على الجملة مادة للتبخير غير محددة باللبان الدكر وحده، وهو ما يتعرض له العالم الجليل جيمس هنري برستد في الجزء الثاني من كتابه التسجيلات المصرية القديمة وآخرون لا يقلون شأنًا لم يقفوا عند اللبان الدكر ينفخون في ذواتهم، بل إن المصادر الأقرب تاريخيًّا من أصحاب المشاهدات العينية من مؤرخي العصر الكلاسيكي، وذلك مثل بلليني في تاريخه الطبيعي، وكذلك استرابون في جغرافيته، قد تحدثا عن ألوان متعددة في مواد التبخير، لكن لأن الأستاذ الفاضل يريد ساحل الصومال سلفًا وبالتحديد موطنًا لبلاد بونت، فقد قرر الوقوف عند الكندر، وهو الأمر الذي أدى إلى متتالية من الأخطاء اضطرته في مرات عديدة إلى الالتفاف غير الحميد على حقائق ضد مذهبه، وهو ما سندلل عليه الآن وفورًا. بعد أن نصحناه فلم يُصغِ وقام يشهر أسلحته الرديئة في وجهنا يريدها معركة، فله إذن ما أراد.

المنهج التلفيقي

مع إصرار الدكتور عبد الحليم على أن العنتى هو الكندر تحديدًا، كان لا بد أن ينتهي إلى نتيجة منطقية ضرورية تتأسس على هذه المقدمة، وهي أن الأشجار الإحدى وثلاثين التبخيرية التي أحضرتها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت، وزرعتها أمام معبدها بالدير البحري، هي بالتحديد أشجار الكندر، وهو ما انتهى إلى القول به في صفحة ٤٧ من موجز رسالتيه.

أما نحن فقد قلنا في فصلنا المنشور، وفي بقية كتابنا الذي جمعنا له مادة هائلة كمًّا وكيفًا عبر السنوات العشر الماضية، إن تلك الأشجار لا بد أن تكون هي أشجار بيرسيا التي تنمو عند العقبة ووادي عربة، بقرائن وأدلة حاشدة، وهي الشجرة التي عرَّفها معجم أوكسفورد بأنها «شجرة بيرسيا المقدسة».

ولأن مثل تلك الخلافات تظل في منطقة رجراجة على صورتها تلك ما بين تأييد هذا الرأي أو ذاك، فإن الوسيلة الوحيدة للحسم لا تكون إلا بأثر أركيولوجي واضح يقطع في الأمر، وهنا نستدعي شاهدًا موثوقًا هو نافيل مدعومًا من الأركيولوجيست عالم المصريات الأشهر سليم حسن، ليدلي بشهادته في الجزء الرابع من عمله الموسوعي مصر القديمة، طبعة هيئة الكتاب، صفحة ٣٣٤، لنسمعه يكتب تقريرًا واضح المعالم لا يحتمل لبسًا، يقول فيه: «وتدل الكشوف الحديثة على أن الأشجار العطرية التي أتى بها من بلاد بونت قد غُرست فعلًا في حفر نُقرت في الصخر أمام المعبد ومُلئت بالطين الخصيب. وقد عثر على هذه الحفر الحفارون المحدَثون في الردهة التي أمام المعبد، وقد وجدوا أن بعضها لا يزال محفوظًا فيه جذوع الأشجار الجافة، غير أن هذه الأشجار ظهر أنها أشجار بيرسيا.» فهل لم يزل هناك شك أو خلاف؟ وهل سيستمر السيد الدكتور عند ساحل الصومال يدق طبول الحرب علينا؟

البونتي والفينيقي

كان من بين أهم القرائن التي قدمناها للتدليل على وقوع بونت عند العقبة ووادي عربة بعاصمته المعروفة الآن بالبتراء؛ هو ما جمعناه من مادة تاريخية تؤكد أن بلاد بونت كانت تشتمل على عدد من العناصر البشرية المتحالفة، وأن تلك العناصر المتحالفة كانت تضم عنصرًا جزيريًّا قادمًا من جنوب جزيرة العرب بصحبة عنصر زنجي قادم بمنتجاته التجارية من أفريقيا الشرقية، مع عنصر هندوآري قادم من تركيا وشمال العراق وبلاد الشام، وهو العنصر الذي اشتمل على الآراميين والفينيقيين، ورأينا أن العنصر الأخير هو من وردت الإشارات التاريخية إليه بوصفه «الجنس الأحمر»، وأن أصحابه هم من أعطى البحر الأحمر اسمه من صفتهم، فهو الإريتري، أي

الأحمر، وأن هؤلاء كانوا سادة تلك المملكة التجارية المتحالفة، والذين حملوا اسم البونتيين على وجه التخصيص.

وقلنا إن المصريين قد أطلقوا على الطائر الخرافي الذي زعموا أنه يأتي مصر قادمًا من بلاد العرب عند وادي عربة، هو «بنو»، وهو الذي عرفه اليونان باسم «فوينكس»، وقد استخدم المصريون اسم هذا الطائر (بنو) للإشارة إلى الجماعات التي تأتي إلى مصر من الشرق عبر سيناء، فهم البونتونيون أو الفينيقيون. وكان ذلك أحد أدلتنا، ضمن أدلة أخرى عديدة، على تخصيص تلك المنطقة العربية بأنها بلاد بونت.

وقد لاحظ السيد الدكتور تلك المشابهات، ولكنها لم تذهب به إلى العقبة، فليس كل من ركب الفرس خيَّالًا، وليس القصد من ذلك المقارنة؛ لأنه لا مجال للمقارنة أصلًا، إنما القصد هو بيان لجوئه إلى التلفيق والمداورة الشديدة الهشاشة رغم تأكده من علاقة البونتيين بالفينيقيين، فاستمر في إصراره على ساحل الصومال، رغم أن الفينيقيين شرقي مصر في آسيا وليسوا في جنوبي مصر بالصومال، ومن هناك اختلط الأمر عليه فقام يقول: «وقد لاحظ الباحث (أي الدكتور عبد المنعم نفسه) أن الاسم «بنو» هو الاسم المصري للطائر الخرافي المسمى في الإغريقية فوينكس، يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة شرقي النيل، وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية وبين معنى يشرق، رجح الباحث أن المصريين ربما أطلقوا الاسم «بنو» أو اسمًا مشتقًّا منه على الجماعات التي كانت تفد إلى مصر من المناطق الشرقية ومن بينهم البونتيون (لاحظ كلامه الذي يؤكد كلامي).

وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن بينها بلاد العرب ... وبالنسبة للتشابه الملفت للنظر بين نشاط البونتيين ونشاط الفينيقيين في البحر الأحمر، والآراء التي تعتبر الفينيقيين أحفادًا أو خلفاء للبونتيين ... فإن من الممكن افتراض أن الفينيقيين عندما لاحظوا نواحي كثيرة للتشابه بينهم وبين البونتيين، دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه فنسبوا أنفسهم إلى البحر الإريتري ... حتى يكتسبوا حقوقًا في استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى التي كانت تنافسهم» (صفحة ٣١ و٣٢).

فهل بعد هذا التفسير تلفيق منهجي؟

من العراق إلى مصر عبر الصومال

قلنا في كتابنا إن المؤثرات العراقية القديمة في بعض العبادات المصرية وفي بعض الأشكال الفنية المبكرة مثل صلاية نعرمر، لا تفسرها إلا نظريتنا في أن ضمن أحلاف المملكة التجارية

شرقي سيناء كان العنصر العراقي القديم، ولما كانت هذه الآلهة ترتبط تحديدًا في المدونات المصرية ببلاد بونت، فقد كان ذلك دليلًا على مذهبنا في موقعة بنت عند العقبة شرقًا وليس الصومال جنوبًا، خاصة مع تقرير المصري المتواتر: «عندما أولِّي وجهي نحو مشرق الشمس فإني أوليه إلى أرض الإله بونت.» وقد قلنا إن هؤلاء التجار هم من نقلوا تلك المؤثرات العراقية المبكرة إلى مصر.

ولكن لأن عزائم الزميل كانت على قدر عزمه، فقد قام يثابر على منهجه ويقول بكل اجتراء إن تلك المؤثرات قد وصلت بالفعل مع التجار البونتيين من العراق شمالًا إلى مصر لكن عبر الصومال جنوبًا؟! يقول سيادته: «يبدو أن عملية نقل المؤثرات الميزوبوتامية من العراق إلى مصر كانت ذات صلة بمركز الآلهة المصرية التي ارتبطت ببونت، وأن انتقال هذه المؤثرات إلى مصر تم بواسطة شعب أو جماعات كانت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق، وتقوم بدور الوسيط في الاتصالات بين الطرفين، وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعًا من الوسطاء التجاريين ... وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الأفريقي بونت (يقصد الصومال) هم من نقلوها مباشرة إلى مصر» (صفحة ٢٥). ولا تعليق؛ فالوسطاء التجاريون في الموقع المتوسط بين العراق ومصرهم الصوماليون!

سادة بلاد بونت

أبدًا لم نعتبر العنصر الزنجي في لوحات حتشبسوت دالًّا على أفريقية بلاد بونت، فما أكثر الزنوج في لوحات مصر التي لا تتحدث عن بلاد بونت! ثم إن السادة في تلك اللوحات قد رسمتهم ريشة الفنان المصري في هيئة المصريين تمامًا، سواء في اللحية التقليدية أو في السحنة التي لا تمت للزنوج بصلة، أو في اللون الذي صُبغت به بشرتهم، وهو الأحمر الفاتح المفضل في رسوم المصريين لأنفسهم، إضافة إلى عنصر آخر غير زنجي بدوره وصف بأنه أرمي أو آرامي، أما العنصر الزنجي في اللوحات فكان في رأينا فريقًا تابعًا ضمن عناصر الحلف التجاري القادم ببضائعه من جنوبي البحر الأحمر.

ورغم أن الدكتور عبد الحليم قد أصر على أن بلاد بونت تقع على الساحل الصومالي، فإنه لم يستطع أن ينكر أبدًا تلك الحقائق؛ حيث يقول في صفحة ١٧ عن سكان بلاد بونت حسب لوحات حتشبسوت: «سكانها خليط من عدة سلالات:

- (أ) السلالة التي تنتمي إلى الطبقة الحاكمة؛ أي البونتيون أنفسهم ويشبهون المصريين.

- (ب) السلالة الزنجية.

- (جـ) سلالة ثالثة لعلها المسماة أرم، وهي قريبة الشبه بالبونتيين.» ثم يقول في صفحة ٣٩: «كان رجال بونت يرسمون على الآثار المصرية على هيئة المصريين وبلِحًى تقليدية كالتي يلبسها آلهة المصريين.»

وفي بحثنا قلنا إن اسم العاصمة البونتية، كما ورد في الوثائق المصرية، «أوسالعت»؛ يؤكد مذهبنا حيث كانت البتراء عاصمة وادي عربة تسمى في الزمن القديم «سالع»، وجاء اسمها هكذا في التوراة، لكن السيد الدكتور فضَّل لها «زيلع» على ساحل الصومال، ولا نعلم كيف أمكن وجود أسماء مصرية على الساحل الصومالي، بينما تختفي تلك الأسماء تمامًا على الساحل اليمني المقابل الذي يفصله عن الصومال خانق باب المندب الضيق، وهو الأمر الذي اعترف به هو نفسه في صفحة ٣٧.

ثم يضع الدكتور عبد الحليم الميناء الذي وصلت إليه سفن حتشبسوت عند مصب نهر النيل بالساحل الصومالي، ويعتبره اكتشافه المذهل؛ حيث وقف يهلل ويكبر ويدق طبوله الصومالية، بينما كان ذلك الميناء لدينا أحد القرائن البسيطة والهيِّنة؛ حيث يتطابق اسمه «حرجسوي واج ور» مع الميناء القديم المشهور على خليج العقبة المذكور في التوراة باسم «عصيون جابر»، ولك أن تدرك مدى التطابق الفونيطيقي المدهش كدلالة واضحة.

وفي لوحات حتشبسوت دلالة هامة تساعد الباحث على تحديد موقع بلاد بونت، وهي قيام البيوت التي تشبه أعشاش النحل على أعمدة، وهو ما وجدناه إبان زيارتنا للبتراء قائمًا حتى اليوم على ذات الفكرة المعمارية القديمة، ومنه البالغ القدم كما في أم البيارة ومنطقة الدير، ومنه الإحداث الذي احتفظ بفكرته القديمة حتى زمن الرومان كما في خزنة فرعون، والقصر الذي لم يزل يحمل حتى اليوم اسم «بنت»، ولم يزل هذا الأسلوب متبعًا حتى الآن على السواحل الغربية لخليج العقبة بسيناء في محيط نويبع والترابين، ويمكن للزميل زيارتها ومعاينتها بنفسه بأسلوبها البدائي القديم. لكن لأن زميلنا الفاضل لم يجد ذلك على ساحل الصومال، فقد عقب قائلًا في صفحة ٦١: «والحقيقة أن الأكواخ ذات الأعمدة لا توجد اليوم فعلًا في الصومال ... ومسألة وجود الأعمدة لا تصلح أساسًا يُعتمد عليه؛ لأنها ليست من المعالم الدائمة أو الثابتة.» أليس ذلك لونًا من التخلص الواضح والعجز الفاضح؟! هذه نماذج قليلة من كثير يمكن قوله، لكننا اختصرنا حتى لا نجور على المساحة المتاحة لنا بالصحيفة، وكنا نتمنى ألا نقول، لكن الزميل هو من دفعنا إلى التصريح بما كنا نصمت عنه، أقول ذلك وأنا شديد الأسف؛ لأنه وضعني في هذا الموضع الصعب واضطررنا لهذا اللون من الخطاب الذي كنا نعلو عنه دومًا بقامة العلم لا بالغوغائية، وليسامحنا الله جميعًا، ولا بأس على

الزميل إن اعترف بالخطأ وأعاد النظر، وفي ساحة العلم متسع لكل من يملك أدواته؛ شريطة أن يملك أدواته حقًّا.

---

[١] ★أخبار الأدب عدد ١٢/١/١٩٩٧م.

[٢] ★ أخبار الأدب عدد ١٩/١/١٩٩٧م.

[٣] في الأسبوع الماضي، رد الدكتور عبد المنعم عبد الحليم، أستاذ التاريخ بجامعة الإسكندرية، على الدكتور سيد القمني بمقال عنوانه تصحيح للمعلومات الواردة في مقالات الدكتور سيد القمني، والخاصة بتحديد موقع بلاد بونت، وننشر المقال التالي للدكتور سيد القمني ردًّا على الدكتور عبد المنعم عبد الحليم.

[٤] ★ أخبار الأدب عدد ٢/٢/١٩٩٧م.

[٥] ★أخبار الأدب، عدد ٩/٢/١٩٩٧م.

الفصل السادس عشر

أزمة الأقباط[١]

هذا الكتاب جرس إنذار عالي الصوت يردد صدًى ودويًّا، هو صوت مصري مسيحي واضح صريح، متحرر من كل المخاوف والمحاذير، بل وحتى الكياسة والحصافة؛ لأنه كان بالأصل رسالة دكتوراه قُدمت بفرنسا ببلاد غير البلاد، وفي ظل قوانين ونُظم غير نظمنا وقوانيننا ومناهجنا في التفكير، ناهيك عن كون صاحبه يعيش الآن في مهجره بكندا، فكتب بصراحة وبوضوح لا يخشى معهما الملامة؛ لذلك يعد هذا الكتاب إفصاحًا عن مكنون، ورؤية مصري مسيحي لوضع طائفته الدينية في المجتمع المصري، عبر فيها عن أحزانه ومأساته وآماله وأحلامه الوطنية بشكل شديد الوضوح إلى حد الصدمة.

ولسنا بحاجة إلى التذكير أن هناك الآن حوالي ٢ مليون مصري مسيحي يعيشون في المهجر بأنحاء متعددة من العالم، وشكَّلوا تجمعات قوية ومؤثرة وذات صوت عالٍ، ومن مهجرهم أخذوا يخاطبون ضمير العالم، بل ويؤثرون في اتخاذ القرارات العليا في مواطنهم الجديدة، لكنا في مصر لم نزل نعيش الأوضاع كما هي، ندفن رءوسنا داخل شرانقنا، نحب الثبات والسكون ولا نحب الرؤية الواضحة لأنها تبهتنا، نُصر على ذات المنهج ونستريح لذات الأوضاع؛ فالحركة ترعبنا والتغيير يرهبنا. وإذا كان قد تم اغتيال أحد الأصوات المسيحية المعارضة في الخارج، فهل يمكن التخلص من ٢ مليون مصري مسيحي يعيشون في بلاد حرة ليبرالية تحمي صاحب كل رأي أو عقيدة؟

إن هذا الكتاب يعرض كيف يفكر المسيحي المصري، ويضع الحقائق ناصعة، لنسمي الأشياء بأسمائها، إن كنا نريد لوطننا تماسكًا ووحدة تكفل استمرار تناميه وحراكه نحو المدنية، التي هي الدرع الحقيقية لوحدته واستمراره في الوجود.

ولا أستبعد عند صدور هذا الكتاب أن نسمع صيحات التكفير والتفنيد والاتهامات الرخيصة المبتذلة، وربما المطالبة بمصادرة الكتاب كالعادة في بلادنا في مثل تلك الأحوال، رغم أن أرصفة بلادنا تغص بالكتب التي تبخس العقيدة المسيحية وتسفِّه أصحابها. ولم يصادَر كتاب واحد منها.

نحن لا نحب المخالف لأننا لا نملك حجة المناقشة والرد الموضوعي الهادي، ولأننا أيضًا نخاف الحقائق بعد أن اعتدنا أوضاعًا مختلة أصبحنا نظنها الصح الأبدي، ولأننا اعتدنا تمرير

الكذب إلى تاريخنا وصدقناه، ولأننا تحدثنا عن الهزيمة النكراء باعتبارها نكسة، وعن الغزو العربي بحسبانه فتحًا، ولأننا نتأذى من وجود إسرائيل على تراب فلسطين، ونتباكى في الوقت نفسه على الأندلس دون الشعور بأي خلل، ولأننا أسقطنا أبسط مبادئ العقل، قانون الهوية وعدم التناقض، فأصبحنا نرى الحصان اليوناني المجنح «بيجاسوس» أسطورة، ونرى البراق حقيقة لا ريب فيها، ولأننا نقطع ذاكرتنا التاريخية وندافع عن الثقافة العربية الغازية، متصورين أننا بذلك ندافع عن الوطن، وأبدًا لا نضع تلك الثقافة في مكانها الطبيعي بحسبانها قد أصبحت جزءًا من ثقافتنا، وليست هي كل ثقافتنا، فنلقي بكل تاريخنا مع أجدادنا الذين وُصفوا بالمجرمين وغرقوا مع الفرعون في البحر المفلوق بالعصا السحرية، ولأننا نقف مع إسرائيلية موسى ضد مصرية الفرعون، بل نحذف عن عمد وقصد كل تاريخ الحقبة القبطية من تاريخ مصر كما لو لم تكن جزءًا من تاريخها، فحذفناها بكل ثرائها الثوري والفني والأدبي، فأسقطنا بذلك من تاريخنا ما لا يقل عن نصف ألفية من الزمان. بينما نجد شعوبًا تبحث عن تاريخ كامل لها يعادل ذلك الذي نحذفه، فلا تجد. لقد أسقطنا هذا التاريخ لأنه كان تاريخ المقاومة المصرية للاحتلال الروماني، ولأن المصريين في هذه المقاومة ضد الرومان كانوا مسيحيين! ولأن النصف الثاني من هذه الفترة كان فترة ثورة لمسيحيين مصريين ضد الاحتلال العربي. وهكذا لا تجد شعبًا في العالم قرر تكفير ثقافته وتدميرها ونسيان تاريخه عن سبق إصرار لصالح الثقافة الغازية سوى الشعب المصري! ولكِ يا مصر العزاء!

والأكثر إدهاشًا ألا تعرف تلك السنوات العبقرية الفذة في تاريخ مصر طريقها الواضح والكامل إلى كتب وزارة التعليم المصرية حتى اليوم، وهو منطق يعني أننا مع العروبة أكثر مما نحن مع مصر، ومع الإسلام أكثر مما نحن مع مصر، حتى أسقطنا حقبة النضال الثوري القبطي ضد الروم والعرب؛ لأنها كانت مصرية مسيحية ولم تكن لا عربية ولا إسلامية! ولذلك ضحينا بمصر إبان هذه الحقبة كما لو كانت غير موجودة في التاريخ، فقط لأنها كانت مسيحية! لذلك أهدرنا هذا التاريخ وألغينا مصر من الوجود. ألا يعني ذلك أيضًا أننا نقصر تاريخ الوطن أو نتعامل مع مصر كما لو كانت قد بدأت وجودها منذ الفتح العربي أو الغزو إن شئنا الدقة، ومن ثم قمنا نكفِّر تاريخها الأقدم أيضًا لاستبعاده بدوره نهائيًّا؟ أفلا يفصح هذا اللون من الفكر المتواري المضمر، عن عقلية الغاصب المحتل المستوطن الذي يريد استبعاد كل ما يجعل للمواطنين جذورًا قديمة في تاريخ وطنهم، ومحو تاريخهم محوًا؟ ثم ألا يعني ذلك اعترافًا من المسلم بالفكرة القائلة إن المصريين الأقباط هم ورثة الفراعنة الشرعيون، وإن المسلمين احتلال عربي استيطاني طال أمده عما ينبغي؟

وبالمناسبة هذه هي الفكرة التي ستعبر عنها صفحات هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

إن منهج التفكير والسلوك عند المسيحيين والمسلمين المصريين، يترك مساحة هائلة للجانب

الديني عند الحديث عن الوطن؛ مما يؤدي إلى خلل دائم في الرؤية، وهو ما يشكل خطرًا جاثمًا طوال الوقت، نحمد الله أنه لم يفجر مصر إلى مقاطعات إقليمية كما هو حادث في بلدان أخرى من العالم. وإذا كان هناك صاحب فضل في ذلك، فإنهم أقباط مصر الذين يعتقدون أنهم أصحاب البلاد التاريخيون، وأنهم الامتداد الطبيعي لسلسال الفراعين، وأنهم يملكون مقومات ذلك، سواء من حيث التاريخ أو العنصر أو المواطنة بالجنسية أو اللغة القبطية المتطورة عن الديموطيقية المتطورة بدورها عن الهيروغليفية. لذلك تحمَّل المسيحيون المصريون كثيرًا من المعاناة لزمن طويل، قبلوا أثناءه أوضاعًا شديدة الظلم في وطنهم حتى لا ينقسم وطنهم ويتشظى.

لكن المصيبة الأعظم أن مسيحيي مصر يفكرون بمنطق أشد تعصبًا من المسلمين السلفيين، فكلاهما يعتبر الدِّين هو الهوية وهو الوطن، وهنا الفجيعة المروعة، فالقبطي لا يطلب مجتمعًا علمانيًّا مدنيًّا، يحفظ ويصون ويضمن جميع الحقوق لجميع الأفراد على التساوي، بغض النظر عن كون المواطن مسلمًا أم مسيحيًّا أم ملحدًا. لكنه يطلب مجتمعًا مصريًّا مسيحيًّا كما لو كانت المسيحية قد أصبحت شرط المصرية، وعند الإسلام السياسي نجد ذات المنهج؛ حيث الإيمان بالإسلام ومبادئه شرط صدق المواطنة!

انظر قارئي معي إلى الغاية النهائية التي كانت تريدها جماعة الأمة القبطية، التي أسَّسها إبراهيم حلمي هلال سنة ١٩٥٢م وتم حلها بقرار أمني عام ١٩٥٤م، ويلخصها لنا صاحب هذا الكتاب فيقول ص٢١١-٢١٢: [٢] ★

> «استرداد مصر كلها، أرضنا التي سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ أربعة عشر قرنًا، إن أرضنا هي مصر، وديانتنا هي المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا الرسمية هي اللغة القبطية».

أورد المؤلف تلك الفقرة دون أن يعقب عليها وتركها تنطق بدلالاتها ضمن السياق، وهو ما يعني الموافقة الضمنية على ما ورد فيها، ومعنى ذلك أننا سنخرج من حكم ربما يستعين بالدين أحيانًا، إلى حكم ثيوقراطي شمولي ديني من رأسه إلى أخمص قدميه. وناهيك عن استحالة المطلب، فطرد أو إفناء خمسين مليون مصري، أو تنصيرهم، فكرة لا تضع صاحبها في خانة العقلاء على الإطلاق، والمفارقة أن أصحاب مثل تلك الفكرة الجامحة يرون لإسرائيل حق الحياة في المنطقة؛ لأنهم استعمار استيطاني، فما ذنب الأحفاد الذين وُلدوا هناك وأصبحوا مواطنين حقيقيين؟! لكنهم لا يرون ذات الحق للمصري المسلم في المواطنة بعد أربعة عشر قرنًا. وهذا

يطلب دستورًا قرآنيًّا، وذلك يطلب دستورًا إنجيليًّا، وتضيع مصر!

ومن هنا، فإن أهمية هذا الكتاب تكمن في كونه يضع صورة غاية في الوضوح لكيف يفكر أقباط مصر اليوم، في عالم أصبحت فيه الليبرالية سيدة الأنظمة، وأصبحت فيه قوانين الحريات والكرامة الإنسانية فوق كل القوانين، وظهرت قوًى تنتهز مثل تلك الفرص للتدخل في الشئون الداخلية، وفرض شروط السياسة والقرارات السيادية، بضغط يستثمر لاءات الحريات والكرامة الإنسانية، ومن ثم أصبح واجبًا علينا إصلاح البيت من الداخل؛ دفعًا لأي ضغط أو تأثير خارجي على كرامة بلادنا. وهو إصلاح ممكن وسهل لو خلصت الضمائر لمعاني الدولة المدنية الديمقراطية الليبرالية المُعَلْمنة. بل إن صاحب كتابنا هذا لم يجد أي حرج في القول ص٢٥٤: «إن العقوبات الاقتصادية هي الوسيلة الطبيعية لتنفيذ تلك السياسة، وعلى الدول الديمقراطية اللجوء إلى تلك العقوبات ضد الدول التي يثبت ارتكابها جرائم انتهاك فاضحة ومستمرة لحقوق الإنسان.» والتلميح واضح، وهنا يُنتظر منا، حسب المنهج السائد، أن نهدد الكاتب بالويل والثبور وعظائم الأمور، مع نعوت يُحبَّذ أن تبدأ بالعمالة وتنتهي بالخيانة.

لكني أقول بصوت عالٍ نرجو أن يرجع لنا صداه وأثره، إن هذا المصري ما وصل به الحال إلى ذلك إلا إذا كان قد طفح به الكيل، وإن متغيرات العالم السريعة منحته الفرصة لأول مرة لشرح قضيته أمام العالم، بل إن بعض هذا العالم وأنا أكتب هذه الصفحات يفكر الآن في قطع المعونة عن مصر لهذا السبب تحديدًا.

بالطبع لا شك إطلاقًا أن مثل تلك الدعوة رغم كل مساوئها ومخاطرها على مصر، التي يعيش فيها مسيحيون ومسلمون، تعبر بوضوح عن فشل كامل لكل المساعي التي تقدم بها الأقباط في مطالب واضحة وتم إهمالها تمامًا، كما توضح صفحات هذا الكتاب، ودون حتى مناقشة تلك المطالب علنًا.

لكن، ونحن نتعاطف مع مطالب المسيحيين المصريين، بل نتوحد بهم ونتباهى معهم بأننا أعرق حضارات الأرض، لا يسعنا إلا أن نفكر بعد ممارستهم الضغوط في الخارج من أجل قضيتهم: ماذا يطلبون؟ وماذا يعرضون؟

أولى المصائب مطالب من النموذج الذي سقناه منذ قليل (دولة مسيحية دستورها الإنجيل ولغتها القبطية)، فإذا كنت — ومثلي كثيرون — نرفض بل ونقاوم قيام دولة إسلامية، فالنتيجة البسيطة لمثل هذا التفكير أننا سنقاوم وبشكل أشد مثل ذلك الخيال المستحيل، بفرض إمكان حدوثه. وهكذا تخسر القضية القبطية أهم القوى التي تساند مطالبهم، وهي قوى المستنيرين من مفكرين علمانيين ذوي شأن وقَدر وقدرة أيضًا على التأثير الجماهيري الواسع، بل وربما يكون رأيهم في حالات كثيرة له تأثير على اتخاذ القرار السيادي. ومثل تلك الخسارة ستكون هي الخسارة الحقيقية

ليس للأقباط فقط لكن لمصر جميعًا؛ لأن معنى ذلك أننا سنُقدم على هاوية مظلمة لا يعلم أحد منتهاها. إن الطرح السالف يشير بوضوح إلى أن العقلية القبطية في التفكير قد أصبحت مسيحية غير مصرية، طائفية دينية غير وطنية؛ لأن الدين المسيحي ليس مصريًّا، ورغم أن المسلمين أقباط أيضًا، وأكثريتهم يعودون بالجنس — وليس بالدين — إلى أصول مصرية عريقة. ونحن تعنينا مصر كما يشغلنا أن يعيش المواطن في مصر عزيزًا يتمتع بكل الحريات، حتى يمكنه أن ينتج ويبدع؛ لأن العلم لا ينمو إلا في مناخ حر تمامًا، وهو سبيل تقدم الأمم.

لكن ما هو موقف صاحب الكتاب وكيف يفكر؟ نحمد الله أنه يفكر بذات المنطق وذات التفكير السائد بين الأقباط، حتى إنه قدم لنا نموذجًا للمسألة القبطية في أذهان الأقباط وضميرهم بكل حماس؛ ولذلك لم يشغله التدقيق العلمي في أكثر من موضع. وخاض في مناطق شديدة الحساسية والوعورة دون أن يكون مسلحًا بالأدوات العلمية اللازمة، كما في حديثه مثلًا (ص٢٥٢) عن زواج القبطي من المسلمة، وهو الممكن في دولة مُعَلْمنة، ويحبذ العلمنة لهذا السبب، ويدلي برأيه التحبيذي في أمر يحتاج اطلاعًا واسعًا على الشريعة الإسلامية وعلومها. أو مثل ذلك الكلام الصحفي من قبيل: إن المسيحي عندما يطلب عملًا في مصر، «فإنهم يخاطبونه بهذه اللهجة: اذهب فليست هناك وظيفة لك» (ص٢٠٤). وهذا كلام إن جاز في الأحاديث الصحفية المثيرة، لا يجوز في رسالة علمية؛ لأن العلم تدقيق؛ فحدثٌ كهذا؛ متى حدث؟ ومن السائل؟ ومن المجيب؟ وفي أية مناسبة؟ وتاريخ المناسبة؟ ومدى صدق هذا التوثيق؟ ثم ما قيمة هذه الحادثة كلها؟ ... إلخ. ثم هناك مستوًى آخر أكثر علمية هو إجراء البحوث المدعمة بالبيانات والإحصاءات المقارنة للنِّسب العددية بالوظائف في مصر، هكذا العلم، أما غير ذلك فصحافة. أو كما يُلقى القول إلقاءً في عبارات؛ منها «إن الإسلام يُظهر عداء لحرية الدين وبصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بترك الإسلام.» هكذا دون أن يقدم تعريفًا بأن هذا الأمر مختلَف عليه بين الفرق الإسلامية، وفي هذه الحال كان لا بد من توضيح واضح كافٍ لتأييد وجهة نظره واختيارها دون وجهات النظر الأخرى، وهذه المؤيدات لا بد أن تكون من أمهات كتب المكتبة العربية ... إلخ. فهذه هي شروط العمل العلمي كي يكون علمًا بالمعنى الدقيق للكلمة. لكن لو قال «المسلمين» في مصر بدلًا من «الإسلام»، إذن لجاز قبول القول ومناقشته. إذن، صاحب الكتاب ينعى على المسلمين المصريين والدولة المصرية لأنها لا تأخذ بالعلمنة، لكن هل يوحي لنا هذا الكتاب بأن صاحبه يؤمن بالعلمنة حقًّا؟ لقد ضربنا أمثلة لعدم الحرص على الدقة والصرامة العلمية، لنقول إن صاحب الكتاب كان مشغولًا معنيًّا بأمر آخر غير العلم، سنرى الآن أنه لا يختلف إطلاقًا عن مطالب الإسلام السياسي، ويا لضيعتك يا مصر بين أبنائك!

كنت مستعدًّا أن أفهم إذا لم يحدثنا الصوت القبطي عن دولة دستورها الإنجيل وأنا أرفض دولة دستورها القرآن! وكنت بالتأكيد سأقف معه قلبًا بقلب ويدًا بيد وهو يرفض تطبيق الشريعة

الإسلامية في مصر؛ لما لذلك من مخاطر مؤكدة على وحدة الوطن وسلامته، لكني أبدًا لا أفهم ماذا ستفعل بما يزيد على خمسين مليون مسلم مصري؟ نعم أقف معك ضد تطبيق الشريعة الإسلامية؛ لأننا كيف سنحاكم المسيحي؟ هل نحاكمه بالقانون المدني؛ فنقطع يد حسن عندما يسرق، ونحبس جرجس ثلاثة شهور عندما يفعل ذات الفعل، فيخرج من سجنه إلى الكنيسة ليقدم للعذراء شموع العرفان والشكر، لأن يده لم تُقطع مثل حسن؟! كنت أفهم أن يقف المسيحي ضد العقوبات حسب الشريعة الإسلامية؛ لأنها ستؤذي مجتمع إخوانهم المسلمين، وربما تساءل المجتمع جميعه عندما يكتشف براءة حسن، عن كيفية إرجاع يده المقطوعة إليه. وربما كنت أتصور أن أخي القبطي وأنا سنقف معًا ضد تطبيقها؛ لأن الإنسانية قد تجاوزت مرحلة العقوبات البدنية إلى غير رجعة، وأن هذا هو سبيل الرقي البشري، وأن أحكام تلك الشريعة إن لم تتكيف مع المتغيرات باجتهاد واضح، فإنها ستئول وحدها إلى الظل ثم إلى التعطل، كما تعطلت أحكام آيات قرآنية أخرى تصل إلى حوالي ثلاث وعشرين آية، تتعلق بالرق والسبايا وملك اليمين، بعد أن ارتقى البشر عن تلك الوصمة التي لطخت جبين البشرية طويلًا. لكن أن نستبدل الإنجيل بالقرآن، فتلك والله قاصمة للظهر، ومنطق لا علاقة له بالإخلاص للوطن.

والكتاب الذي بين يديك بطول صفحاته جميعًا يكرس لاتخاذ المسيحية وطنًا وهوية، ويضع ذلك في إطار التمسك بمصر الوطن، غير مدرك أي تناقض فصيح يكمن في منهج تفكيره الذي يعبر عن منهج جميع مسيحيي مصر تقريبًا؛ لأن الحالات التي أقابلها وتؤمن حقًّا بمجتمع مصري مُعَلْمن من بين المسيحيين، تُعَد على أصابع اليد الواحدة، وأنا من الشخصيات العامة في مصر ذات العلاقات الواسعة، وشهادتي تقوم على قياس دقيق للعينات. إن المسيحيين يملئون بقاع الأرض، فهل من حق كل واحد منهم قطعة في مصر ما دامت مصر تعادل المسيحية؟!

إن الحل الذي لم يره هذا الكتاب ليس في تمصير المسألة بالمسيحية أو بالمرحلة القبطية وحدها، لكن بالمصرية. والمصرية تجمع ثقافة مصر القديمة وثقافة الحقبة القبطية وثقافة الحقبة العربية جميعًا، في تضافر ينطق به السلوك والعادات والتقاليد والكرنفالات الاحتفالية المشتركة، وهو موروث قديم من الثقافات الثلاث، متغشيات في بعضها البعض. والمصرية تعني عدم تغليب ثقافة من تلك الثقافات على الأخرى؛ لأننا لو أردنا مصر مسيحية لأنها كانت كذلك قبل الفتح العربي، وأن المسألة مسألة عراقة وتواجد أسبق، فالأَولى أن نعود إلى الإله آمون؛ لأنه بهذا القياس الأعرج سيكون أعرق من إله المسيحية وأعرق من إله الإسلام، ولأنه عاش مقدسًا بين الناس عمرًا يعادل عمر الإلهَين مجتمعَين، وظل يُعبد طوال تلك الحقبة الطويلة كرب رسمي لإمبراطورية عظمى عزيزة مقتدرة، بل كانت في أحيان كثيرة الدولة العظمى الوحيدة في العالم دون منازع، وإذا كان المقياس بمدى بركات الرب على شعبه، فكرامات آمون واضحة، فقط هو ينوء بفضيحة آل إليها أولاده من بعده بين الأمم. وإذا كان لا بد من صبغ المواطنة بالدين، فلدينا أديان مصرية

قديمة من فرز واقعنا الوطني الجغرافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فرز يتفق وأذواقنا ومنطق فهمنا الزراعي للحياة، أديان للنيل وللوادي وللمواسم وللزرع وللزهر وللحب وللعدالة والوداعة، ولننفِ الأديان البدوية الواردة. إن خطابًا كهذا يستدعي خطابًا كذاك، وكلٌّ منهما لا يمكن تصنيفه ضمن الخطاب العلمي إطلاقًا، بل ولا هو خطاب وطني بالمرة.

وسيلاحظ القارئ أن صاحب كتابنا يبدأ تاريخ مصر من الحقبة القبطية، وهو في ذلك مثل المسلم المتطرف الذي يبدأ تاريخ مصر من لحظة دخول عمرو بن العاص إليها.

انظر معي الكاتب ص١٠ وما بعدها، كيف يبخس وينفي الآخر من مذاهب مسيحية مخالفة لاعتقاد المؤلف ومذهبه، مستخدمًا للنفي مفردات لاهوتية كنسية، ولا يسوق مناقشة علمية. فقط مبرِّر نفيها أنها كانت آراء وثنية أو مذاهب هرطقية! أي إن الصحيح هو الإيمان المسيحي الذي استقر فقط! أليس ذلك إفصاحًا عن عدم احترام داخلي للمبادئ التي ينادي بها صاحب الكتاب؟ إنه يتخذ موقفه من تقييم المواقف المخالفة من أرضية اعتقادية بحتة، وأن الأنا هو الصح والآخر هو المخالف المارق الزنديق المهرطق الوثني! وكان النفي كما سنقرأ لأسباب دينية وليست وطنية، سالت فيها الدماء الزكية أنهارًا حتى استقرت المذاهب المنتصرة القائمة للآن. وهي قائمة ليس لأنها الأصوب إيمانًا بالضرورة، لكن لأنها التي انتصرت. ومن على مقعد المنتصر يحدثنا مؤلف الكتاب.

انظر مثلًا موقفه مع حرمان الأريوسيين مع عدم تطرقه ولو بالإشارة إلى الاضطهاد المخيف الذي وقع عليهم ومدى عنفه، أو وقوفه مع مذهب المنتصر بالعنف ضد ما أسماه «هرطقة نسطور»، التي تم اضطهاد أصحابها بدورهم والتنكيل بهم، دون مبرر علمي واحد يبرر له اتخاذ هذا الموقف المنحاز سلفًا، اللهم إلا اعتقاده أنه هو وطائفته على العقيدة الصحيحة وحدهم، وهذا في حد ذاته ذاتُ التفكير الإسلامي المتعصب الذي لا يرى أحدًا يملك الحقيقة النهائية والمطلقة سواه.

صاحِب هذه الحقيقة المطلقة يتبع كنيسة ذات تراتب وظائفي وكهنوتي شديد التعقيد، ويهتم بدوره بهذا الأمر الذي لا يشغل أحدًا صفحات طويلة، لكن الدرس الذي تخرج به بعد هذا الملل شديدُ الأهمية؛ لأنه يوضح أي منهج عتيق وبالٍ ومعقَّد وبلا معنًى يُصر عليه القبطي المصري. فالمؤلف حسب عنوان كتابه عن حقوق الإنسان، وحول ص٦٦ يحدثنا عن حقوق النساء ودورهن فيها، مثلًا: «الشماسات والمكرسات يقمن بحفظ النظام بين النساء أثناء أداء الطقوس ولا سيما في القرى. أما دور الشماسات خلال تنصير (تعميد) النساء، فيقتصر على قيامهن بالشرح للنساء عما ينبغي عليهن عمله، ولكنهن لا يساعدن الكاهن في التنصير أو عمله في سر الميرون؛ حيث إن ذلك يقتصر أداؤه على الكاهن.» انظر معي الكارثة العالمية التي ستترتب على ذلك:

«وهذا يعني أن الشماسات لا يستطعن حمل القربان المقدس الذي يُتناول في الكنيسة إلى منازل

النساء المريضات؛ لأن ذلك من وظيفة الكهنة دون غيرهم.»

ما علينا من هذه الهموم الغريبة التي تشغل بال إخواننا الأقباط، لكنا فقط نرتعب لو تصورنا أنفسنا محكومين بالإنجيل بطقوس ورتب كهنوتية كتلك المعروضة أمامنا، وتمر آلاف السنين حتى يُسمح للمرأة بدور غير كامل، فما بالنا لو كان ذلك في مجتمع يحكمه كهنة الكنيسة؟

وهكذا بطول كتابه يسلِّم الكاتب بالمقولات الكنسية، ويقف مع مفردات غاية في الصغر بجوار القضية الكبرى التي يتناولها، ويدعم وجهة نظره بتبريرات لاهوتية لا علاقة لها بحقوق الإنسان. انظره يقول ص٦٨: «إن مسألة الطابع المذكر للكاهن الذي يقوم بأسرار الكنيسة تدخل في البحث بصورة بارزة في التوازن القائم في الكنيسة بين دراسة المسيح (الكيروستلوجيا) ودراسة الظواهر الروحية (النيوماتولوجيا)، وهناك من الأمثلة ما يدعم هذا النظر، في أن المسيح لم يختر أبدًا بين حواريه امرأة، كما أن العذراء مريم أم الكلمة المتجسدة لم تقم أبدًا بأية وظيفة كهنوتية في الكنيسة، ولو كان مسموحًا للمرأة بأن تمارس أية خدمة كهنوتية لكان واجبًا أن تشغل وظيفة الكهنوت أولًا، ولكن التقليد الرسولي لم يتضمن مطلقًا سيامة المرأة كاهنة.»

وهنا يتقدم كاتبنا يطلب حق المرأة في الكنيسة، لكنه يتواضع في طلبه فيقول ص٦٩: «إن إتاحة وصول النساء إلى مراتب السيامة الأدنى، مثل مساعدة الشماس والقارئة والمرتلة والمعلمة وغيرها من مراتب السيامة، هي مسألة تستحق الدراسة لإبراز كرامة المرأة ومكانتها على نحو محدد، وللاعتراف الصريح بمشاركتها في العمل الكنسي.»

فإذا كان هذا نموذج القضايا الخاصة بالحقوق الإنسانية، وكانت تلك طرق علاجها عبر مؤسسة عجوز قديمة معقدة، فكيف يمكن الحديث عن حقوق أقباط أمام أغلبية مسلمة؟! إن كارثة مصر أن كل من فيها، مسلم أم مسيحي، لا يرى أخاه المخالف في الملة إطلاقًا، وكلٌّ منهم يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة، والكارثة العظمى أن كلًّا منهما يمزج مصر الوطن بعقيدته.

انظر كيف يتعامل صاحب هذه الرسالة العلمية مع التاريخ وبأي منطق، عندما كان يحكي عن حسم الصراع المذهبي في إثيوبيا لصالح المذهب الأرثوذكسي المصري. وبدلًا من أن يحدثنا الكاتب عن هذا النصر المصري في بلاد الأحباش بحسبانه نصرًا وطنيًّا، يضع دولة أخرى في تبعية ثقافية لواحدة من الثقافات المصرية، هي الثقافة القبطية، فإنه يفجعنا بالقول: «ويعتبر انتصار الإنجيل في إثيوبيا واحدًا من أهم الأحداث العظيمة.» وهكذا يند عن الرجل مجموعة من الاعترافات الضمنية المذهلة، لعل أوضحها أنه مشغول بانتصار الكنيسة أكثر مما هو مشغول بمصر، وأن انتصار الكنيسة المصرية يعني انتصار الإنجيل، ولم يقل انتصار مصر، رغم أن الذين هُزموا وتراجعوا بالحبشة كانوا أتباع الإنجيل أيضًا، كل ما في الأمر أنهم كانوا يخالفون المذهب المصري الأرثوذكسي. لكن الرجل لا يرى الآخرين مذهبيًّا أتباعًا للإنجيل؛ لأنه هو الذي

يعرف الإنجيل الصحيح، وهو الإنجيل الذي انتصر في إثيوبيا.

بأي حق نلوم المتطرفين المسلمين إذن؟

وينشغل كاتبنا أيما انشغال بكل شيء عدا مصر التي قبعت في سطور منزوية برسالته، فهو مثلًا مشغول بالدفاع عن أمر عجب في ص٧٨؛ إذ قام يشرح ويبرر أن انفصال كنيسة الإسكندرية عن روما ليس قطيعة تامة، بل يوجد تقارب بين الكنيستين يمكن أن يؤدي في النهاية إلى الوحدة المسيحية!

وبالطبع ستكون كنيسة روما هي ذات اليد العليا في تلك الوحدة المسيحية المنتظرة. لكن كاتبنا لا يتكلم بنفس الحماس عن وحدة وطنية في مصر بين عنصرَيها، تشغله الوحدة المسيحية أكثر. فلماذا إذن ينزعج أقباط مصر، وهذا منهجهم، من الوحدة الإسلامية؟! وهل في سبيل الوحدة المسيحية المنتظرة يمكن التضحية باستقلال الكنيسة المصرية الذي نعده جميعًا مصدر فخر للمسلم والمسيحي؛ لأنها مصدر فخر مصري وطني؟ هل يمكن أن نضحي بالاستقلال من أجل وحدة طائفية عالمية؟ لماذا إذن ننزعج من مطالب دعاة الوحدة العربية التي هي أقرب إلى المقبول على كل المستويات في حال المقارنة؟

والأنكى والأمرُّ أنه يطالب في ص٩٧ بحرية الوالدين في تنشئة أطفالهم دينيًّا؛ لأنها من أساس حقوق الإنسان، وهو «حق الوالدين في تنشئة أطفالهم على الديانة التي يختارونها.» وكنت أظنه سيقول بعدم التدخل إطلاقًا في فرض أية وصايا على عقل الطفل وروحه؛ حتى يختار بكل حرية أي دين أو لا يختار أي دين، إذن لكان الكلام موحيًا بمدى الاحترام والفهم لحقوق الإنسان.

وهكذا كنا في منتهى الصدق عندما قلنا إن هذا الكتاب يدق جرس إنذار لأمر عظيم، رغم أنه لم يخرج عن ذات المنهج الأصولي في رؤية الأمور، المنهج الذي يحكم الشارعَين المسيحي والإسلامي في مصر، ولا خلاص من هذا كله إلا بسعي حقيقي دائب لا يفتُر ولا يكلُّ من أجل إقامة دولة مدنية مؤسساتية حقًّا وصدقًا، وقبل ذلك مدْيَنة العقل المصري وعلمنته وتعليمه معاني الحريات وتدريبه عليها، في ممارسات ديمقراطية سليمة. أو لنا أن نختار غير ذلك؛ فهناك طريق آخر جاهز لدينا، وهو طريق امتلاك الأساطير وأوهام الحقيقة المطلقة، وهو الطريق المعلوم في التاريخ، وسبق أن سارت فيه عمورة وسدوم أو عاد وثمود والهنود الحمر.

فتلك سكة السلامة، وهذه سكة الندامة، فإن أصررنا على مناهجنا السلفية العتيقة الواحدية الدموية الأسطورية، فلن يخسر العالم شيئًا باختفائنا من على صفحة التاريخ، بل ربما خرج كاسبًا بعد انقراض أفواه تأكل ولا تنتج، بل تشيع في الأرض العدوانية والوحشية، وتعيش عالة على الدنيا، وترى أنها شعوب مختارة، وهي في أدنى درجات سلم التطور الإنساني. وساعتها لن يندم

أحد، وربما كانت لنا فائدة واحدة في تلك الحالة، وهي أننا سنكون في مقتبل الأيام درسًا وعظة عند الذكرى، وما عدا ذلك فهو تاريخ نوع من القردة العليا توقف عن التطور والتكيف مع المتغيرات، فانقرض وآل أمره إلى المتاحف وعلماء الآثار.

الهرم، في ٣٠ أكتوبر ١٩٩٧م

---

[١] تقديم قدمه المؤلف لكتاب الدكتور سليم نجيب رئيس محكمة مونتريال بكندا، وهو رسالة دكتوراه بعنوان «حقوق الإنسان في مصر، حالة الأقباط»، قُدمت إلى جامعة «بانتيون، أساس، باريس رقم ٢»، وذلك في ١١ يونيو ١٩٩٢م.

[٢] ★ هذا الترقيم كما في أصل رسالة الدكتوراه المطبوعة بالآلة الكاتبة.

الفـــــهـــــرس

الإهداء
السؤال الآخر
١ – لماذا لا نحاكم الإمام الغزالي إذن؟!
٢ – السؤال الآخر في قضية نصر أبو زيد
٣ – ضريبة الحرية شرط التقدم: قتل أمة بسيف التكفير
٤ – السؤال الآخر: الكوارث الإلهية
٥ – السؤال الآخر إلى الشيخ والطبيب التلفازيَّين: أي علم؟ وأي إيمان؟
٦ – مرض المنهج: محاولة للتشخيص المبسط
٧ – خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل
٨ – السؤال الآخر: الإسلام والقضية الإسرائيلية
٩ – الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة
١٠ – حول ما هو أهم من تصريحات «الأب الروحي» المشهور!
١١ – تعقيب على لقاء نتانياهو بالمثقفين المصريين
١٢ – حدود الاجتهاد (مناظرة تليفزيونية ١)١
١٣ – حدود الاجتهاد (مناظرة تليفزيونية ٢)١
١٤ – أسطورية الدم: قراءة للوضع المجتمعي للمرأة في عقائد الشرق الأوسط
١٥ – معارك فكرية
١٦ – أزمة الأقباط١